هند الشيخ علي



عندما يرفع الحب رايته استسلامًا

رواية

عصير الكتب

عندما يرفع الحب راياته استسلامًا





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يناير/ 2023م

رقم الإيداع: 2022/27448م

الترقيم الدولي: 978-977-992-186-0

المؤلفة: هند الشيخ علي

تدقيق لغوي: مريم عبد الجليل

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

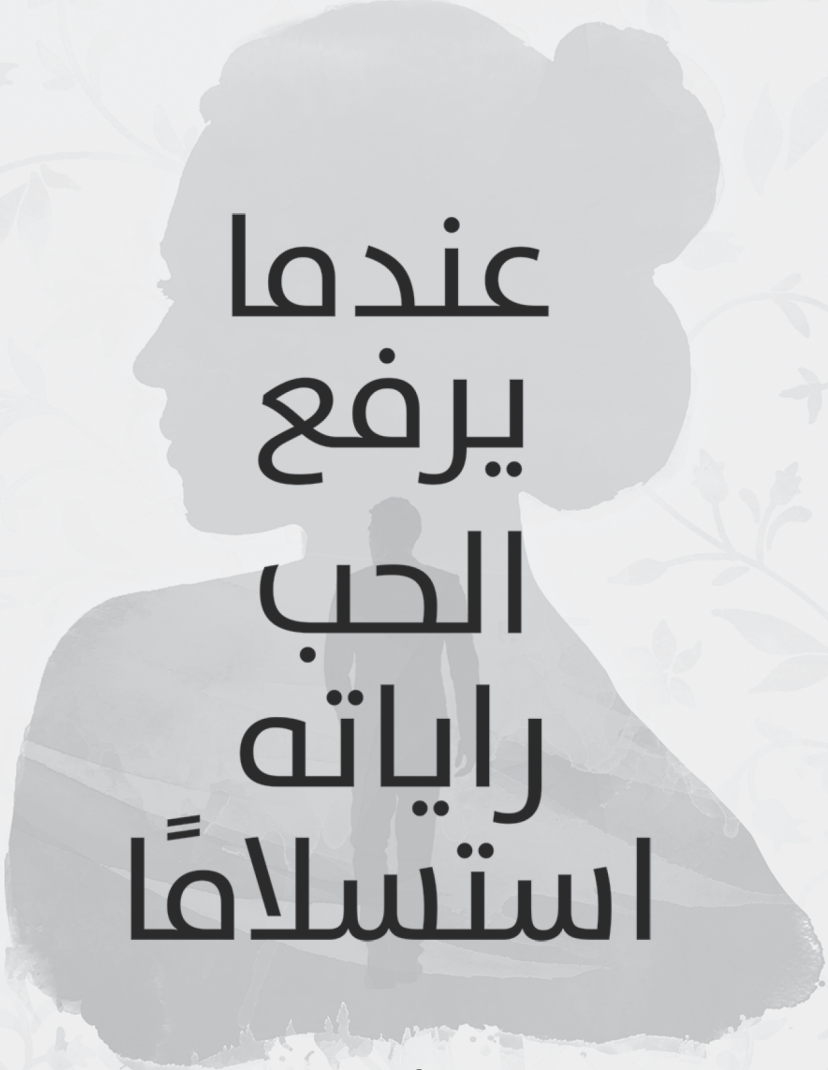
الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.



هند الشيخ علي

عندما يرفع الحب راياته استسلامًا



رواية

عصير الكتب

إهداء

إلى روحي البريئة التي رحلت،
ونفسي القَلِقَة التي لا ترحل أبدًا،
وفؤادي الرَّحَّال بحثًا عن وطنٍ بلا عنوان،
وقلبي المطمئن دائمًا بالإيمان،
وإلى كل مَن هُم في مثلِ حالي.

1

حَجَرٌ صَلْدٌ

بعد أن نام الأبناء واختلى بها الليل، لملمت منى ما تبقَّى من طعام وأطباق من غرفة المعيشة، واتجهت بها كحالها كلَّ يومٍ إلى المطبخ، جمعت الأطباق في الحوض وشرعت في غسلهم، وكمن يصلي بلا خشوع -فتراه يقرأ في كلِّ ركعةٍ من ركعاتها ما يحفظه لسانه من آيات ثم يذكر الله في كلِّ حركةٍ من حركاتها حتى يتمها على أكمل وجه، بينما عقله وقلبه يسبحان فيما يشغلهما من أمور الدنيا- كانت منى.

يسبحان فيما مضى من أربعة وثلاثين عامًا حتى يومها، بينما يداها تغسلان الأطباق بكلِّ إتقانٍ، ويردِّدُ لسانُهَا ما لذَّ وطَاب من أغنيات الحبِّ المرحة التي لا تَمُت بصلة إلى ذلك الفضاء الفسيح من الذكريات التي تجوب عقلها وقلبها، وكأنَّه ليس بعضًا منها، يتبرَّأ منها فلا يحكي ما بها، وتتبرَّأُ منه فلا يعبر عنها، وما يغلي في جوفها، أم إنَّه يريد التخفيفَ عنها والحُنُوَّ عليها وهي لا تدري! ثم تنضم عيناها إلى تلك الملحمة فتذرف الدمعَ بلا توقف، بلا تنهيدة أو صوت بكاء، وكأنهما تكفلتا عن كامل الأعضاء بالسَّهرِ والحُمى، أو ربما هي أدوار وُزِّعت بمنطق فوق إدراكنا نحن البشر، فمهما سعينا إلى فهمه عدنا خائبين.

وما هو بعجيب أمرهما، سبحان مَن جبلهما على هذا العمل دون طلب، فإن حبسهما حابسٌ فلا ندري مَن يَتَكفَّل بالنار التي تغلي كغلي الحميم في أجسادنا عندما تضيق بنا الأرض بما رَحُبَت، وكأنَّ هناك بحرًا هادرًا خلف مقلتيها يصبُّ بهما الدمعَ صبًّا، كلما لاحت ذكرى أو جابت فكرة عن حالها، وما هي مُقْدِمة عليه في القريب القادم من أيامها.

بقي يومان على سفرها وأبنائها من أرضٍ دام المقام بها لأربعة عشر عامًا، مخلفة وراءها أكوامًا من الذكريات التي نثرتها الأيام على بساط أبهى سنوات عمرها.

وبينما هي على حالتها تلك في ذاك العالم الحزين، إذ بزوجها علي يعود من عمله، دخل المطبخ حيث هي، وَضَع ما كان معه من مُؤَنٍ وخرج دون حتى إلقاء التحية عليها، ليبقى ماءُ علاقتهما راكدًا آسنًا.

وكلما تكرَّر هذا المشهد كلَّ ليلةٍ، انغرس مسمارُ الجفاء في قلبها، فينزف بما فيه من حبٍّ له، ومع تكراره لستة أشهر، وصل هذا المسمار إلى عمق قلبها، فما بقيت به قطرةُ حبٍّ واحدةٍ، لقد جفَّ من حبِّه فأصبح حجرًا، وثبت به المسمار كوتدٍ دُقَّ في صخرٍ صلْدٍ.

ولَّما انتهت من الأواني والدُّموع والغناء، خرجت متجهة نحو غرفة الأبناء حيث ينام فريد وماجد وضحى، كلٌّ على سريره، أحكمت عليهم الغطاء وأغلقت عليهم الباب وعادت لغرفة المعيشة، التي أصبحت موضع نومها هي وريم -الابنة الصغرى التي تبلغ من العمر عامًا ونصف– منذ عشرة أيام، فقد كانتا تنامان في غرفة النوم مع الزوج طوال الستة أشهر التي استمرَّ فيها الخصام حتى بكت ريم بشدة في إحدى الليالي بشكلٍ أزعجه، أو ربما كانت حجة للفظ أيِّ قربٍ بينهما ولو كان بالجسد فقط، فأمرها بلهجةٍ حادةٍ -قطعت ما تبقَّى من خيوط رفيعة بحبال الوصل- أن تخرجَ بها من الغرفة لأنه لا يستطيع النوم، خرجت بها في صمت، قررت أن تنامَ ما تبقَّى لها من ليالٍ معدودات في غرفة المعيشة حتى يحين موعد سفرها وأبنائها إلى مصر.

انتظرت لستة أشهر حتى ينتهي العام الدراسي، ثم تهبط بهم مصر لتستقر هناك وتخلع نفسها من زوجها لتبدأ حياةً جديدةً من دونه، لقد زهدت الكلام مع زوجها حتى لطلب الطلاق، أصبح بالنسبة إليها ماضيًا يُتَّهمُ بالخبل من يظنه يعود، أو حاضرًا مُرًّا لا يُقبِل عليه جائع، أو مستقبلًا أوحت كلُّ النبوءات بظلمته.

«وضعت بين يديك قلبي وسنين عمري، ولم أطلب منك سوى الأمان
ولم تعطنيه، فدعني أتكئ على ما تبقَّى مني لأمرَّ منك بسلام».



المحطة المجهولة

جلست منى بجوار ريم على إحدى الكنبات التي اتخذتها فراشًا لها، اقتربت منها لتطبع على خدها قُبْلة بطعم الحسرة، أحكمت عليها الغطاء ثم انتقلت إلى الكنبة المجاورة، جلست ثم أسندت ظهرها إلى ظهر الكنبة لتنطلق منها تنهيدة اليائس مفطور القلب وهي تُلقي بنظرة على الطفلة الغارقة في نومها الحالم.

اعتصر قلبها ذلك الألم الذي يُصيب كلَّ امرأةٍ حُرم أبناؤها من أبيهم كأنهم أيتامٌ وما هم بأيتام، قالت لنفسها: «أمَّا عني وعنه فلا ضير، نكمل حياتنا، يتزوج وأتزوج إن أردنا، وأمَّا عنهم فكلُّ الضَّير، ستحاكمهم الحياة أيَّما محاكمة على جريمة لم يرتكبوها، ستنزل بهم أشد العقوبةِ، ليتها الإعدام ليرتاحوا، إنها السجن المؤبد في زنزانة اليُتْم مع الهموم الشَّاقَّة المؤبدة».

فلم تكن الحياة بينها وبين زوجها سيئة حتى لتصلَ بها إلى هذه الدرجة التي لتجبرهما فيها على النزول في محطة مجهولة، لتركب زوجة جديدة ليبدآ رحلتهما معًا، وكأنه شابٌّ في العشرين يبدأ حياةً جديدةً، وكأنَّ ما كان بينهما لم يكن، فتنهمر دموعها ثانيةً؛ حزنًا على مستقبلهما الذي بانت أماراته غير مُبشِّرَةٍ بخير، فمهما كانت قوية، ومهما هيَّئ لهم من أسباب العيش، سيبقى غياب الأب وهو على قيد الحياة وتفريطه فيهم جرحًا لا يشفى، وهمًّا لا يبلى.

أمَّا عنها فقد نضج صبرها عليه أكثر مما ينبغي حتى سقط من شجرة الأمل وارتطم بقسوة الأرض فشجَّ ومات صريعًا.

وإذ بها تعاند تلك الحسرة وتأخذ نَفَسًا عميقًا وكأنه جيشٌ عتيٌّ قد خبط ببنادقه في صدرها، ليعلن استعداده لخوض معركة الحياة رغم الهزيمة النكراء التي حلَّت به في معركته الأخيرة والأولى، اعتبرها فرًّا وغدًا كرًّا، ناجت نفسها تبث فيها روح المقاتل: «كفاني ذلًّا، لقد مددت حبال صبري إلى منتهاها وفلاتُها ظلمٌ للنفس، لن تتوقف حياتي عنده، سأتحدى كلَّ الظروف حتى أخلصَ بنفسي منه، وأقضي ما بقي لي من عمرٍ لأبني أولادي حتى يصبحوا صروحًا عالية تسكن بها روحي وتقرُّ برؤيتها عيناي، سيحيا قلبي بهم ولهم».

خرج زفيرها حاملًا معه كُلَّ الوَهَنِ والضعف اللَّذين يزوران قلبها إن نظرت إلى أبنائها، ثم تناولت دفترها الذي كانت تلجأ إليه دائمًا كلما غلت المشاعر في صدرها، لتفور كفُوهة بركان حممها كلمات، وكتبت:

لَئِنْ أَعْطَيْتُكَ القلبَ	ولم أَتَوَقَّعْ الغَدْرَ
وَسَوَّلَتْ لَكَ النَّفْسُ	بِأَنْ تَسْتَحْقِرَ البَدْرَ
ظَنَنْتَ أَنَّنِي عَجْزَى	ولَن أَكْتُبَ لَكَ الهَجْرَ
فَوَعْدٌ أَنْ تَرَى مِنِّي	كِبْرًا يُلْهِبُ الصَّدْرَ
أَنَا إِنْ بَاعَنِي غَالٍ	بِعْتُ وأَزْهَدُ الأَجْرَ

ألقت نظرة أخيرة على ريم ثم ألقت بجسدها على الكنبة، وما هي إلا لحظات حتى عاودتها الأفكار عمَّا مضى وما هو آتٍ وما هو مقرر عليها مواجهته، حتى أخذ النوم ما بوعيها ليذهب به إلى اللاوعي ليبني بيتًا شامخًا من الكوابيس.

وما أدراك ما الكوابيس! ذلك البيت المُظلم المملوء بالأشباح ومقابر الأرواح ونيران المجهول، ذلك البيت الذي ندخله مجبرين فنرى فيه ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لكنه ليس ذلك الذي بالجنة بل بالنار، نار النوم الذي تسبقه عاصفة، عاصفة القهر والخذلان وموت مشاعر الفتيات، التي لطالما زُرعت فيهن منذ أن وعين بالدنيا على أنَّهن شقائق الرجال.

رأت زيرًا كبيرًا ممتلئًا عن آخره بالماء العذب كاد أن يسقطَ فينكسر ويضيع ما به من ماء، فأسرعت تسنده وكأنها تلك النواة التي توضع أسفل الزير عند جانبه المائل فيعتدل، طال بها الأمر حتى كلَّت، وكلما مرَّ أحدٌ صبَّ به المزيد.

ثقل الحمل على كتفها حتى تهشَّم واهترأ، تنادي فيهم أن تعالوا لتحملوا عني فما من مجيب، تصرخ: «أليس الماءُ ماءنا جميعًا، وعلينا جميعًا الحفاظ عليه! إن تخليتَ عن الزير فسيسقط لا محالة، فهل لو تركته أنا تركتموه أم تحاولون إنقاذه؟».

سألتهم وهي على أتمِّ العلم بأنهم لا يبالون، ولَّما بلغ بها الإعياء مبلغه قررت التنحي جانبًا وليكن ما يكون، سقط الزير فشُجَّ وتسرَّبَ منه الماء، جرت تلملمه في حجرها، فما يلبث أن يتسرب منه فتصحو فزعة.

تدرك أنَّ هذا الزير هو بيتها وحياتها وأبناؤها، وأنَّ زوجهَا علي هو ذلك الذي يصبُّ به الماء ولا يعبأ بسقوطها أو سقوطه، تصيبها غُصَّة لتسرب أبنائها من بيتهم وأمانهم، تنهمر الدموع على وسادتها حتى يأخذها النوم في جولة جديدة من الكوابيس.

ترى أناسًا يبنون بيتًا عاليًا بلا أساسات فتعجب من شأنهم، وتوقن بأنه لا بُدَّ ساقطٌ، تستيقظ فزعة لسقوطه وتناثر ذراته لتشن هجومًا من الغبار على عينيها، فتغمضهما وتفركهما وكأنَّه لم يكن حلمًا، فترى فيه سنوات عمرها الطوال التي بنت فيها حياتها مع علي حتى تطاولت في البنيان وإذا به يهدمه ليصبح هباءً منثورًا، ثم تتدارك مُحدِّثَة نفسها: «لا، لم يتطاول في البنيان، وكيف له أن يكون كذلك وأنا كلما بنيت جدارًا هدمه، فلا أَكَلٌّ ولا أَمَلٌّ، وأَهُمُّ ببناء جدار جديد وكُلي ثقة أنه سيبني معي؛ فإذا به يهدمه من جديد»، أدركت منى أخيرًا أنه لا سبيل لأن تبني بيتًا يجمعهما، وأنَّ كلَّ ما نثرته من مشاعر ذهب أدراج الرياح.

أمسكت بدفترها مرة أخرى لتستودع به شيئًا من مشاعرها التي اندفعت من فُوهة قلبها وكتبت:

أنَا الجُنْدِيُّ شَارَكْتُ فِي كُلِّ الحُرُوبِ

أغْلِبُ الأعْدَاءَ فِي كُلِّ المَعَارِكِ والدُّرُوبِ

قطعتُ بالسيفِ آلافَ المَآسِي والخُطُوبِ

وتَرَكَتِ الأهْوَالُ فِي جَسَدِي ملايين النُّدُوبِ

ونامت ساقِي اليُمْنَى بأَحْضَانِ اللُّحُودِ

ونِلْتُ نَيَاشِينَ وأَوْسِمَةً كَأَفْضَلِ مَن صَانَ الحُدُودِ

وشَكَرْتُ الله عَلَى مَا كَانَ فِي كُلِّ رُكُوعٍ وسُجُودِ

وحَانَ الوَقْتُ كَيْ أَنْعَمَ بِزَخَّاتِ السَّلامِ

وأَقْضِي مَا تَبَقَّى لِي مِن عُمْرِي مِنَ الأيَّامِ

أُشَاهِدُ الأنْهَارَ والأشْجَارَ وأسْرَابَ الحَمَامِ

فَهَذِي سُنَّةُ الأيَّامِ، صَمْتٌ بَعْدَ إكْثَارِ الكَلامِ

شِفَاءٌ بَعْدَ تَجَاوُزِ الأمْرَاضِ والأسْقَامِ

غَيْرَ أَنَّ قَوْمِي أَبَوْا عَلَيَّ هَذَا النَّيْلِ

أَرَادُوا خَلاصًا مِنِّي كَمَا تُعْدَمُ عَجُوزُ الخَيْلِ

وباتَ فؤاديَ المجروح يستنطقُ نجومَ اللَّيْلِ

أمَا للأرْوَاحِ مِنْ تَرْمِيمٍ بَعْدَ خَرَابِ هذا السَّيْلِ

أَلَيْسوا سَنَدًا للقُلُوبِ بَعْدَ كُلِّ هَذَا المَيْلِ

أَمَا للخَيْلِ الجَسُورِ أَمَلٌ بِأَن تَتَقَاعَدْ

أَمَا آنَ الأوَانُ لِأَدْخِنَةِ النِّيرَانِ أَنْ تَتَصَاعَدْ

أَمَا آنَ الأوَانُ لِضَحِكَاتِ الأمَانِ أَنْ تَتَوَارَدْ

أَقُدِّرَ لِي فِي هَذِي الحَيَاةِ طُولُ السَّفَرْ

أَقُدِّرَ لِي مُحارَبَةُ الأحْزَانِ لِيَطُولَ السَّهَرْ

وتُذرَفَ العَبَرَاتُ تَسَاقُطَ الأوْرَاقِ مِنْ غُصْنِ الشَّجَرْ

كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ القَادِمَ مِنْ عُمْرِي بِلَا أَحْزَانِ

كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَجني ثِمَارَ أَعْمَالِي مِنْ غُصْنِ الأَمَانِ

فَإِذْ بِي بِلَا بَيْتٍ، بِلَا وَطَنٍ، بِلَا شُطْآنِ.

«عدد ساعات ليلتي كالأرقام ليس لها نهاية، بل كلما مرت زادت، تجمع عليَّ الهموم حتى تطرحني أرضًا، وتضرب قلبي فتقسمه، فاللهم جبرًا».


3

الزَّوجة المثالية

بعد أن وضعَ علي المؤن بالمطبخ، قصد غرفة نومهما وأغلق عليه وحده بابها، خلع ملابسه، ألقى بجسده المنهك على الفراش لينال قسطًا من الرَّاحةِ بعد افتقادها طوال أربع عشرة ساعة، التي هي مدة بقائه بالصيدلية.

بدأ يشعر بالراحة، بعد أن عادَ الدم لينتشر في أنحاء جسده، فقد دفعه الوقوف طويلًا دفعًا ليتجمع في قدميه حتى صارتا متورمتين، شغله ما وراءه غدًا من مهام تستلزم استيقاظه مبكرًا لتخليص بعض الأوراق الخاصة بسفر أسرته، فقد بقي يومان فقط على سفرها، تناول هاتفه المحمول وضبط المنبه على الساعة الثامنة صباحًا ووضعه على الكومودينو، وضع كفَّه على وسادته وألقى برأسه عليها، وما هي إلا لحظات حتى انقلب على جانبه الأيمن، ثم استلقى على بطنه.

وكان هذا حاله دائمًا عند النوم وكأنها معركة بينه وبين الفراش حتى يهدأ ويستقر به الحال على أكثر الأوضاع راحةً له، ولكن هذه الليلة كانت مختلفة عن سابقاتها، فقد لازمه الفكر فيما هو آتٍ من أحداث عن كيف سيكون الحال مع منى؟

كان يسأل نفسه: «كيف تحملت منى البعد والخصام طوال هذه المدة ولم تضعف وتحايلني كعادتها؟ وليس هذا فقط، لقد كانت تغني عندما عُدْتُ ولا تبالي، أَأُطلقها أم أُبْقي عليها زوجةً من أجل الأبناء وأتزوج بأخرى؟».

زواجه بأخرى حلمًا لطالما راوده، ولطالما طرحه على منى بكل جرأة وبساطة على أنه حقٌّ طبيعيٌّ له، كان يرى منى تسير على غير الطريق الذي يرى الزوجة الحق تسير عليه من وجهة نظره، وما عاشه من حياة قبل أن يعرفها، كانت الزوجة المثالية عنده هي جدته لأبيه التي تُدْعى أمينة.

كانت من ذلك الصنف من النساء التي تدور في محراب زوجها، تميل إليه وتغار عليه، لا تشغل بالها إلا بمتطلباته، تهتم بطعامه وصحته وكلِّ شُؤونه، فقد تطبخ طعامًا للأسرة كلها، وتطبخ له وحده طعامًا خاصًّا، حتى إنَّ علي ما زال يذكر «الأرز المَعَجِّن» كما كان يطلق عليه، الذي كانت جدته تعده لجده، الذي كان مشبعًا بالشوربة والزبدة البلدي، تستعبده رائحته، يطلب من جدته أن تذيقه إيَّاه فتأبى، يجري إلى أمه ليطلب منها أن تطبخَ له مثله، وكلما صدر من منى ما لا يعجبه قال: «رحمك الله جدتي أمينة»، استقبلت منى هذا التعليق في بادئ زواجهما كنوعٍ من المزاح حتى تأكدت من قصده له رغم أنها لا تؤول جهدًا لترضيه.

حاولت منى أن تلعبَ هذا الدور معه، تهتم لشؤونه كلها حدَّ التدليل، لكنها لم تجد منه ما يقابله من اهتمام، فإذا مَرِضَ نثرت عليه اهتمامها من حلو الكلام وأشهى الطعام حتى يتعافى، وإذا مرضت هي رمى لها حبة الدواء دون رعاية أو حتى كلمة طيبة، شعرت بأنهما تبادلا الأدوار في هذه المسرحية الهزلية حيث لعبت هي دور الرجل بينما لعب هو دور المرأة، فلا تتحمل أنوثتها ذلك، فتحدث نفسها: «إن كان على أحدنا أن يدلِّلَ الآخرَ فعليه هو أن يدللني أنا الأنثى، لماذا يقلب الآية هكذا حتى جفَّ قلبي؟!».

وبمرور الوقت وتكرار المواقف بدأت تسأل نفسها عن جدته: «ما الذي قدَّمه لها زوجها حتى تقومَ معه بهذه الأفعال النادرة؟» وكلما ردَّد جملته الشهيرة «رحمك الله جدتي أمينة» تسأله: «لماذا لم تحدثني ولو لمرة واحدة عمَّا

كان يفعله جدك لجدتك لتلعب معه هذا الدور الجليل؟! كيف كان يعاملها؟ لا بُدَّ أنه كان دائمَ التدليل لها».

فلا تجده يذكر شيئًا غير نظرات استنكار لطرحها، وكأنه كفاها فضلًا أنها وغيرها من نساء العالمين تعيش كزوجة، وأنه لا مجال للحديث عن حقوقٍ لهنَّ على أزواجهن، وكلما بَدَرَ منها سلوكٌ يعلِّقُ عليه بهذا التعليق الذي يهدم كلَّ ما تفعله لأجله، تردُّ عليه قائلةً: «أرجو ألَّا يكون جدك قد كان قليلَ الأصل مُجْحِفًا مع جدتك –وقدر ما قامت به من أجله حق قدره– كما أنت الآن معي».

نعم، أرَّق بُعْدُها عنه كبرياءه، إلا أنه سمح له بأن يرى ذلك مبرِّرًا وحجة قدمت له على طبق من ذهب يقدمها إلى كلِّ مَن يلومه حين يسعى إلى الزواج، هلَّت عليه تباشير الفرح أنَّ الأمورَ آلت إلى هذه النهاية فقال لنفسه مُهنئًا: «سأتزوج بامرأة أخرى ليست مصرية، ربما سورية أو لبنانية أو سعودية، أو فلبينية أو ربما سودانية؛ فجميعهن يتخذن من الغرام فراشًا، يعشقن الحب ويأتينه هرولًا، لقد أصبحت ميسورَ الحال فأستطيع أن أتحملَ نفقةَ بيتين أحدهما بمصر والثاني هنا، لم ترفض منى يومًا اقترابي منها ولكنها قلَّما تُبَادِر، كيف لي بزوجة كمارلين مونرو؟ أريد مَن هي كسعاد حسني التي لم تترك شابًا من شباب العالم العربي إلا وأشعلت به نار الفتنة، إنَّ كلَّ رفاقي يعانون زوجات باردات، أين هي المرأة التي تراودني عن نفسي؟! هانت علي، فلتصطبر قليلًا، بقي على الحلو دقة».

ورغم احتلال مشاعر الأبوة مساحة ليست بالقليلة من قلبه، فإن حلمه تمكَّن من إزاحتها جانبًا، أو ربما أهال عليها التراب، أقنعه بأنه لن يُقصِّر بنفقتهم بعد نزولهم إلى مصر.

سيرسل لهم مبلغًا من المال يجعلهم يعيشون عيشةً هنيةً، أما منى فقد رأى أنها اختارت ما يناسبها، فقد أعلنت أنها ستعيش لأبنائها، وقد أرضاه هذا القرار أيَّما إرضاء وكأنه لم يدفعها إليه دفعًا.

تخيَّلَ حياته الجديدة مع الزوجة غير المصرية، وكيف أنها ستعوضه ما فقد مع منى، ستصب اهتمامها به عليه صبًّا، تطيب نفسه ويأخذه النوم في رحلة من الأحلام التي تلعب سعاد حسني بها دور البطولة، ويلعب هو دور المفتون المجذوب، يفيق ليجد نفسه في غرفته وحيدًا، يدقُّ جرس المنبه مع إفاقته من نومه، يأخذ حمامًا باردًا، ثم يخرج لإنهاء الأوراق اللازمة لسفر العائلة غير المرغوب بها.

«لا أدري أتقودنا الأقدار قبل أم بعد أن نختار!».

حُلم السَّفَرِ

خرج علي من غرفته في تمام التاسعة صباحًا في هدوء تام محاولًا عدم إيقاظ أحد، ألقى نظرة على الأبناء في غرفتهم وأحكم عليهم الغطاء، مرَّ بغرفة المعيشة ليجد ريم التي ترقد كالملاك، ومنى التي نامت منذ دقائق بعد صراع مع الكوابيس.

دخل المطبخ ليعد لنفسه كوبًا من النسكافيه، أحسَّت به منى لكنها تظاهرت بالنوم، أخذ معه مشروبه وذهب في صمت كما عاد ليلًا.

كان السفرُ إلى السعودية حلمًا يُراودُ علي منذ تخرجه، رغم أنه عمل لفترة تتجاوز العام بصيدليات تابعة إلى رجل أعمال بشرم الشيخ، وقد بان من علي ما دفع بمالك المجموعة -عندما علم برغبته في السفر- إلى أن يسأله البقاء، وأنه سيعطيه إن بقي معه ما يتوقع الحصول عليه من السعودية وأكثر، إلا أن فكرة السفر كانت قد سيطرت عليه حالها كحال أيِّ فكرةٍ تراوده فيهمُّ بها فلا يدعها حتى يأتيها.

تزوج من منى بعد عمله بشرم الشيخ بثمانية أشهر، وبعد أن قرَّرَ البحث عن عقد عمل عادا لقريتهما، ولما وجده سافر وحده ليجهز السكن ويَسْتَقْدِم منى وابنه فريد الذي كان ما زال يحبو على بساط عامه الأول، وما هي إلا خمسة أشهر حتى لَحِقَا به.

سافر إلى السعودية بصفته صيدلانيًّا لإحدى الشركات الخاصة، ورغم كونها شركة كبيرة، فإنها كانت جائرة، فلم تكن تطبق ما وَرَد من بنود في عقد العمل، التي من بينها بدل سكن يعادل راتب ثلاثة أشهر، فكانت تعطي الثلث، وكان من المفترض بأن تتكفَّلَ بأيِّ رسومٍ مثل تجديد الإقامة، فإذا بها تستقطعه من راتبه، تزيد ساعات العمل أكثر من المتفق عليه وغيره من البنود، مما جعل الحياة هناك معاناة تكفي لأن يتخذَ علي القرارَ بالرجوع إلى الوطن نادمًا.

ومع التردد والقلق حول ما سيكون عليه الحال في مصر -كما هو الحال مع جميع المغتربين- تمدد الإقامة إلى سنة ثم سنة فلا تكاد تفهم لماذا أنت، وهل تسير بإرادتك أم إن هناك ما يسحبك سحبًا نحو البقاء؟

شقَّ الأمرُ على علي وأسرته، يقضي معظم الوقت في العمل حتى أيام الجمعة، وإن اتخذها إجازة قضاها نومًا تعويضًا لتعب الأسبوع، وبقيت منى وفريد -الطفل الذي غذاؤه التنزُّه واللعب ورؤية العالم من حوله- حبيسين.

وبعد سنوات احتلَّ علي موضعًا لائقًا بالشركة بعد أن أصبحَ على علاقة وطيدة بمالكها، أصبح مسؤولًا عن قسم مستحضرات التجميل، فازداد راتبه وتحسن حاله، وبدأت الأسرة التي حلَّ ضيفان جديدان عليها وهما ماجد وضحى في نيل بعض مُتعِ الحياة، قررت منى الاعتماد على نفسها في الخروج بهما بعدما استيأست من استقطاع زوجها بعضًا من وقته لهم، وبعد مرور عامين، بدأ المدير المسؤول عن قسم الأدوية د. كمال بالمكر بعلي والكيد له، فقد لاحظ حبَّ المالك المتزايد له.

كان د. كمال يمسك بتلابيب الشركة كأخطبوط، يتقاضى راتبًا كبيرًا لما قضاه من عمرٍ بالشركة يزداد بها راتبه سنويًّا، يقبض من شركات الأدوية أموالًا بنسب مُتفق عليها بينهم على مَضَضٍ منها حتى يسمح بشراء الأدوية منها دون غيرها.

أخاف مالك الشركة تزايُد نفوذه، بدأ يفكر في الخلاص منه واستبداله بعلي، يراه جديرًا بالمنصب، ولن يأخذ راتبًا كالذي يتقاضاه د. كمال، فلما أحسَّ د. كمال منهم الغدر استعمل مكره ودهاءه وخبرة عشرين عامًا للتخلص من علي.

ورغم أن علي لم يكن أقل منه دهاءً، فإنه كان عليه أن يحفظَ للأسد قدره فيحتاط كلَّ الحيطة عندما يقرر مواجهته، لم يُنزل علي د. كمال منزله من الاحترام والتبجيل، تعامل معه بصِلف وندية أثارا غضبه، ولأن الخبرة عادةً ما تغلب الرعونة، تمكن د. كمال من التخلص من علي، فتركه المالك على مَضَضٍ بعد أن أعطاه فيزا حرة ليعمل في السعودية حيثما يشاء.

رغم قسوة الحدث، فإن علي لم يكن ذلك الذي يستسلم أو يبكي على اللبن المسكوب، كان ينظر إلى الأمام دائمًا باحثًا عن طريقه الجديد، بل كان فخورًا بأنه لم يطأطأ الرأس لدكتور كمال أو يرائيه ويتودد إليه كما كان يفعل غيره، كان يرى أنه أصبح حرًّا ليس على كفالة أحد فيستطيع أن يبدأ من جديد، وتُفْتَح في وجهه أبواب كانت الكفالة توصدها.

استأجر محلًّا وحوَّله إلى صيدلية، كان يعمل بها لما يزيد على أربع عشرة ساعة، وبعد شهور قليلة بدأت تدر ربحًا مناسبًا، فكَّر في فتح صيدلية أخرى، ولن يحتاجَ ذلك إلى تكلفة كبيرة، ستكون البضاعة مشتركة بين الصيدليتين، ومن أرباح الأولى ينفق على الثانية وهكذا حتى ظهر الأستاذ صالح. سعودي الجنسية، دار بينهما حوارٌ ظريفٌ في أول تعامل له بصفته زبونًا مع علي، كان علي كعادته يستطيع جذب القلوب له بسهولة، فقد كان جريئًا لبقًا نديًّا غزيرَ المعرفة طاغيَ الحضور، فأصبح صالح زبونًا دائمًا، بل كلما زاره قضى معه الساعات يتحاوران في أمورٍ شتَّى حتى تعلق به، ولاحظ مهارته بصفته صيدلانيًّا بارعًا.

عرض صالح على علي إنشاء مجموعة من الصيدليات، ولتكن صيدلية علي أولها بعد أن اشتراها منه، أصبح علي المدير التنفيذي للشركة التي كانت ما تزال صغيرة، أعدَّ صالح عقدًا يمنح فيه علي عشرين في المائة من أرباح الشركة، لكن علي لم يوقع عليه قائلًا إنَّه يرى أن الثقةَ بينهما كافية، ولا تحتاج إلى عقود، مضيفًا أنَّ هذه نسبة أكبر مما ينبغي، فازداد تعلُّق صالح به.

بدأت نسائم رغد العيش تهف على علي وأسرته لتعوضهم عمَّا سبقها من جفاف، أحست منى أن سفينتهم قد وصلت أخيرًا إلى برِّ الأمان بعد معاناتهم على مدار تلك السنوات، لكن علي أبى إلا أن ينزلقوا إلى قلب العاصفة.

«أيها السائرون في طريق السعادة، انتبهوا، لا تتجاوزوا حدود السرعة، لا داعي للعجلة، قد وصل من سبقوكم إلى دارها ولم يجدوها، وماتوا على ذلك».


5

ذلك الصَّرح

لم تُجدِ محاولة النوم نفعًا مع منى بعد خروج علي، قررت استغلال وقت نوم الأبناء في تجميع متعلقاتهم من أوراق وشهادات وصور بعد أن انتهت من تجهيز حقائب الملابس، سحبت حقيبة الأوراق من الرفِّ العلوي إلى خزانة الملابس في وَهَن ثم جلست بها على الفراش.

انتهت من تجميع الأوراق المهمة وأتى دور الصور، ذلك البحر الذي يفيض بموج الذكريات لتجرفها جرفًا في انحسارها في جولة من الحنين، ثم تعود بها ثانية إلى الشاطئ، إلى يومها هذا، وما تكاد تفيق حتى تأخذها موجة أخرى في جولة من الحسرة ثم تعود بها مقتولة مقبورة في قبر اليأس.

التقطت أول صورة لترى ذلك الصَّرْح الذي سقط منذ سبعة أعوام، وتلكما العينان اللتان تقولان الكثير، لكم قرأت ما بهما من معانٍ عندما مات، إنه أبوها الذي رحل عن دنياها عندما زاره المرض ولم يمكث معه إلا شهرًا بينما كانت بالسعودية، لم يخبروها بموته حتى رأت أخاها الأكبر في المنام يقف معها أمام خزانة الملابس في غرفتها ببيت أبيها يشير إليها إلى طرحة سوداء أن أرتديها، أخبرت علي بما رأت، فلم يجد بدًّا من إخبارها بوفاته.

جلست تبكي حزنًا على أول عزيز غالٍ يرحل، كانت ما تزال ترى الدنيا وجهًا بشوشًا، نعم لقد رأت بأسها في بعض ما مرت به علاقتها مع علي، إلا أنها لم تكن تتوقع منها كلَّ ذلك البأس، جرى في شرايينها ذلك الشعور الذي يجري في دم كلِّ مَن فَقَد أبيه، لكن الأمر معها كان أقوى كفيضان، فقد كانت تحبُّ أباها حبين، حبُّ الأبوة وحبُّ لأنه أهلٌ لذلك، حبُّ الإعجاب بشخصه وتدليله لها وتدللها عليه، فأخذت ترثوه حينها في كلمات باكية: «قد جاء يومك يا أبي، فمَن الكبير على الموت! وتبقى ذكراك وذكرياتي معك، حسبت أنَّ العمرَ ما زال أمامك، أما موتك ففكرة بعيدة بعيدة، لم يسبق لي أن فقدتَ بكِ يا حياة عزيزًا، ظننت أنك ستمري قبل أن يعزيني الناس في فَقْدِ أعزِّ الناس ولكن هيهات هيهات. مَن الكبير على المرض؟! مَن الكبير على الموت، ذلك الذي يُرقد القوي ويذل العزيز، نعم زارك يا أبي ذلك الضيف الذي لا حيلةَ لك به إلا استقباله، نعم قد عبثتْ بك يا أبي يد الدهر قليلًا، ابيضَّ شعرُك وسقطت بعض أسنانك، نعم بهتت صورتك قليلًا، ولكني لم أتخيل أني سأعلقها يومًا على الحائط لتكون كلَّ ما تبقى منك».

تذكرت منى تلك القصيدة التي كانت قد رثته بها، فراحت ترددها بطعم أكثر مرارة، فكم تشعر بحاجتها إليه اليوم:

لَيْتَ مَن غَابَ عنَّا يَعُود

إنَّ شَوْقَنَا لَهُ فَاقَ الحُدودِ

يا أبي يا ساكنًا كلَّ الفؤاد

صِرْتَ مِن أَهْلِ المقابرِ واللُّحودِ

ها قد صِرْتَ يا أبَتِ تُرابًا

بعد ما أكلَ الفؤاد الدُّودِ

مذ رَحَلْتَ وأدْمُعي لم تَرْتَحِل

بَاقِياتٌ هُنَّ على حُزْني شُهود

انْظُر الآنَ إلى حَالي انْتَظِرُ

عَوْدَةَ الرُّوحِ وأبدًا لن تَعُود

أنتَ وَحْدك مَنْ تَمَنَّى لِي العُلَا

وصُعُودًا لا يُوَاكِبُهُ صُعُود

إنَّ مَوْتَكَ مَاءُ نَار يا أبي

انْغَمَسْتُ بِهِ وما لي من صعود

يا أمانًا يا دُروعًا واقِيَةً

يا سلامًا كَمْ بِهِ اللهُ يَجُود

كانت راحَتَيْكَ أُرجُوحَتي

وابتسامٌ مِنْكَ لي كُلَّ الوجود

كَمْ ضَحِكْنا في ليالٍ مُقْمِرة

فغَدا السُّهْدُ في لَيْلِي يَسُود

كَيْفَ أَنْسى يَوْمَ أن أغْضَبْتَني

وأتَيْتَ تُهْـــدِينـــي الـــورد

قَبَّلْتَ بِطِيبِ ثَغْرِكَ جَبْهَتي

فاسْتَحالَ الحُزْنُ بِشْرًا وصُمُود

هَل أَخْبَرَتْكَ الدُّنيا بِما

فَعَلَتْ بفُؤادي وزَهْرِيْ الخُدود

أَلْبَسَتْهُ مِنَ الهُمُومِ الأسْوَدِ

لطَمَتْها بِكُفوف الجُحُود

كُلُّ السَّلامِ عَلَيْكَ يا نِنَّ العُيُون

من خَالِقي من رَبِّنا المَعْبُود.

بدأت منى ترى الأمر بمنظور جديد، بدأت تربط بين البدايات والنهاية، استحضرت قصة حياته كشريط السينما الذي يسرد السنين في دقائق وثوانٍ.

«كم هو ضيقٌ قصيرٌ طريقنا، يسلبنا الكثير ليسمح لنا بالمرور، وما إن نمر حتى ندركَ أننا نَمُرُّ من باب الخروج».

قلادة أم

في تلك القرية، في ذلك البيت القديم الذي ورثه أبوها عن أمه كقلادة أم ماتت وتمسك بها يتيمها –حيث قرَّر أن يمضي حياته كلها، فهو عنده أغلى من قصور الدنيا– ولدت وكبرت منى.

لم يرث أبوها مهنة تجارة المواشي أبًّا عن جد، بل كانت محطته الأخيرة من بين المهن التي حاول أن يبني بها نفسه بعد أن تركَ بيتَ أبيه بعد معاناة مع زوجته التي تزوجها لترعاه هو وأخته بعد موت أمه رقية، ولكنها سارت على الدرب الذي تسير عليه غالبية زوجات الآباء من القسوة والحرمان، وتحريض الأب على أبنائه حتى نجحت في التفريق بينهما.

خرج لا يملك شيئًا رغم غِنى أبيه، ورغم ما تركته له أمه من ميراث كان تحت سيطرة أبيه كوصيٍّ عليه، وحتى بعد أن انقضت مدة الوصاية لم يسعَ أبوها إلى طلبه منه رغم حاجته إليه.

كان ذا شخصية سياسية ناعمة، صبورًا لا يحب إثارة الغبار، يحفظ لأبيه هيبته، ويعرف معنى أن تكون ابنًا بارًّا وأنه هو وماله لأبيه، فقد كان دائمًا ما يقول لأبنائه: «إن ضربني أبي بالحذاء، ووقع منه ناولته إيَّاه ووقفت أمامه صاغرًا»، مشى في مناكبها باحثًا عن رزقه، جمع اللبن من الفلاحين، وباعه بالمدن وكذلك الجبن القديم.

كان فقيرًا في ذلك الوقت الذي تقدم فيه إلى خطبة أمها التي كانت حديثة العهد بالطلاق من رجلٍ عقيمٍ تزوَّج مرتين قبلها، زوَّجها له أبوها وهي في سن الثالثة عشرة، وقد كانت من أجمل الفتيات وقتئذ بمنطق غريب، قال لها: «إنَّه رجلٌ طيبٌ ميسورُ الحالِ، فإن فتح الله عليه وأنجب، تكونين من أحسن الناس».

أحبها ذلك الزوج وتمنَّى عليها ألَّا تتركه، خاضت معه الكثير من خرافات ذلك الوقت من أجل الإنجاب كالنزول في بئر مظلم وطاسة الخضة وغيرهما بلا جدوى، اشتهت أن تحمل في أحشائها طفلًا، لكنها قررت قضاء عمرها معه ما دام هو ذلك المحب المخلص رغم شوقٍ يتجدد كلما رأت أمًّا تحمل طفلًا.

وفي إحدى جولاتهما للبحث عن الإنجاب، ذهبا إلى طبيب، كان من قناعات ذلك الطبيب أنه لا يجوز أن تكسر رجولة الرجل بأن نخبره بأن العيب منه، بل نقول إنَّ العيبَ من المرأة، وقد كان.

لا نعرف كيف صدَّق زوجها ما قاله ذلك الذي يُدعى طبيبًا، فكلُّ الشواهد تقول إنَّ العيب منه، فقد تزوج مرتين من قبلها ولم ينجب، أمسى بوجه آخر تعلو قسماته أمارات الغدر، رأت كلمة النهاية تتذيل عِشْرة دامت لأربعة عشر عامًا فأغلقت القصة.

زهدت الزواج، ولم يكن أبو منى مَن يجعلها تتزحزح عن قرارها، كان وحيدًا فقيرًا حين تقدم طالبًا الزواج منها، لكنها –بعد أن رفضت طلبه– رأته بالمنام يجذبها إليه بينما كانت تحلب الشاة، ولما حكت المنام لأمها قالت: «إذن هو نصيبك»، وقد كان.

سمح لهما أبوه بالإقامة في ذلك البيت الذي ورثه عن أمه، إلا أن زوجة أبيه حددت إقامتهما به، فقد تركت لهما غرفتين فقط من ذلك البيت، وأغلقت الغرف الأخرى على مخزونات من الدقيق وخلافه، وأخرى على بعض الطيور رغم اتساع جَنَبات بيتها الذي تُقيم به.

ولما اشتدَّ عليهما الفقر، ترك له أبوه إحدى الأراضي الزراعية التي ورثها عن أمه، زرع الأرض واشترى جاموسة هزيلة بقدر ماله ليقتاتا من لبنها، حتى ولدت تلك الجاموسة وبِيعت بمبلغٍ كبيرٍ بالمقارنة بما ابتاعوها به، ومن هنا بدأت معه تجارة المواشي، كان يذهب إلى كلِّ أسواق المحافظات والقرى، يقضي الأيام والأسابيع خارج البيت لتتحمل أمها مسؤولية الأرض، وثلاثة من البنين وثلاث من البنات، منتظرة عودته حتى فُتحت له أبواب الرزق.

أدركت منى الآن كم تشبه أمها في تحملها وتضحياتها، وأنَّ بعض الرجال يُقدِّر مثل تلك التضحيات، لكنها أدركت أيضًا أن علي لم يكن منهم وكم كانت هي حمقاء.

«حين نتنازل للمرة الأولى، ونظن أنها الأخيرة».

7

حتى تمرَّ السفينة

وبينما هي تسبح في بحر أبيها، سقطت منها الصورة، همَّت لتناولها فإذا بعينيها تقع على صورة لها وهي في عامها الثالث وهي بأحد أفراح العائلة، التقطتها وراحت تتأمل نفسها، كانت شديدة البياض بعينين زرقاوين وشعر أشقر قصير، بجوارها أختاها اللتان تكبرانها، رقية وهبة، وفي الخلف أمها تحمل أخاها سامي الأصغر منها، أخذتها الصورة إلى طفولتها.

تذكرت رفيقات طفولتها شفيقة وفوزية وسوسن في أيام وليالي رمضان، يذهبن وكلُّ أطفالِ الحي إلى مسجد القرية قبل أذان المغرب يلعبون ويلهون، منتظرين لحظة الأذان بشفاهٍ جفَّفها العطش، فإذا انطلق الأذان انطلقوا معه كلٌّ إلى بيته مهللًا «افطر يا صايم، افطر يا صايم»، ثم يأتي الليل بفوازيره وفوازيرهن التي كن يؤلفنها ويلعبن أدوارها.

تذكرت شفيقة التي كانت ترافقها أينما ذهبت رغم العقاب الذي تتلقاه من أبيها، ما من يوم يمضي إلا وكانتا معًا، لم يخطر ببالها قطُّ أنَّ الأيام والظروف قد تفرقهما، وجاء أول يوم لدخولهما المدرسة، لبست كلٌّ منهما مريلتها الجميلة وخرجتا، كلُّ واحدةٍ منهما في صحبة أمها تمسك كلٌّ منهما بيد الأخرى في فرحة وحياء.

كانت هنالك مدرستان في القرية، ذهبتا إلى إحداهما وبدأ المنادي ينادي أسماء المسجلين بها، فإذا به ينادي باسم شفيقة ولا ينادي باسمها، لم تستوعبا فكرة أنهما قد افترقتا، وكيف تقضي أيامها في مدرسة، ومَن لم تفارقها قطُّ في مدرسة أخرى.

تذكرت عندما كانت أختاها رقية وهبة تلعبان بهما كالدُّمَى، كلُّ واحدةٍ منهما تُزيِّن واحدة، تدور المنافسة لتختارا الأجمل في النهاية، نظرت منى في المرآة لتجد شفيقة هي الأجمل وكم أنها ليست جميلة.

كانت لا ترى بنفسها إلا عيوبها، هذا الفم الواسع وذلك الأنف القصير المنبطح قليلًا، لم تكن ترى بياضها الناصع، وعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر الناعم وعودها السارح، ظلت طوال سنين عمرها ترى نفسها ليست جميلة رغم تَغَزُّلِ كل مَن يراها بجمالها، قامت من مقامها واقتربت من المرآة لترى هل ما زالت ترى نفسها كالسابق، أم إن نظرتها لنفسها قد تغيَّرت، وجدت وجهًا شاحبًا منكسرًا، جسدًا أصابه الحمل بالامتلاء واختباء معالم أنوثتها خلفه، بحثت في ذكرياتها عن يومٍ امتدح فيه علي جمالها فما وجدت.

عادت للصورة لتتذكر أحدَ أيام الأعياد، الذي يرتدي فيه الجميع الملابس الجديدة، اعتاد الأطفال على أخذ العيدية من الأقارب عند زيارتهم، إلا أنها لم تفعل ذلك يومًا، فقد كان يضايقها هذا الأمر وكأنه إهانة لها، ذهبت إلى جدتها لأمها في العيد، قدم لها خالها العيدية ولكنها رفضتها، وقالت له وهي تخرج النقود من جيبها: «معي نقود، ها هي، لست بحاجة إلى المال».

عادت بها الأفكار لعلي الذي كان كريمًا سخيًّا مبسوطَ اليدين حتى إذا أتى على احتياجاتها غُلَّت يداه إلى عنقه، وبدت البغضاء على وجهه، ولأنه كان كتومًا فقد أدركت أن ما يُخفي بصدره أكبر، فلا تدري لماذا كلُّ هذا البخل عليها بالمال والمشاعر، فشعورٌ بالمهانة يهدم ثقتها بنفسها.

عادت لتتذكر أحد الأعياد عندما خرجت إلى الشارع لشراء الحلوى واللعب، خرجت معها أختها هبة التي تكبرها بعامين تقريبًا ليلتقيا بإحدى صديقات أختها، سمعتهما منى تتحدثان عن الذِّهاب إلى المدينة المجاورة لقريتهن، التي تحتاج إلى ركوب سيارة أجرة، وتبعد عن قريتهن بثلاثة كيلومترات تقريبًا، طلبت منى من أختها أن تأخذاها معهما لكنها رفضت وجريتا معًا وتركتاها.

جرت منى وراءهما ولكنهما غابتا عن ناظريها، ظلت تجري حتى وصلت إلى موقف السيارات، وجدت سيارة ملآنة بالأطفال، فتوقعت أن تكونا بها فركبت، ولكنها لم تجدهما وانطلقت السيارة، شعرت بالخوف ولكن ما هدَّأ من روعها أنها وجدت ولدين تعرفهما جيدًا وتعرف مكان بيتهما، لأنه قريب من بيت جدتها فاطمأنت وقررت أن تتبعهما في كلِّ خطواتهما حتى يعودا لقريتهما فتعود معهما.

عندما وصلت السيارة نزل ثلاثتهم وتبعتهما في الطريق المزدحم لأنه يوم عيد والباعة يملؤون الشوارع ويلتف الأطفال حولهم، وما هي إلا دقائق حتى تاها منها، ووجدت نفسها وحيدة في مكان لم ترَه أو تذهب إليه من قبل، شعرت بهول الموقف ولكنها لم تبكِ، أكملت السير حتى وجدت ترعة كبيرة فأحست أنها نهاية الطريق، غيرت مسارها إلى الاتجاه المعاكس، ظلت تسير طويلًا، حتى وجدت نفسها تعود للترعة نفسها مرة أخرى.

وجدت امرأتين تطلان من شرفة منزلهما تنظران إليها كأنهما ثعلبان على علم بحقيقة أمرها بأنها نعجة شردت بعيدًا عن القطيع وما من راعٍ ليحميها، ارتعدت فرائسها وسارت بعيدًا عنهما حتى وصلت إلى الحقول، جلست تبكي بجوار حظيرة للحيوانات، اقترب منها رجل ويسألها مَن هي وما سر بكائها فأخبرته بما جرى، أخذها معه إلى بيته لتتلقاها زوجه بقلب عطوف.

ظل الناس يتوافدون على هذا البيت لأنه عيد يتزاور به الناس، حتى أتى بعض الرجال ومعهم سيارة، وتحدثوا إلى السيدة التي هي في بيتها عن أنهم عرفوا أهلها وأنهم سيذهبون بها إلى هناك فأعطتها لهم، ركبت معهم السيارة وساروا بها حتى وصلوا إلى مكان ما وطلبوا منها أن تنظر من زجاج السيارة لترى إن كان بيتها في هذا المكان أم لا، نظرت ولكنها لم ترَ بوضوح فاستحيت أن تخبرهم بذلك فقالت لهم: «لا ليس هو»، فمضوا بها.

وجدتهم يتحدثون فيما بينهم وكأنهم يفكرون أين ينبغي لهم أن يذهبوا بها، انقبض قلبها، وبينما هم سائرون وجدت السيدة التي كانت في بيتها تجري نحوهم مسرعة ويبدو عليها الخوف والقلق وكأنهم سيذهبون بها إلى مكان خطير ربما يكون ملجأً، سألتها: «أتودين أن تأتي معي أم تذهبي معهم؟» فأجابتها دون تردد بأنها ستذهب معها هي.

عادت معها لبيتها ثم أتى بعض الرجال ليأخذوها إلى مكان به ميكروفون لينادوا باسمها كما يفعلون دائمًا كلما تاه طفلٌ ولم يعرفوا له أهل، ثم عادوا بها مرة أخرى لبيت تلك السيدة حتى أتى الليل.

أخذتها السيدة إلى سرير عالٍ ذي أعمدة فرشت عليها ملاءة بيضاء مزخرفة بنقوش ندية من الزهور والأغصان لتنام، وما إن خرجت حتى عادت مرة أخرى، خرجت بها من الغرفة لتجد أباها وعمها أمين البقَّال على الموتوسيكل الخاص به، ركبت بينهما وانطلقوا.

ولما وصلوا إلى أول الشارع الذي يقع فيه بيتهم وجدت أفواجًا من الناس تملأ الشارع عن آخره، وما إن رأوها حتى هبُّوا إليها يتهافتون على حملها، ظلوا يهللون: «ها هي البنت، البنت رجعت، ها هي البنت». وعندما وصلوا إلى البيت

لم تجد فيه موطئًا لقدم، لقد امتلأ بالناس عن آخره.

عرفت منى بعد ذلك من أختها أنهم عندما اكتشفوا غيابها ظلوا يبحثون عنها في كلِّ مكان حتى وصلوا إلى ترعة قريتهم، وإذ بسيدة تخبرهم بأنها رأت منى في الصباح تقف قرب الماء، جال بخاطرهم أنها لا بُدَّ قد غرقت.

جنَّ جنون أمها حتى همَّ بعض الرجال بالقفز بالماء للبحث عن جثتها، إلا أنَّ جدَّهَا لأبيها حسم الأمر بألَّا يفعلوا ذلك حتى ينتهوا من البحث عنها في كلِّ مكان.

عادت بخيالها مرة أخرى لأصدقاء الطفولة شفيقة وفوزية وسوسن لتتذكر عندما كُنَّ يلعبن ويأكلن معًا (يطقوا)، حيث تحضر كلُّ واحدةٍ منهن طعامًا من بيتها ليأكلن معًا، تذكرت منى سوسن التي كانت دائمًا ما تخرج على قوانين اللعبة، فمثلًا: عندما يجلبن الطعام ويبدأْن في تناوله تعترض قائلة: «فلنضع طعامي جانبًا لنأكله بعد الانتهاء من تناول طعامكن».

يوافقن على مَضَضٍ إلا منى، يطلبن منها الصبر وتفويت الأمر والانتظار حتى النهاية، وبعد أن يأكلن آخر لقمة ويأتي الدور على طعامها تقول: «لا، أنا لن أطق معكن»، تستشيط منى غضبًا، وعندما يلعبن استغماية تلعب معهن حتى إذا جاء دورها اعترضت، فلا يقف لها أحد إلا منى.

عادت منى لحالها لتجد منى الطفلة هي نفسها منى اليوم، لا يرضيها الحال المائل، قد تستطيع بعضُ النساءِ تَحَمُّل أفعال زوج كعلي، يمكنهن غضَّ الطرف وطأطأة الرأس حتى تمرَّ السفينة بسلام، لكن منى ليست كذلك، إن هذا لا يعطيها أفضلية عليهن، أو يضعها بدرجة أدنى منهن، إنما هي قدرات وطاقات، فتلك التي تحملت حتى وإن طأطأت الرأس ليست على خطأ، وتلك التي تقرر الانسحاب صائبة.

«يا صغير السن يا مقبلًا على الأيام، بالله عليك يا قلبي لا تفرِّط من الأحلام».

إخلاصٌ أحمق

أكملت السير في شارع الطفولة لتصل إلى المدرسة، تنهَّدت منى وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها على استحياء وهي تتذكر زميلتها سميرة، سمينة يسبق جسدها سنها بمراحل، جارتها بالتخت نفسه، تخرج من حقيبتها بين حصة وأخرى ما لذَّ وطاب من الطعام، الذي يسيل لعاب منى عليه عندما تراه، لكنها كانت أبخل من أن تذيقها قدر أنملة منه.

وحين تمتلك منى طعامًا تعطيها منه وتقول لها: «أرجو أن تظلي متذكرة أنني أعطيتك من طعامي، فهل ستعطينني عندما يكون معك طعام؟». فتجيبها «نعم، سأعطيكِ»، وعندما تكون منى معدمة بينما تمتلك سميرة رغيفَ قمحٍ فلاحي كبير الحجم، وقرص بيض ذا رائحة آسرة وبرتقالة ضخمة -تظل تلعب بها أمامها، ترفعها إلى أعلى وتمسكها بيدها- لا تعطيها، فتقول لها منى: «أتتذكرين يوم أن أعطيتك من طعامي ووعدتني أنك ستعطينني بعضًا من طعامك؟»، فتجيبها بكلِّ نكران لمعروفها: «لكنني جائعة وهذا الطعام يكاد يشبعني»، فتقول لها منى كمحاولة أخيرة لتذوق هذا الطعام الشهي: «وهل هذه القطعة الصغيرة التي ستعطينني إيَّاها هي التي ستشبعك؟»، فتقول: «نعم»، ويتكرر الموقف فتعطيها وتذكرها ويأتي دورها فلا تفي بوعدها.

ابتسمت منى ابتسامة ساخرة وهي تربط بين علي وسميرة، رأت أنها لم تتعلم الدرس، كم لدغها علي فتعيد الكَرَّة فيعيد اللَّدغ حتى تشوَّهت روحها من آثار لدغاته، وأنه آن الأوان للتعافي.

عادت بها الذاكرة لحدث فريد جمع بينها وبين أخيها حازم الذي يصغرها بعامين حين كانا بالحقل، يعود الفلاحون بالبهائم عند المغرب أو قبله، ونادرًا ما يتأخر أحدٌ لما بعده خاصة الأطفال وخاصة بهذا الحقل لأنه قريب من المقابر التي يمس المار بها ليلًا شيئًا من الخوف، ولأنهما كانا بصحبة حمارتهم العجوز بطيئة المشية، تأخرا لما بعد المغرب.

لم تكن بطريق الحقول أيُّ إنارةٍ، ولم يكن هنالك أحدٌ بالطريق سواهما والحمار، بمحاذاة الترعة كان طريقهما، وبينما هما سائران إذ بمنى ترى مخلوقًا أسودَ بهيئة إنسان يمسك بيده جمرة من نار، لكنها لا ترى له أيَّ ملامح، يجلس على جسر الترعة المقابل لهم في مكان إن جلس به إنسان سقط بالماء لا محالة، ولكنه لا يسقط ناظرًا إليهما على ما بدا لها.

حاولت أن تبدو وكأنها لم تَرَه، أرادت التأكد من أنها لا تتوهم رؤيته أو أنه من صُنْع خيالها، سألت حازم دون أن تلتفت إليه: «هل رأيتَ ما رأيتُ أنا؟».

فإذ به يجيبها: «نعم»، قالت وقلبها يكاد يقفز من مكانه: «لا تلتفت إليه وكأنك لم ترَه»، سارا قليلًا ثم عبرا القنطرة ليسيرا على البرِّ الذي يجلس به ولكن في عكس الاتجاه، وبعد خطوات قليلة شعرت منى به يسير خلفهما ويقترب منهما، تسارعت دقات قلبيهما حتى كادا أن يتوقفا، وإذا بالحمار يصبح سريعَ المشية كما لم يعهداه من قبل، أسرعا خلفه تكاد لا تحملهما أرجلهما لا يلتفتان خلفهما، اقتربا من المقابر فأصبح الأمر أكثر رعبًا، أوشك على اللحاق بهما وإذ بالكلاب التي تحضر دائمًا عند المقابر تتجمع وتعوي بشدة وكأنها تهاجمه، وإذ به يختفي فيعود الحمار لمشيته الأولى ويكملا طريقهما إلى البيت.

تعجَّبت منى من قدرتهما على التحمل وهما في هذه السن المبكرة، نعم عندها القدرة على التَّحَمُّل، تَحَمُّل كلِّ شيءٍ إلا الإحساس بالمهانة الذي تتجرعه مع علي وعليها أن تقلعَ عنه، تعجبت لمرور كلِّ هذه السنوات وكيف أنها ما زالت تتذكر تلك المواقف البسيطة بكلِّ تفاصيلها، تساءلت لماذا لم تعد تتواصل مع صديقات طفولتها بعد زواجها؟ لماذا تجاهلت الماضي وجعلت من علي بطلها الأوحد الذي تتابع كلَّ أعماله ولا يعرف هو شيئًا عن جمهوره؟ ما هذه الدرجة الحمقاء من الإخلاص والتوحد مع الزوج التي تصيب أغلب النساء عندما يتزوجن؟ وضعت الصورة في حقيبتها وهي تتنهد ندمًا على أنها ركنت هُويتها على رفِّ المهملات وشغلت نفسها بعلي أكثر مما ينبغي.

«الحياة ليست بهذه النعومة التي أنت عليها، توقع ما ستفعله بك إن ظللت على نعومتك».


9

بلا حسابات

تناولت منى صورة أخرى لتجد نفسها تتسلم وسام الطالبة المثالية لفصلها، عادت بها الصورة لمرحلة الإعدادية التي برز فيها عرقها الثوري، تذكرت حكاياتها مع كلِّ مدرسٍ خرج على نطاق القيم والأخلاق.

من بينها حكايتها مع معلم اللغة العربية الأستاذ محمد، من مدينة مجاورة لقريتها، يخرج كثيرًا من الفصل في أثناء الحصة ليمضي الوقت في الحوارات والهزل مع الأستاذة سوزان التي كانت من المدينة نفسها، كان هذا غريبًا بالنسبة إلى منى وقريتها، إضافةً إلى أنه لم يكن يشرح الدروس كما ينبغي.

كانت المعلمة الأولى للغة العربية تُدَرِّس لهبة أخت منى، حكت منى لأختها ما يجري فأشارت عليها بأن تشتكيه إلى المعلمة الأولى، وقد كان، أخبرت هبة المدرسة الأولى بالأمر بالنيابة عن منى وزميلاتها سهير وزينب.

دخل الفصل غاضبًا في أحد الأيام، قال إنَّ بعضَ البنات في هذا الفصل قد قدَّمن به شكوى، وأنه لا بُدَّ أن يعرف مَن هُنَّ هؤلاء البنات، أما إذا لم يعرفهن فسوف يرسب الجميع في مادته، ظل يسأل البنات: «ألا أشرح الدروس يا بنات؟»، فيجبن في نَفَسٍ واحد بأعلى أصواتهن جبنًا: «اشرحها يا أستاذ».

كان معرفة الفاعلات هو حديث الجميع في الفسحة، حاولت كلُّ بنتٍ معرفة مَن هن الفاعلات حتى لا يعاقب الجميع، وبعد يومين وجدوه يخبر الفصل بأنه عرف من قدَّم به الشكوى فما خفنه، عرفت منى من أختها هبة أنه يتعرض للمساءلة واستمرَّ الأمر إلى شهور.

تذكرت منى موقفًا آخر مع معلمة الاقتصاد المنزلي، التي هي ذات المعلمة التي كان يقف معها، كانت مُتَبرِّجة ولم يكن ذلك مألوفًا بالقرية، لا تهتم بعملها وتقضي معظم الوقت في التحدث مع المعلمين وخاصة معلم اللغة العربية الذي يناديها بسوزي، طلبت من الفصل مفارشَ من القماش لنسج الزخارف عليها، التي كن يحضرنها كلَّ أسبوعٍ ولا يستعملنها تقريبًا، أمرتهن في إحدى الحصص وهي تحمل بيدها عصا خيزران مخيفة: «فلتقف مَن لم تحضر المفارش منكن».

وقف معظم الفصل، ثارت عليهن وبدأت في ضربهن واحدة تلو الأخرى دون أن يعترض أحد، ضربتهن بقسوة ملأت صدور الفتيات رعبًا، فلما جاء دور منى قالت لها بتحدٍّ: «لن أُضرب، نأتي بالمفارش كلَّ مرة ولا نفعل بها شيئًا».

تفجر الغيظ من عينيها، جزَّت على أسنانها وقالت آمرة: «قلت لكِ افتحي يدكِ».

ردت منى بثباتٍ وإصرار: «لن أفتحها».

أصابها الارتباك وأعيتها الحيل، ولكنها حاولت إخفاء ارتباكها وقالت: «إذن، فلتأتِ معي إلى الناظر».

خرجت منى معها، انتهى الأمر بأن قال الناظر لمنى: «عليكِ أن تطيعي معلمتكِ ولا تضايقينها، عودي لفصلك»، عادت منى ولم تكمل المعلمة ضرب بقية البنات فشكرن منى لأنها كانت السبب في عدم ضربها لهن.

وفي نهاية العام اختارها معلم الدراسات الاجتماعية لتكون الطالبة المثالية، سألته منى في دهشة لمَ اختارها هي فأجابها: «رغم أنك لستِ متميزة في مادة الدراسات الاجتماعية، فإنني اخترتكِ لمواقفكِ مع بعض المعلمين، كنتِ

شجاعة حين كان الجميع جبناء».

تذكرت منى كم كانت جريئة مندفعة، تقوم بما تؤمن به دون أيِّ حسابات، تغضب للحق دون التفكير في العواقب، قارنت بين منى السابقة ومنى الحالية، أدركت أنها عادت الآن لطبيعتها الأولى.

«قلبي، وإن فكرت وتدبرت طوال عمري، يظل مصدرَ طاقتي ممسكًا يدي ووليَّ أمري».

الرّسالة

تناولت منى الصورة التالية لتجد نفسها تتسلم شهادة تقدير من أحد المعلمين بحفل مدرسي سنوي تُكرَّم الطالبات الموهوبات في المجالات المختلفة، كانت من المكرمات لحصولها على المركز الأول في التعبير.

عادت بها الذاكرة لمواقف تُعدُّ ولا تُحصى كان مخرجها الأمثل منها هو الكتابة، تذكرت حين تشاجرت مع أمها وإخوتها لسبب لا تتذكره، كلُّ ما تتذكره هو أنها كانت قد صعدت إلى قمة الحزن، كان البيت مكونًا من طابقين، يمارسون مهام الحياة ويطبخون في الطابق الأرضي ويأكلون وينامون في العلوي.

رفضت الصعود معهم، ظلت بالأسفل تبكي وحدها، تتخيل في حبكة درامية روائية مؤثرة أنها ستظل تبكي حتى تنام والدموع على خديها، فإذا أتت أمها لتوقظها صباحًا وجدتها ميتة فتبكي عليها بكاءً شديدًا وتندم على ما قد كان منها بحقها.

ثم وضعت خطة لكيفية التعامل مع كلِّ فردٍ من أفراد الأسرة الذين كانوا أطرافًا بالمشكلة على حسب طريقة تعاملهم معها وكانت كالآتي:

أمي: سأطيعها مهما فعلت معي؛ فهي أمي.

رقية: أحبها؛ فهي تحبني وتحنو عليَّ وسأطيعها وأتعلم منها.

هبة: لن أتعامل معها بعد الآن، وإذا اضطرتني الظروف إلى ذلك فسيكون الجواب على قدر السؤال لا أكثر.

تذكرت كم نسجت من خيالها قصصًا عن بعض الأصدقاء والأقارب والجيران وروتها لإخوتها فيصدقونها ويظنونها حدثت بالفعل، وإذ بها تخبرهم أن كلَّ ما قالته كان كذبة فينهالون عليها ضربًا وسبًّا.

تنتظر حتى يمرَّ عددٌ من الأيام ينسيهم كذبتها الفائتة، ثم تروي قصة أو كذبة أخرى فيصدقونها كما حدث مع سابقتها حتى أدركوا في النهاية أنها ذات موهبة عالية في التأليف والقصِّ تجعلك تشعر أنها تحكي قصة واقعية وليست من نسج خيالها.

تذكرت العديد من المناسبات التي جعلتها تمسك بالقلم وتكتب بعض الكلمات العذبة، يوم عيد الأم الذي كانت تحرص فيه على شراء هدية لأمها، إلا أنها لم تكن تقدمها لها إلا وهي مصحوبة ببطاقة قد أفرغت عليها حبر عاطفتها تجاه أمها، فما يقرؤها من أحد إلا وتدمع عيناه.

أخذتها موجة الذكريات إلى أعياد ميلاد أقاربها وصديقاتها وتلك الكلمات التي كانت تكتبها لهم كإهداء بهذه المناسبة، فتحلل شخصياتهم وتصفهم كما تراهم هي، وكم كانوا ينبهرون بتحليلاتها ويتساءلون كيف استطاعت الوصول إلى أغوار أنفسهم، حتى إنها تراهم بشكل أوضح مما يرون هم أنفسهم، وكيف أصبح هذا الأمر مطلبًا جماهيريًّا منهم، فما يأتي يوم ميلاد إحداهن إلا وتعد لها هديتها.

انعطفت بها الذكريات إلى حارة مظلمة من الحروف، تلك التي كانت تكتبها بعد أن يذيقها علي ذلك الحنظل الذي كان يعصره لها ليحيل فاكهة قلبها رمادًا، كم باتت من ليالٍ رفقاؤها بها الدموع ودفترها والقلم لتنام مخلفة وراءها كلمات.

خرجت من هذه الحارة كهارب من شبح لتدخل إحدى حارات قلبها حيث يسكن أبناؤها، كم انتزعت نفسها من أحزانها لترسم بسمة على شفاههم، كلمات تكتبها لهم في يوم ميلادهم أو حين ينجح أحدهم.

تذكرت ذلك اليوم الذي أقامت فيه مدرسة أحد أبنائها حفل تخرج من الروضة ودعت فيه الأمهات إلى الحضور، ذهبت منى وقد كانت تعيش أيَّامًا طوالًا من الخصام مع علي، ولما تقدم فصل ابنها إلى عرض فقرته على المسرح لم تتمالك دموعها حتى إنها خشيت من أن ينتبه لها من حولها من الأمهات، كانت أفراحها دائمًا منقوصة، هناك دائمًا جُرح ينفتح كلما مَسَّه حدث ولو كان سعيدًا.

تذكرت حين زارتهم إحدى صديقاتها وزوجها، وبينما هم في جلستهم مستبشرون إذا بعلي يخبرهم بأنه سيتزوج، كم أهانتها كلماته، إن كان يسقيها ذلك السم حتى بعد أشد لحظاتهما قربًا وتتجاوز وتصبر، فلماذا يسقيها إيَّاه على مرأى من الغرباء، حتى استيقظت كرامتها التي أنامتها غصبًا، فتجتمع ورفقاؤها الدموع ودفترها والقلم لتنام تاركة وراءها كلمات ترسم بيتًا مهدمًا، وأبناءً ميتَّمين بلا يُتْم.

عادت بها الذكريات للمرحلة الثانوية التي يهبُّ بها نسيم البلوغ، فيخلف وراءه جسدًا نضرًا وروحًا معبأة بعبق الرومانسية، وحكاوي الحب التي تبشر بربيع الفتيات، صارت تنتظر ذلك الحبيب الذي ستتزوجه، ينسج خيالها الفسيح قصصًا وحكايات تأخذ شكل الرواية من بداية ووسط ونهاية.

كان ستار مسرح رواياتها ينفتح على بداية سعيدة بأنها ستتزوج بمن تحب، ثم تأتي العقدة حين يؤذيها حبيبها لتعيش مأساة تذرف فيها الدموع أنهارًا حتى تقرَّرَ إنهاءَ كلِّ شيءٍ، وإذ به يعتذر ويترجَّى وترفض حتى تعود له، فيسدل الستار على مأساتها لتنتهي قصتها بالنهاية السعيدة.

تعجبت منى من أحلام الفتيات، تساءلت في ألمٍ، مَن علَّم النساء أنهن لا شيء إلا زوجات؟ مَن علمهن الدوران في محراب الزوج كبقرة مُعلَّقة في ساقية معصوبة العينين تدور وتدور؟ لماذا يذهب النساء إلى السواقي طوعًا تاركين خلفهن ذواتهن؟

أهي الفطرة التي فطرت عليها بأنَّ اسمَ آدم يتبعه حواء؟ أم إنه المجتمع الذي جعلها بلا قيمة إن لم يكن لها زوجًا، فإن فاتها قطار الزواج أو طُلِّقت فهي شيء به نقص أو عيب؟

كان الرسم من المواهب الأخرى التي حباها الله بها منذ صغرها، إن الموهبة كجدول الماء العذب، إذا فقد المنبع جفَّ واندثر، ولا يبقى منه إلا أثرٌ وذكرى، وبعض التوابع لزلزال كبير، تظهر كلما وضعتها الظروف في مجاله.

أهملت منى الرسم في طفولتها لعدم إدراكها لنفاسة ما تملك، وبعد زواجها لأنها نسيت نفسها وضحت بأفكارها، وكذلك الكتابة.

غير أن الكتابة ذات شخصية باطشة، تفرض سيطرتها كلما جدَّ ما يزعج النفس أو يبهرها، كما أنها لا تطالب صاحبها بأكثر من ورقة وقلم من أدوات بخلاف غيرها من المواهب، فاستمرت معها وفرضت نفسها عليها حتى وجدتها سرَّ وجودها ودورها الرئيس الذي يجب أن تلعبه على خشبة مسرح الحياة.

غير أنها بعد زواجها أهملتها هي الأخرى، جعلت من علي سندها وكلِّ حياتِها، لم تحسب حساب يومها هذا الذي يبيعها فيه بثمن بخس، أتاها التعيين بوصفها معلمة فلم يهتم به زوجها فصرفت نظرها عنه، أرادت البحث عن عملٍ فلما لم يهتم زوجها سكتت واستسلمت، لم يكن يهتم بشؤونها ولم تهتم هي بشؤون نفسها، سذاجة لم تتخيل معها

مستقبلًا مظلمًا ينتظرها، كانت تفكر ثم تستسلم إلى تفكيره، ولو أنها ارتقت بأفكارها إلى مرتبة التنفيذ لرسمت لوحةً مبهجةً لمستقبلها، ولظلت نجمة عالية يسعى زوجها دومًا إلى نيلها.

وضعت منى الصورة في الحقيبة وهي تبتسم ابتسامة المتعجب من مرور الأيام وتحقق ما كانت تتخيله، إن ما تمر به الآن هو وسط الرواية... العقدة، تُرى هل سيأتي الفصل الأخير السعيد في النهاية أم ستفاجئها الأيام بنهاية لم ترد على خيالها الخصب؟

استيقظ ضميرها ليؤنبها على فعلتها في حق موهبتها التي يميز الله بها كلَّ إنسانٍ عن غيره، إنَّ الموهبة هي الرسالة التي بعثت بها كرسول وعليك أن تؤديها كأمانة، لا إن تجعلها حبيسة في أدراج النفس، إنها العبادة التي خلقت لها، الأمانة التي عليك حملها.

«عندما تحتوي نفسك، يحتويك العالم وتحتويه».



رياح الرومانسية

التقطت صورة جديدة، لترى نفسها زهرة جميلة وسط باقة من الزهور اليانعة صديقات الجامعة، سافرت منى بعيدًا إلى هذه الروضة الممتلئة عن آخرها بزهور الحبِّ والملِل والرغبة في الاختلاف والتغيير، إلى الأفكار والأحلام التي لا تتوقف، ثم لا سعي إلى تحقيقها، نعم كانت منى تحلم كثيرًا وتسعى قليلًا.

تذكرت أول يوم لها بالجامعة، وقد ارتدت فستانًا أسودَ أنيقًا تناثرت عليه رتوش صغيرة غامقة الخضار، وفوقه خمار أخضر فاتح وحذاء ذو كعب عالٍ، كانت تعشق الكعب العالي، ولا ترتاح إلى ارتداء الأحذية الأرضية، وبعد أن ركبت من قريتها إلى المدينة المجاورة لها، وانتظرت في موقف السيارات لتركب إلى الجامعة، إذا بشاب طويل رفيع أسمر، ذي شعر أسود ناعم طويل، ولحية وشارب يميلان إلى اللون الأشقر، يحملق بها بطريقة صارخة أيقظت استغرابها كمنبه يوقظ النائم، تظاهرت بعدم الاهتمام رغم سلوكه الذي ليس فيه حياء الشباب الذي يسترق النظرات ويختلسها.

شعرت بالوحدة والغربة في ذلك اليوم لأنها لم تكن قد تعرَّفت على أحد بعد، بل إنَّ الجميعَ ينظر إليها ويراقبها ويدرك وحدتها، كم كرهت هذا الشعور، أن تكون وحيدًا بينما كلٌّ خلٍّ مع خليله.

وكما هو الحال مع كلِّ طالبٍ مستجدٍّ يشعر بالتِّيه في أرض جديدة، كان كذلك حالها أو يزيد، ربما لنعومة أظافر خبراتها وهشاشة عظام ثقتها بنفسها وخشونة كرامتها، تركيبة غريبة ربما، فلا هي مرتاحة في وحدتها ولا هي تملك الجرأة على تقديم نفسها إلى الآخرين والتعرف عليهم.

وإذ بها في أثناء أولى محاضراتها تجد ذلك الشاب هناك، يلقي عليها بشباك ذات النظرة، وكلما جمعت بينهما الصدف نظر إليها ذات النظرة حتى انتبهت صديقاتها -اللاتي تعرفت عليهن- واعتبرنه متيمًا بها، بدا أكبر سنًّا من دفعتها، مميزًا مختلفًا بوصفه قائدًا لشلة أصدقاء من الأولاد والبنات الذين يجتمعون بمكان محدد بمدخل الكلية، وكلما مرَّت من أمامهم نظر إليها النظرة ذاتها، ولَّما وصلوا إلى السنة الثالثة كان قد ملك عليها قلبها رغم أنه لم تخرج كلمة من فمه، لتخاطب أخرى من فمها، مجرد نظرات منه أشعرتها بحبِّه لها.

أحبته حتى صار ذلك المحور الذي تدور حوله عقارب تفكيرها طوال ساعات يومها حتى صارت تسأل نفسها: «وماذا بعد! فلتنزلي من علياء هيامك إلى أرض الواقع، أيصلح لكِ زوجًا؟ أتفضلينه على مَن يتقدم إلى خطبتك من أطباء ومهندسين؟ كيف تتزوجين من شابٍّ في مثل سنك؟». كان العقلُ لا يستوعب ولا يتوقف عن طرح الأسئلة وإلقاء اللوم عليها، إلا أن قلبها كان صاحبَ الحلِّ والربطِ في شؤونها، يظل يفكر به بمجرد أن تتفتح عيناها على نور الصباح وحتى تغمضا مع إقبال الليل.

تمنت لو يحادثها حتى تبين خبايا هذا الحب، حتى أتى يومٌ ركبا فيه السيارة نفسها، ولَّما نزلا أبطأ في مشيته حتى تلحق به وتعجلت هي في مشيتها حتى تلحق به متظاهرة بأنها لا تتعمد ذلك، وإذ به يلتفت إليها ويقول وابتسامة واثقة تعلو شفتيه: «آتية؟»، ما يعني أن تتمشى معه حتى الكلية، وكفعل لا إرادي منها لم تجبه أو تلتفت إليه حتى وكأنها لم تسمعه، فلمَّا لَم تجبه ابتسم ابتسامة واثقة ثم تركها وأكمل طريقَه.

شعرت بالضيق الشديد من نفسها ومنه، أمَّا من نفسها، فلماذا لم تُجبه وقد انتظرت هذه اللحظة لسنوات؟ ولكنها أدركت أنها لم تكن لتتحدث مع شاب أو تسير معه، لم تكن تتعامل مع الشباب من الذكور قطُّ، وأمَّا منه فقد كان لأسباب عدة، الأول: هو أنه كان واثقًا من أنها ستستجيب له فأزعج ذلك هيبتها، ثانيهما: أنه لم يراعِ أنها لم تختلط بأيٍّ من الذكور من قبل، ثالثهما والأهم: أنه كان عليه أن يأخذ كلامه معها منحنى آخر، كأن يقول مثلًا وارتباك المحبِّ بادٍ عليه: «انتظرت هذه الفرصة منذ سنوات لأتحدث إليكِ» أو ما شابه، رابعهما: هو كيف لم يحاول مرة أخرى وانسحب بهذه البساطة وهو يبتسم غير مبالٍ، ومرت أيام وما زالت تحبه وتفكر به بلا توقف رغم كلِّ شيءٍ.

وذات يوم -بينما كانت بالدور الثالث لمبنى الكلية تقف على السلم للباب الخلفي لقاعة المحاضرات- رأته واقفًا بالأسفل، وبينما كانت تراقبه من حيث لا يراها إذ بفتاة تمرُّ من أمامه، وإذ به ينظر إليها بالنظرة نفسها التي ينظر بها إليها، أدركت حينها أنه لا يحبها، وما تعجبت له هو أنه خرج من قلبها تمامًا في هذه اللحظة، وكأنه لم يدخله يومًا رغم أنه قد ملكه لسنوات، أدركت حينها أنها من ذلك الصنف من النساء الذي لا يحب من الرجال إلا من يحبه أولًا، وإذا اكتشف أنه لم يكن أو لم يعد يحبه فإنه يطرد حبه من قلبه دون عناء.

وفي أيام التربية العملية التي كانوا يتدربون فيها بالمدارس على التدريس كانت جالسة بفناء المدرسة، وإذا به يجلس بجوارها وينظر إليها ربما ليتحدث معها كمحاولةٍ ثانيةٍ، فإذا بها تنظر إليه تلك النظرة التي نرفع فيها أحد الحاجبين استحقارًا له واستعلاءً عليه وكأنها تواجهه بفعلته، فكانت النهاية، وبعد فترة قصيرة خطب زميلةً لهم بالدفعة.

أقام بالسنة الأخيرة معرضًا في الكلية للوحات يرسمها، انبهرت به وغبطته على أنه يمارس ما وجد نفسه مميزًا به، ودَّت لو أمكنها فعل ذلك، لكنها لم تكن تعلم ما هي موهبتها، وكيف لها أن تجدَ نفسها، ولكم ودَّت أن تذهب إليه لتحييه على ما يقوم به ولكنها لم تفعل، وكلما رأت شخصًا وَجَدَ نفسه تغار منه وتوبِّخُ نفسها لأنها ما زالت تائهة.

وضعت الصورة وهي تتساءل: «هل أحسنت التصرف في هذا الأمر؟ هل يعتبر حبًّا وجب عليَّ التمسك به؟ أكان سينجح لو أنني تمسكت به أم سيفشل كما فشل زواجي الآن؟ ثم لماذا تركت ذاتي تائهة مني حتى يومي هذا، ولم أبحث عنها حتى حين وجدتها وهي الكتابة، أهملتها وكأنها لا تعنيني في شيء وهي كلُّ شيءٍ، ووضعت كلَّ اهتمامي بمَن أنا له الآن، لا شيء!».

«ندور ندور، حول أبواب الحبور، فما فُتِح لنا ولا رحلنا استغناءً».



عطاءٌ وأخذ

وضعت الصورة في حقيبتها مع سابقاتها ليتراصوا في طابور تكدير كسنوات عمرها المهزومة، التقطت أخرى تحمل زمانًا ومكانًا خاصين، بداية زواجهما بشرم الشيخ، منى البريئة وعلي البشوش وبجوارهما زوجان إيطاليان تعرَّفا عليهما هناك، أخذتها الموجة إلى بداية ظهوره بحياتها.

أنهت سنوات الجامعة، تقدَّم إليها الكثير ورفضهم أبوها ربما دون السؤال عنهم حتى خافت العنوسة، لم ترَ نفسها صارخة الجمال ليرفض أبوها المتقدمين إليها بهذه الثقة، القليلات هُنَّ في قريتها مَن كُنَّ ينهين الجامعة دون أن يكنَّ قد خطبن.

بحثت عن عمل، بدأت في استكمال دراستها بالجامعة، رأت أنه عليها استغلال وقتها ما دام ليس هناك ما يشغلها، خافت من الفراغ والانتظار، مع أمل دفين بأن تقابل فتى أحلامها وزوج المستقبل بالجامعة أو العمل أو حتى بالطريق.

تقدَّم إلى خطبتها ثلاثة دفعة واحدة أحدهم علي، صيدلاني من عائلة عادية وصديق أخيها الأكبر، لم يكن يعرف أيٌّ منهما الآخر، لم تستسغ ذلك النوع من الزواج، أرَّقتها فكرة أن يأتي أحد ليعاين بضاعتها ويرى إن كانت ستعجبه أم لا، أن تنتظر هي قراره مسَّ شيئًا من أنوثتها وكرامتها بسوء، كيف سيكون حالها لو لم تعجبه، خاصة أنها لا يعجبها شكلها من الأساس، كيف تضع نفسها في هذا الوضع المهين!

رفض أبوها الأول والثاني، ولأنه كان لعلي خالٌ مِزْواجٌ، أوشك أبوها على رفضه، فقالت له منى مستنكرة: «أن يكون خاله مزواجًا، لا يعني أن يكون هو كذلك».

علَّق أخوها الأكبر متحمسًا لعلي: «شخص رائع وفرصة لن تجدي مثلها».

ورغم رفضها لطريقة الزواج هذه، فإنها سألت بعض صديقاتها عنه، قالت إحداهن إنه كان يعيش قصة حب مع فتاة تعرفها، وأنها تركته، زاد الطين بِلة بالنسبة إلى منى، قالت لنفسها: «أأتى عليَّ الزمان الذي أتزوج فيه شخصًا هجرته حبيبته!».

ثم حدث ما زاد من ضيقها، ستأتي أمه أولًا لتراها، شجبت منى هذه الأجواء التي لم تكن تتخيلها قطُّ غير أنها رضخت، سلمت عليها وجلست أمامها في عزة وتحدٍّ، وكلما رفعت أمه عينيها نحوها لتتفحصها منتظرة أن ترى فتاةً خجولةً تنظر بالأرض خجلًا نظرت إليها منى في عينيها حتى استحت وصرفتهما عنها.

ولأنها لم تكن مقتنعة بالفكرة، بالإضافة إلى قصة حبه التي روتها صديقتها عنه، فقد خرجت عليهم قوية حازمة، لم تشعر منى بالكسوف قطُّ كما تفعل البنات في مثل ذلك الموقف، فقد تسيَّد الموقف مشاعر متناقضة من القلق والعزة وعدم الثقة بالنفس، نظرت إليه بجدية فوجدته دائمَ الابتسام والضحك، وعلى قدر كبير من الوسامة والترتيب والهندام، تفوح منه رائحة العطر الذكي، وبين يديه هدية فخمة.

بدا أصغر من سنه، متوسط الطول ذا بشرة وردية وشعرًا أسودَ بالغَ في إكرامه، وعينين واسعتين جريئتين يفصل بينهما أنف سُحِب إلى الأسفل، ثم يأتي فمٌ مرسوم تختفي خلفه أسنان قد رُصَّت في غير انتظام، تحدث بتلقائية

وإقبال فطرحت عليه ما يجول بخاطرها بكلِّ وضوح، كطلقة خرجت لتقتل خضوعها لما يجري: «أنا لا أميل إلى هذه الطريقة في التعارف، كيف تتقدم إلى فتاة وأنت لا تعرف حتى شكلها؟ وأنا لا أحب أن يأتي أحدهم ليرى أأعجبه أم لا».

أجابها باسمًا مطمئنًا: «وأنا أيضًا لا أميل إليها، ولكن الأمر جرى على هذا النحو دون ترتيب مني، أما بخصوص أن تعجبيني أم لا، فلا تقلقي من هذا الأمر».

أنهى كلامه بابتسامة القبول والإعجاب، شعرت منى بشيء من الراحة والرِّضا، وكأنها كانت تصارع محاربًا لكرامتها فأعلن استسلامه، ولكن بقيت قصة حبه السابقة ناقوسَ خطرٍ يدق برأسها، نظرت إليه بجدية وطرحت ما يشغلها، وهي تحاول عدم الإفصاح عمَّا تودُّ التثبت منه: «سألتُ بعضهم عنك فقالوا إنه كان هناك مشروع خطبة لك ولم يتم».

لم يكن كلامها واضحًا بالدرجة التي تكشف ما قصدت، ولكنه لَمح ما قصدته كصقر سقط على فريسته، فأجاب بكلِّ هدوءٍ ورصَانة وثقة: «هذا صحيح، وقد كان أمرًا وانتهى تمامًا».

أوحت ملامحه بصدقه، لم تشعر أنه يحب تلك الفتاة، رضيَت برده، تمت الخطبة بعد مكالمة تليفونية بينهما، أوضح لها فيها كلَّ ما كان يؤرقها، وأن قلبه ليس متعلقًا بتلك الفتاة أبدًا، شعرت منى بعد هذه المكالمة بحبه لها وحبها له إن جاز أن نسمي ذلك حبًّا، أَيجوز أن نسمي ذلك حبًّا؟ وهل يحب المرء بين يوم وليلة أو من نظرة؟ وهل هناك ما يسمى الحب؟

إنَّ الله فطر القلوب على انتظار الإِلْف والبحث عنه والاشتياق إليه دون حتى معرفته، وألقى فيها بذورَ المشاعر فتنبت وتكبر وتثمر ليأتي ذلك الإلف الذي سيقطف بدوره تلك الثمار.

إنَّ المشاعرَ تثمر بقلب الفتاة والفتى رغبة في اللقاء والعطاء وانتظار المقابل، وهنا نعرف معنى الحب، الحبُّ عطاءٌ بإخلاص وأخذٌ باطمئنان، أخذٌ من إلف راغب في العطاء، إنَّ الأخذَ والعطاءَ ما هما إلا كفتا ميزان إن ثَقُلت إحداهما خَفَّت الأخرى، إن ثقلت إحداهما فقدت الأخرى قدرتها على الثبات والثقة وقررت الترفُّع والتعالي، أو ربما لامتها ثمار مشاعرها أنها قُطِفت ولم ترَوِ شجرتها تلك اليد التي قطفتها فلا تثمر من جديد، إنَّ آدمَ وبنيه جُبِلوا على المصلحة، لا يقوم أحدنا من مقامه إلا ليحوز زهرة أو زهرات نثرت على الدَّربِ، أحدنا يكتفي بواحدة وغيره يطمح في الثانية وغيرهما، يطمع في الوصول إلى نهاية الدرب واقتناء الباقة.

لا تصدقوا من يقول إنَّ هناك حبًّا من طرف واحد، ما هو بحب، بل الشقاء بعينه، إنه ثمارٌ تؤكل وأرضٌ تبور، رياح جفاف تقتلع شجرته من جذورها ليأتي اليوم الذي تصير فيه تلك الشجرة الوارفة حطبًا.

إنَّ الفتاة تمضي سنوات عدة في انتظار الإِلْف وكذلك الفتى، وقد تلتقي عينا فتى وفتاة في نظرة أولى فيدق القلب، ولا يعرف أيٌّ منهما شيئًا عن الآخر فنسمي ذلك: «حبًّا من أول نظرة»، إن ما جعل القلب يدق هو ذلك الانتظار، وتلك الثمار التي أينعت وحان قطافها، فإن كُتِبَ لهما الزواج، وأعطى كلٌّ منهما لإلفه بإخلاص وأخذ باطمئنان، ضربت جذور شجرتيهما في الأرض، وأورفت فروعها وازدادت ثمارها حلاوة.

«الثقة وصون العشرة هما الرصيد الذي يؤمن مستقبل المشاعر».



قسوة الواقع

تذكرت منى أول موقف حزين بينهما في شرم الشيخ –حيث أقاما بعد زواجهما– بعد بدايات حلوة، كانت تجلس على حافة الفراش وساقاها تتدليان تنتظر عودة علي من الصيدلية ليلًا، شعرت بالنعاس فألقت بظهرها على السرير وتركت ساقيها على حالهما، وإذ بها تنام، عاد وظلَّ يدقُّ على باب الشقة وعلى زجاج النافذة القابع فوق السرير الذي تنام عليه ولم تسمع شيئًا، ولم تستيقظ حتى اضطر إلى كسر كالون الباب.

ظنها في حالة إغماء، وإذا بها تستيقظ بكلِّ بساطة لتجده حانقًا يحاول تمالك نفسه كَمَن ابتُلي بابتلاء عظيم هو منى، رأته ينتظر منها لعب دور المذنب المعيب، ولكنها لم ترَ أنها فعلت خطأً؛ يجب عليها الاعتذار عنه، قالت لنفسها وهي تستشعر مرارة الحنظل التي قتلت شيئًا ما بداخلها: «كنت نائمة ولم أشعر بشيءٍ، وإن كان هذا عيب بي فلا يد لي به».

تجنبها حتى أتى عليهما اليوم التالي، خرجت لتشتري بعض السِّلَعِ حتى لا تطلب منه شيئًا بينما كان هو في الحمام، ولَّما لم يجدها حين خرج ظنها رحلت عائدة لقريتهما، همَّ للحاق بها فإذا به يجدها عائدة، فما كان منه إلا أن صفعها على وجهها، فانكسر بداخلها شيءٌ جديدٌ.

ولأنها كانت حالمة رومانسية تحبُّ الأشياءَ الكاملة، فقد كانت تشعر في مثل هذه المواقف بأنها النهايات، نهاية قصة حبهما، نهاية زواجهما أو ربما نهاية العالم، لم يرد منها كلمة تعليقًا على ما فعل، بل راحت تعد حقيبتها لتعود لأهلها، اعترضها مصالحًا لائمًا عليها أنها هي من أوصلته إلى ما كان، تصالحا ولكنها لم تنسَ.

تملكته في ذلك الوقت فكرة السفر إلى السعودية، تركا شرم الشيخ وعادا لشقتهما بالقرية ظنًّا منه بأنه سيجد عقدَ عملٍ بسهولة، وإذ بالأمر يأكل عامًا كاملًا عاشا فيه مع أسرته بلا خصوصية لها، أنجبا أول أبنائهما فريد، أقنعته أمه بأن تقضي منى فترة ما بعد الولادة في شقتها وليس عند أهلها وتعهدت بخدمتها، حمله عنها لتنام بعض الليالي التي كان يرهقها فيها سهرًا، وكان إذا حمله عنها لتنال قسطًا من النوم بعد افتقادها له مع وجود مولود لا يكفُّ عن البكاء، رأى نفسه زوجًا مثاليًّا، وعليها أن ترى ما يقوم به أعمالًا جليلة قلَّما يقوم بها زوج، وقع من علي ما أغضب أمه وما ليس لمنى دَخْل به، فحوت الغم بالبيت ومرَّ أسبوع فريد كئيبًا.

زارتهم أسرة خالته بإحدى الليالي، جلس الجميع بشقة أمه وصعدت ابنة خالته إلى شقتها لتجلس معها، كانت شقتها فارغة من أيِّ شيءٍ تستطيع تقديمه إليها، ولأنها في شقتها تتخفف من الملابس، فقد خرجت عند السلم ونادته ليحضر إلى ضيفتها مشروبًا، لم يجبها فنادته مرة أخرى، فلما أجابها عادت لضيفتها، وإذا به يصعد غاضبًا ويدفعها بيده بقسوة أمام ضيفتها متسائلًا: «ماذا تريدين؟ لماذا تناديننني؟».

حاولت التماسك أمام الضيفة ونزل هو إلى ضيوفه، قالت الضيفة في محاولة للتهوين عليها: «لا تحزني، هذا طبع أولاد خالتي».

تماسكت منى حتى رحلوا، وإذا بها تثور بوجهه وهي لا تكاد تصدق ما فعل ولا تجد له سببًا: «ما هذا الذي فعلت ولمَ، وكيف تتصرف معي بهذا الشكل وأمام هذه البنت؟».

فأجابها غاضبًا: «لماذا ناديتني؟».

ذكرت له السبب فأجاب: «ناديتني مرة وأجبتك، فلماذا الثانية؟».

قالت في دهشة من لا يفهم شيئًا: «لم أسمعك، وما المشكلة إن ناديتك الثانية؟!».

لم يعطها إجابة تشفي ما بصدرها، انسحبت من أمامه، فإذا به يتبعها آمرًا: «اكوِ لي هذا الجلباب».

تعجبت كيف يطلب منها شيئًا وهي في هذه الحالة، إن أخطأت يومًا وأشعلت مشاعر أحدهم بعود ثقاب، فعليك أن تطفئها أو تنتظر حتى تنطفئ وحدها ليكون ذلك أضعف الإيمان، أما أن تختار ذلك التوقيت العصيب لتزيد من اشتعاله، فأنت تخرج منه أسوأ ما عنده، وهكذا فعل علي فأجابته ودمها يفور: «لن أكويه».

توقعت منى منه أن يراعي ما هي فيه من غضب ويتركها حتى تهدأ، ولكنه لم يكن من ذلك الصنف من الرجال، كان يأتيها وهي في أشد حالات غضبها فيزيد من الضغط عليها، فأجاب: «ستكوين الجلباب يعني ستكوين الجلباب».

فازداد غضبها وقهرها وقالت بإصرار: «لن أكويه، ولن أبقى في هذا البيت، أنا مغادرة إلى بيت أهلي».

فقال في عناد وتحدٍّ: «اذهبي كما تشائين، ولكن ليس قبل أن تكويه».

فأجابته في عنادٍ لا يقل عن عناده وهي لا تتوقع ما سيحدث: «لن أكويه».

فإذا به ينهال عليها ضربًا كما لم تكن تتخيل أن يحدثَ معها يومًا، ولم يكن قد مرَّ الشهر على ولادتها لابنها فريد.

لم تصدق أو تتحمل ما يجري وما كان منها إلا أنها أخذت تضربه على صدره بكفيها، فلا تدري إن كان دفاعًا عن نفسها أو محاولة لإفاقته مما يفعل، علا صوتهما فإذا بها تجد أمه وأخته أمامها، اعتصرها إحساسها بالضعف والمهانة أمامهم، حاولت أن تبدو قويةً بإصرارها ورغبتها في الذهاب إلى أهلها، إلا أنه أبدى بشكل قاطع أنها لن تخرج من الشقة إلا إذا كوت الجلباب، استوعبت منى أخيرًا أنه على استعداد لفعل أيِّ شيءٍ بها، وأنه لن يراعي الله فيها أو فيما بينهما من عِشْرة وابن وصل حديثًا إلى دنياهم، فاستسلمت وكوته وفي بالها أنه آخر ما بينهما.

بدأت مشاعر الأم المضحية تطفو على سطح مشاعرها، كما أنها لم ترد الذهاب إلى أهلها وهي بهذه الحالة من الإصابات بوجهها، مرت عليها الأيام ثقيلة موحشة، أصبح يتعامل معها وكأن شيئًا لم يكن، يجدها تبكي فيطبطب عليها كأنها مُبتلى وليس هو سرُّ بلائه، فلا مواساة ولا اعتذار ولا اعتراف بأنه قد أخطأ وكأنه يقول لها: «تستحقين ما نلتِه»، فيزداد جرحها عمقًا، زارتها أختها فرأت ما بها، وما هي إلا ساعة حتى اتصل بها أبوها طالبًا منها أن تذهب إليه.

جهزت حقيبة لها ولابنها وارتدت ملابسها، وبينما ترتدي حذاءها وجدته يأمرها قائلًا: «لا تأخذي الذهب معك، واخلعي هذه الدبلة التي في إصبعك».

ألهبت كلماته مشاعرها كما يفعل ماء النار عندما يسقط على جلد فيحرقه، أخذت تحدث نفسها: «ما هذا الذي يفكر به؟ أَنَسِيَ كلَّ ما كان بيننا ولم يشغل باله سوى الذهب! إذن هو يفكر فيما بعد الطلاق، وأن أهلي ربما يأخذون الذهب وينكرونه فيكون عليه دفع ثمنه مرة أخرى عند ردِّ القائمة، ماذا رأيت من أهلي لتظن بهم هذا الظن السيِّئ! من هذا الكائن الغريب الذي تزوجته!».

لم تجد له عذرًا فيما قال وتيقنت أنه بعيدٌ كلُّ البعد عنها، ولكنها حبست دهشتها بداخلها ولم تنطق بكلمة لوم أو عتاب أو حتى استنكار، فلم تعد تراه يستحق أيًّا من هذا، خلعت الدبلة من إصبعها ووضعتها على المنضدة وحملت ابنها وحقيبتها ورحلت في هدوء.

تدخَّل الأهل من الجانبين للصلح، ولام هو على أبيها أنه طلب منها المجيء دون أن يسمع منه ما جرى، وأنها دفعته دفعًا إلى ذلك بعنادها وعدم طاعتها له، اتهمها الجميع بأنها عنيدة وتجلب إلى نفسها المشكلات بعنادها، أصبحت المُدانة، يقنعها الجميع بالعودة فتعود دون اقتناع ليتحطم بداخلها الكثير.

تعود لتجده قد باع معظم الذهب في غيابها ليدفع نفقات السفر ولم تعلق، وربما لولا تدخل الأهل كان سيسافر ويتركها كالمعلقة.. ربما. مرت الأيام، سافر واعدًا إيَّاها بأنه سيجهز الأوراق والأوضاع في أقرب وقت لاستقدامِهَا وابنهما، شعرت بتعلقه بهم فحاولت التماس الأعذار له فيما مضى لتحدث نفسها: «ربما كانت زلَّة أو ساعة شيطان كما يقولون».

سافر تاركًا إيَّاها ومعها قدرٌ من المال لا يذكر بعدما أنفق كلَّ ما معه على السفر، اشتغلت بالترجمة بالبيت، وأنفقت على نفسها وابنها حتى لا يشعر أهلها بأنه تركهما بلا مال، استقبلهما بالمطار بلهفة واشتياق بالغين، كانت بداية لحياة جديدة، التمست له الأعذار فيما مضى، طيَّبت خاطر نفسها قائلة: «ربما لم يفهمني كما ينبغي، ربما أساء فَهْمي، ربما لم يقصد ما فهمت، ربما كنتُ المخطئة ودفعته دفعًا لما قام به، ربما».

قربت منى الصورة إليها، أمعنت النظر في وجه علي، شعرت بحدود ومسافات كبيرة بينهما، تيقنت من أنه لم يعد وضعُ بقائهما جنبًا إلى جنب هكذا جائزًا حتى لو كان ذلك داخل إطار صورة، قد حان وقت الفراق، أحضرت مقصًّا وقصَّته من الصورة ووضعت صورتها بحقيبتها وصورته بحقيبته، كررت ما فعلته مع كلِّ الصور التي تجمعهما معا بكلِّ يقين بأنَّ كلَّ شيءٍ بينهما قد انتهى، وأنه ستعيش معه قريبًا امرأة أخرى، فلا يجب أن تجدَ عنده بقايا زوجته السابقة.

«امحِ من حياتك أولئك الذين لم يجلب إلا حضورهم إلا الشقاء لك، وكان الله في عونك إن كانوا وشمًا لا يُمحى».

الغربة

استوقفتها صورة لابنها فريد وهو في عيد ميلاده الثاني، بينما كان يُقطِّع التورتة التي كتب عليها اسمه، عادت بها الصورة لبدايات حياتهم بالسعودية، كم كانت قاسية ماديًّا واجتماعيًّا وعاطفيًّا! كانت أبسط السلع بالغة التكلفة، علاقات اجتماعية معدومة، اثنتا عشرة ساعة يقضيها علي يوميًّا بالصيدلية حتى أيام الجمعة، لتبقى منى وفريد حبيسين على الدوام، فإذا طلبت الخروج اتهمها بأنها لا تشعر بمعاناته، أصبح حلمُ السفر إلى السعودية كابوسًا تمنيا الاستيقاظ منه، بدأ الحديث عن النزول النهائي يتسرب إلى لسانيهما، وهنا ظهرت مرحلة الفترة المؤقتة، تؤجل كلَّ شيءٍ حتى تعود لمصر، حتى أصبحا يؤجلان الحياة نفسها حتى يعودان لها في مصر، فكلما فكرت في شراء أجهزة للبيت يقول عندما نعود لمصر، إن اشترت شيئًا احتفظت به في علبته لتستعمله بمصر.

يُنفق على الأشياء التي يراها هو مهمة ولا يهتم بما تحتاجه هي، فمثلًا، قضت ما يزيد على العام دون غسالة لتغسل الملابس على يديها، ولما بدأ أخوه يجهز لزواجه، إذا به يرسل له كلَّ ما ادَّخره من مال، فتعجبت منى بحسرة، ألم يفكر في استقطاع مبلغ زهيد من هذا المال ليشتري به غسالة!

الطامة الكبرى هي أن تلومه على شيءٍ، لم يكن يتقبل النقد قطُّ، وبالمقابل يريدها أن تهتم به دائمًا كما كانت جدته تفعل مع جده، شعرت أنها الذكر وهو الأنثى، ولما فاض بها الكيل طلبت منه النزول إلى مصر هي وفريد فقال مستعطفًا إياها: «أتستغنين عني بهذه السهولة؟!».

فقالت محاولةً مداراة مشاعرها السلبية ليتم أمرُ نزولها بسلام: «أنت كلُّ مَن لي، ولا أستغني عنك أبدًا، ولكني لا أتحمل هذه الحبسة، ويصعب عليَّ حالَ فريد، أريده أن يرى الدنيا ويلعب مع الأطفال كما هو الحال مع مَن هم في مثل سنه».

قال متفهمًا، الذي لا يحدث أبدًا إلا إن تحدثت إليه بقمة الهدوء بينما داخلها يغلي: «أعدك أن أحاول تحسين الوضع، أن نخرج مرة بالأسبوع».

أدركت أن التحدث معه دون عصبية، ربما يجلب لها بعض المنافع، فقد كانت عاطفية تصل إلى العصبية عند الشكوى أو التعبير عن احتياجاتها، وهذا ربما خطأ كبير تقع فيه حواء.

ولأنه بدأ يفكر في النزول النهائي، فقد قرَّر عملَ زيارة لأمه لتتمكن من أداء فريضة الحج، زاد حضورها الأمر سوءًا، كانت تؤمن بأنه يجب على علي أن يدخرَ المال ولا ينفق منه إلا أقل القليل، فإن رأتهم قد اشتروا شيئًا تقول لمَ اشتريتموه وبكم؟ مهما كان هذا الشيء بسيطًا.

سكنوا بملحق لرخص أجرته، وهو الدور الأخير بالمبنى، شقة ملحق بها سطح واسع، المكيفات شيء أساسي بالسعودية، وبمثل هذه الشقق بالأخص لأنها تتعرض إلى أشعة الشمس بشكل مباشر، وجدوه بمطبخ الشقة عندما استأجروها مكيفًا قديمًا لا يعمل به فتحات تسمح إلى الفئران بالدخول.

الفئران بالنسبة إلى منى شيء مقزز مرعب، ناهيك بأن فئران السعودية ذات شكل أبشع، فهي أكبر حجمًا وأكثر سوادًا، فإذا دخل الفأر المطبخ سكن بالموقد من الخلف، فإن أرادت إشعال الفرن فعليها أن تعيش مأساة، فعندما

ترتفع الحرارة يخرج مذعورًا، ومع كلِّ مرة كانت تصرخ من خوفها من أن يقترب منها، ومن فرط خوفها منهم كانت تراهم بأحلامها.

طلبت من علي أن يشتري شَبَكَةً من السلك ليسد بها هذه الفتحة فلم يهتم، وكلما دخل فأرٌ أحضر سمًّا ليضعوا بعضًا منه على بعض الطعام ليأكله ويموت، أو يحضر ذلك الشريط اللاصق الذي يوضع على الأرض حتى إذا مرَّ الفأر عليه لا يستطيع الإفلات منه فيضربه ليموت.

كانت حلولًا مؤقتة، فما إن يموتَ فأرٌ حتى يأتي آخر وتتكرر المعاناة، فتحترق أعصابها من جديد، تقول لهم ظهر فأر جديد فترد أمه بكل برود: «هل هو الفأر نفسه؟».

فيجن جنونها وهي تجيبها: «وهل أحفظ أشكالهم أنا! وهل هناك فرق إن كان القديم أم ضيفًا جديدًا، المهم أن هناك فأرًا بالمطبخ».

لم تجد منهما إلا اللامبالاة، وفي إحدى المرات اتجهت أمه ناحية المطبخ فإذا بعلي يقول لها: «لا تدخليه أنتِ يا أمي، فأنتِ تخافين الفئران».

استشاطت منى غضبًا وأجابته في حِدَّة: «وهل تربيت أنا بينهم! ألم أخبرك بأنهم مخيفون ومقزِّزُون بالنسبة إليَّ وتسمع صراخي كلما خرج عليَّ أحدهم من الفرن، لن أدخل المطبخ ثانية حتى تجد لهذه المشكلة حلًّا».

وما إن يحن وقت الوجبة التالية حتى تدخل المطبخ وتعيش المأساة من جديد، مرَّت عليهما أيامٌ كثيرة وهم في خِصَام، هلَّ عليهم عيد الفطر، ولما عاد من صلاة العيد هنَّأ أمه به ولم يفكر بألَّا يمر العيد عليها وهي وحيدة فيحاول جبر خاطرها المكسور.

شعرت بالوحدة والحنين إلى أهلها لقسوة قلبه عليها، فحتى العيد أراده أن يمرَّ عليها وهي في حزنٍ شديدٍ، ومرَّت الأيام وسافرت أمه بعد أن اشترت ما اشتهته من هدايا، واشترى السلك بعد سفرها وحلت المشكلة بين ليلة وضحاها.

«ما زلت أتبعك وقد تبين لي أنك تقودني إلى السقوط».

الصَّواعق

نزلوا أول إجازة لهم لمصر بعد ثلاث سنوات، طلبت منى من علي أن يقوم بعمل زيارة إلى أمها أيضًا لتحج فاستجاب إلى طلبها، طار قلبها من الفرحة، كان أن تدخل الفرحة على قلب أمها بهذا الأمر الذي يُعدُّ حلمًا لكلِّ المصريين هو حلم جميل بالنسبة إليها كذلك.

هي لا تدري لماذا أخذ هذا الأمر هذا الحيز الكبير بقلبها، لم يكن والداها فقيرين لا يستطيعان الحج على نفقتهما الخاصة، بل كانا مقتدرين، ولكن أن يحجا مجانًا ويكتب لها عند الله برًّا، فقد غزا هذا الحلم كلَّ قلبها.

جهزوا الأوراق ونزلوا إجازتهم بعد أن اتبعت منى نظامًا غذائيًّا تخلصت فيه مما يقرب من خمسة عشر كيلوجرامًا، كانت الأمور تجري بانسيابية كالماء بالنهر فلا شيء يعكر صفوه.

أتراه ظل ماءً بنهر أم تحول إلى دم يسيل من جرح غائر، دم يعاني السيولة فلا يتوقف تدفقه ولا دواء يلاحقه حتى بعد تضميده، توقف النزيف الخارجي، وبدأ نزيف داخلي دائم تغرق به روحها كلما كشفت لها الأحزان عن وجهٍ جديدٍ لها.

تنهَّدت ووضعت الصورة في حقيبتها وجلست لتتذكر ما جرى، الذي لا تعلم إن كان نتيجة خطئها أم خطئه، سذاجتها أم قسوته، سلامة نيتها أم مراعاته لمشاعر أمه، غبائها أم كرهه لها.

مرت أوائل أيام الإجازة على خير ما يكون، تقضي النهار مع أمه وإخوته في شقة أمه، تصعد إلى شقتها بالليل إلى النوم راضية بهذا الحال، وفي أحد الأيام قابلت منى امرأة بالسوق حدثتها عن حماتها، وأن أباها كان قد قتل أباه، تعجبت منى من الكلام وظنته مجرد إشاعة أرادت التأكد من عدم صحتها، ذهبت إلى حماتها بكلِّ سذاجة لتسألها لماذا يقول الناس إنَّ أباكِ قد قتل أباه، بدا الضيق على وجهها، ولكنها حَكَت لها أصلَ الحكايةِ نافية ما يُقال مؤكدة إن أباها كان بارًّا بأبيه وانتهى الموقف، أو هكذا ظنته منى، وفي اليوم التالي وجدت علي على علم بما جرى ويسألها: «كيف تتحدثين مع أمي في أمر كهذا؟!».

كان الشك والريبة وسوء الظن بها يتفجرون من عينيه، وكأنَّ كسرَ خاطر أمه بحديثها معها عن هذا الأمر الشائك كان ما قصدته، اتخذت منى موقف الدفاع عن النفس، وقالت وهي تتوقع منه التصديق: «أنا لم أقصد مضايقتها».

غير أنه كان يتعامل معها دائمًا في مثل هذه المواقف على أنها خبيثة تريد الشر، وأن الدورَ الذي وجب عليه لعبه هو الثأر والانتقام وإرجاع الحق إلى أهله، وإذا به يواجهها بالأمر أمام أمه منحازًا تمام الانحياز إلى أمه، موجهًا سيل من الإهانات إلى منى بأعلى صوته الذي قد سمعه الجيران: «أنتِ كلبة وحيوانة، وأنا لا أطيق العيش معكِ، أتحملك فقط من أجل فريد، لكن انتهى كلُّ شيءٍ الآن بعد ما فعلته، اذهبي إلى بيت أهلك».

تلقت منى كلماته كالصواعق التي أصابت حرث قلبها فأهلكته، لم ترد بكلمة واحدة، فلقد كان ما بداخلها أكبر من أن يُحصى في كلمات، ولو حوَّلت ما في الأرض من شجرة أقلام ما كتبت مثقال ذرة مما تشعر به.

حضرت أمها في هذه اللحظة وأرادت إصلاح الموقف، فإذا به يقول لها بلا أدنى درجة من المراعاة لمشاعرها: «خذي ابنتكم؛ أنا لا أريدها».

تلقت منى اللطمة التي ألقت بها في أسفل السافلين حيث كسيري القلوب، وخرجت من بيته وهي على يقين بأنها لن تعود له أبدًا.

«لماذا أخذتني الحياة إلى خريف المشاعر، وأنا ما زلت في ريعان شبابي؟ وهل لي من عودة؟».



وكأن شيئًا لم يكن

لامها أبواها على ما قد كان منها، التمسا له العذر في محاولته إرضاء أمه وجبر خاطرها، لم تتخيل منى أنها ستعود بعد الذي كان، اقترب موعد السفر فإذا به يسعى إلى عودتها، تحطمت آمالها في البُعْدِ أمام صخرة أمومتها، الأمومة التي تتحطم أمامها أسطورة الأنا لتولد أسطورة التضحية والفناء من أجل فلذة الكبد.

لم يكن هذا هو المعاناة الوحيدة في هذه الفترة، فقد وُلِدت معاناة أخرى من رحم الأزمة لا تقل عنها ألمًا بل ربما تزيد، فهي تمس الأم التي تعلق قلبها بالسفر لأداء مناسك الحج والعمرة، فقد جهزت أمها أوراقها وأعدت العدة لها، وإذا به يتقاعس عن إتمام الأمر، وكلما مرَّ يومٌ شعرت بحزن أمها يتعاظم وما بيدها حيلة في إخماده، بل كان يمسها أضعاف ما مسَّ أمها.

سافرت معه عليلة الفؤاد تصاحبها دموعها آناء الليل وأطراف النهار وما بينهما، ما اختلت بنفسها لحظة إلا وذكريات ما جرى في رفقتها، بينما يعود هو من عمله مبتسمًا وكأنَّ شيئًا لم يكن، وكأنه يقول لها: «أخذت ما تستحقين، والآن، هيا بنا نقضي وقتًا ماتعًا» وكأنَّ شيئًا لم يكن كعادته في كلِّ مرةٍ كَسَر فيها شيئًا بداخلها.

كان بارعًا في غلق الصندوق، أو ربما بارعًا في التظاهر بذلك، ولكنها لم تفلح في ذلك قطُّ، أرادت أن تضع لعذابها نهايةً، جلبت ورقةً وقلمًا وكتبت له: «أهنئك أنك تثبت دائمًا أنك تستحق مرتبة الشرف في تجاهل آلامي، والمُضِي قُدُمًا على أشلاء سعادتي، وأهنئ نفسي أنني استطعت أخيرًا تجاوز ذلك الزيف بالصراخ ولو كان على ورق، لقد ترك ما فعلته بقلبي وقلب أمي همًّا لو وضع في محيطات الدنيا لتعكر ماؤها، ولو عصفت أمواجهم جميعًا بقلبي مدى حياتي وهي تحمل معها أفراح الدنيا ما جرفته، ظننتك حصني ومأمني تدفع عني سهامَ سوءِ ظنهم فإذا بك أول مَن رَمَى، لم أعد أتحمل عودتك باسمًا مِلء فِيك متجاهلًا همًّا يسكن كلَّ جوارحي، تجني ثماري وقلبي يدمي، تتجاوز ما جرى وأنا به عالقة، دعنا نعترف أننا معًا الآن من أجل فريد، تلك الزهرة التي كتب عليها أن تنمو في حضن الجبل».

ترى لمَ كانت تلجأ منى في مثل هذه المواقف إلى الكتابة؟ قرأ كلماتها وكأنه لم يقرأها، فما من تعليق كقشة يتعلق بها غريق، والعجيب أنها مع مرور الوقت تعود لنفسها القديمة، للعطاء والتضحية، تظل تفكر وتخطط كيف ستتغير، وتبقى خططها بأدراج عقلها لا تتخذ أيَّ خطوةٍ لتحقيقها، ثم تفيق عند الصدمة الجديدة.

ومرت الأيام كعادتها لا تقف في عزاء أحد، وكما مرت على أجساد أناس أصبحوا الآن من ساكني القبور، قررت المرور على جسد أبيها، في وداعها إلى أبيها وأمها قبل سفرها، تأملت ما فعلته بهما السنين، بدا الوهن على أبيها، انخلعت سناه الأماميتان مما أثَّر على نطقه لبعض الحروف كحرف السين الذي أصبح ثاءً، تساءلت بينها وبين نفسها: «كيف سيكون حالهما عندما أعود بعد عامين؟! ترى سيتحملان عامين آخرين؟!».

لا لم يتحمل أبوها، زاره ذلك الضيف الثقيل، المرض، ولم يُطل المقام، غادر ليحل ضيفٌ لا يُبقي ولا يَذَر، قاطف الزهور ومعمر القبور، المصيبة الكبرى.. الموت.

تنهدت تنهيدة طويلة أعادتها من هذه الأيام التَّعِسة إلى يومها الأتعس، ليزداد بأسها وإصرارها على الفراق.

«الصراع صراعك أنت، وما مَن هم حولك إلا متفرجون».

البركان الثائر

أسندت الصورة إلى جاراتها في الألم، تناولت صورةً جديدةً لمولود جديد، ماجد الابن الثاني، هبَّت رياح ذكريات جديدة، فبعد أن أخذَ الموت أباها بأشهرٍ معدودات أعطتها الدنيا هبةً جديدةً، فدائمًا ما تأخذ الدنيا وتُعْطي، تُنْعِم وتَحْرم، فكلما نبهتك أنها الشقاء فتزهدها، غرست فيك آمالًا جديدة تزيدك تعلقًا بها، ويظل الإنسان هكذا معلقًا بين السماء والأرض، الموت والحياة.

وما هي إلا أشهر معدودات أخرى حتى حملت بضحى، ولما بلغت ضحى العامين، وبعد أن هدأت رياح الماضي، اتفقا على عمل زيارة إلى أمها، أَتَت كنسيمٍ عليلٍ يردُّ الروح التي انتزعت، ويهدئ من رَوع الماضي ويمسح آثارَ حزنٍ دفينٍ.

كانت الحياة في هذه الفترة قد بسطت لهما يدَ عطائها، حيث ترقى في عمله، وأصبح يحصل على راتب كبير، لكنه لم يُجِدْ يومًا فنَّ الادخار، كانت يداه مبسوطتين يُنْفقُ كيف يشاء على البيت والأولاد، حتى إذا وصلت يده إلى منى قبضها.

ومما كان يُنَغِّص عليها طيب عيشها معه أنه إن وصلت الحياة بهما إلى طريق مسدود، وأصبح عقدُ الأسرة على وشك الانفراط، كانت هي المسؤولة دائمًا عن لمِّ شمل هذا العقد حتى لو كان هو من فرطه.

وكلما اندلع بينهما حريقٌ جَبَّ كلَّ سلامٍ قبله، مع كلِّ خلاف ترى بيتها بلا أساس، آيلًا إلى السقوط وعليها هي ترميمه وتصليبه لتستمر الحياة، كانت دائمًا تشعر بأنَّ ساعةَ السقوط آتية لا محالة متى كَلَّ ذراعاها من حمل بيتها، إنَّ القفةَ ذات اليدين يحملها اثنان، فإن حملها واحد اختلَّ توازن ما بها وكلَّت يداه لأنه يحمل فوق طاقته فتسقط منه لا محالة قبل أن يصلَ إلى برِّ الأمان.

مرت ثلاث سنوات كبر فيها الأبناء، أحست منى بالتخفف بعض الشيء من مسؤوليات الرضاعة وحفاضات الأطفال، ظنت أن الحياة بدأت تروق لها وأنه أصبح أمامها فرصة لتعيش مع علي لحظات حلوة لا يؤرقها رضيع، وقد كان، إلا أنه بدأ في عزف نغمة جديدة حزينة على أوتار مشاعرها بعد كل لقاءٍ يجمعهما يجني فيه ما لذ وطاب من ثمارها: «أريد الزواج من أخرى تكون أكثر حيوية واهتماما بي».

كان كمَن يصب في أحشائها حِمَمًا ينصهر به فؤادها فترد بحسرة: «أصبحت تراني في مرتبة دنيا بين النساء».

فيرد بحسم ويقين: «أنا لا أتحدث عنك وحدك، منى، جميعكن تتحولن بعد الأطفال وتفقدن اهتمامكن بأزواجكن، ليس كالمرأة الأجنبية».

فترد بلهجة جديدة في محاولة لأخذ الحوار إلى منحنى آخر لعله يفيق ويقدرها حق قدرها وأنها ينقصها أشياء كما ينقصه أو لعله يتذوق ذلك الشعور المر الذي يذيقها إياه مرارًا وتكرارًا: «أنت أيضًا لست كرجالهن، إنهم يدللونهن ويحنون عليهن ويشاركونهن في أعمال المنزل ويغدقون عليهن الهدايا، وأنت إن أسأت إليَّ لا تكلمني حتى أبدأ بالكلام، أنا دائمًا من يزيل السدود التي تعوق تدفق نهر حياتنا، هل كلفت خاطرك يومًا واشتريت لي هدية ولو كانت وردة، ومع ذلك أتغاضى وأرغب في استمرار حياتنا، لأنها تنعم بما حرمت منه الكثير من البيوت، وإن الله جمع بين أزواج يكمل بعضهم بعضًا».

ولأنه لم يكن يتقبل أي نقد وأنه يرفض مقارنته بغيره وأن ترى هي رجلًا أفضل منه، فقد قال هازًّا رأسه حسرة على ما قدمه من عطاء قوبل بالكفر والجحود: «ألم يقل رسول الله: إن معظم أهل النار من النساء لأنهن يكفرن النعمة والعشير! فمن الطبيعي أن تكفري نعمي».

فتجيبه في حنق واتهام: «ليست النساء فقط من يكفرن النعمة والعشير».

فيرد في صلف: «إن رغبتي في الزواج لا تعني أنني أكفر النعمة والعشير، إن الشرع أعطاني الحق في التعدد، من حقي أن أتزوج أربعًا».

فترد بقوة وثقة وهي ترفع رايتها الأخيرة بعد أن وصل الحوار بينهما إلى طريق مسدود: «أعطاك الشرع حق التعدد لتتزوج أربعًا، وأعطاني الحق بأن أرفض أن أكون إحداهن، اذهب وتزوج كما تشاء ولو أربعًا ولكن بعد أن تطلقني، فلن أكون يومًا واحدة منهن».

وكلما همَّت بإنهاء علاقتها به قالت لنفسها لا تتعجلي الخراب لأبنائك، فكله كلام، على أن الكلام عند المرأة بيده أن يميت قلبها أو يحييه، فتتغاضى وتخضع وتستسلم، حتى إذا همَّ بفعلته أنهت كلَّ شيءٍ، فلا تكون هي مَن بدأ بهدم البيت، إنها الأمومة يا سادة.

لاحظت عليه في هذه الفترة أنه لا يترك هاتفه من يده أبدًا إلا عند النوم أو دخول الحمام، أصبح يميل إلى الاختلاء بنفسه في غرفة النوم مغلقًا عليه بابها، وبينما هي في رواحها ومجيئها بالشقة إذ بها تسمع صوته بطعم جديد، طعم رومانسي حالم هادئ حنون خفيض تفصل التنهيدة بين عباراته، حاولت استراق السمع من أمام الباب وقلبها خائفٌ يترقب، لم تسمع ما يُقال وتفهمه، ولكنها شكَّت بالأمر فتسارعت ضربات قلبها.

ولما ذهب إلى عمله تملكها الشك والريبة، وما أدراك ما الشك! إنه أقسى من اليقين، فعندما تقع المصيبة تحزن، ولكن ليس بقدر توقعك لها وانتظارها، إنه انتظار البلاء قبل وقوعه، وأنت لست متأكدًا إن كان ما تشك به حقيقةً أم وهمًا، شعور صعب يعصرك، دائم الشجار مع كرامتك وعزة نفسك، يهز ثباتك ويزلزل كيانك، ولما لم تتحمل ذلك الشعور قررت قتل ذلك الشك بسيف اليقين، سألت منى نفسها: «هل هو على علاقة بأخرى؟» فأجابتها: «هو كذلك في قلبي، ولكن أين الدليل ليرحمني عقلي؟».

انتظرت في صمت تترقب فيه المحادثة التالية، حتى إذا بدأت نظرت إلى عقارب الساعة لترى أين هي الآن لتحدد ميعاد المكالمة، حتى إذا دخل الحمام ليستحم قبل الذهاب للعمل تاركًا هاتفه على الكمودينو المجاور له، التقطته بيد مرتعشة وقلب يخفق كقلب عدَّاء يريد أن يكسرَ الرقم القياسي، ذهبت إلى سجل المكالمات ثم إلى توقيت المكالمة، فإذا بها أمام رقم دون اسم، سجلت الرقم بورقة وأغلقت الهاتف وابتعدت وكأنها لم تفعل شيئًا لتزدرد ريقها بأن مرَّ الأمر بسلام.

وبعد ذهابه إلى عمله قضت أمسيتها تفكر ماذا عليها أن تفعل، هل تقوم بما تقوم به النساء في الاتصال، فإن وجدتها امرأة سبتها ولعنتها واتهمتها بأنها خطَّافة الرجال؟! هل ستعيش ذلك الصنف من العلاقات الزوجية الذي تحوم فيه المرأة حول حماها لتحميه من خطافات الرجال حتى إن كان زوجها هو من يذهب إليهن بقدميه؟!

أحسَّت أنه لو وصل بها الحال إلى هذه الدرجة فستظل تحتقر نفسها حتى الموت، هذا منافٍ لطبيعتها، هي لا تستطيع الإبقاء على أحد لا يُبقي عليها، ترددت في الاتصال بالرقم، ولكن بقي الشكُّ يأكل أعصابَها كالسرطان، أرادت

فقط أن تعرفَ إن كان هذا الرقم لامرأة حقًّا، قررت أخيرًا وبعد طول تردد الاتصال به.

اتصلت به بعد أن أخذت نفسًا عميقًا علَّ قلبها يهدأ فلا يضطرب صوتها، جرس وما من مجيب، عاودت الاتصال فانفتح الخط فقالت منى: «السلام عليكم».

أجابها صوت امرأة حذر: «وعليكم السلام».

اكتفت منى بأن عرفت أنَّ الرقمَ الذي يتصل به زوجها هو رقم لامرأة، أما عن مَن هي هذه المرأة أو لماذا توجد علاقة بينها وبين زوجها فيُسأل عن ذلك علي وليس امرأة لا تعرفها ولا تعنيها في شيء، إن من تربطها به علاقة ويخونها هو زوجها، أرادت منى إنهاء المكالمة، فسألتها بكلِّ هدوء وكأنها اتصلت بالرقم الخطأ مختلقة أي اسم: «أستاذة ليلى؟».

بعد صمت استمر إلى لحظات، ثم ردها بنبرة بها شيء من الشك والتوقع، جعلت منى تحس أن تلك المرأة شكَّت في أن مَن تتصل بها زوجة علي: «لا».

أجابت منى بكل هدوء: «أعتذر، طلبتُ الرقم الخطأ، مع السلامة».

أنهت المكالمة واعتدلت في جلستها كمن يعد نفسه ويرتب أوراقه لاتخاذ قرار مصيري، أخذت تتحدث إلى نفسها: «أصبح الشك يقينًا، صوتها خليجي، إذن هي سعودية، لا تبدو طائشة، ستخبره بالتأكيد، آن الأوان لأنسحب من حياته، وماذا عن بيتي وأبنائي، ما هذا المستنقع الذي سقطت به يا منى! وهل لكِ من نجاة! أنت لا تصلحين للعب دور في هذه المسرحية الهزلية، أين هي المسرحية التي يلعب بها زوجك دور المحب المخلص لتشاركي بها! انتظري منى لنرى كيف ستكون النهاية، لا تتعجلي».

ولما عاد تظاهرت بأنَّ شيئًا لم يكن، لتنظر إن كان على علم بما جرى أم لا، وتظاهر هو بدوره بأنه لم يدرِ بما جرى، ولكنها أحست بأنه يعرف وينتظر خطوتها القادمة، وبعد أيام دار بينهما شجار جديد، فإذا بها تواجهه بعلاقته بأخرى متوقعةً منه أن تبدو عليه أمارات الخجل مما فعل أو ربما إنكاره، وربما اعتراف يتبعه اعتذار وإبداء الندم ووعد بألَّا يعود لمثل فعلته ثانية؛ كما يفعل بعض الرجال في مثل هذه المشاهد، فإذا به يدفعها بيده ليبعدها من أمامه أن افعلي ما تشائين، وبدا عليه علمه بما فعلت وأنه اتفق مع هذه المرأة على أمر ما.

خرجت منى من مستنقع إلى بئر سحيق حيث الرخص والذل والهوان، لم تكن قوية قطُّ كما تبدو، كانت هشة كعظام الطاعنين في السن، ما إن تصطدم بشيء حتى تنكسر، فما بالك بتلك المطحنة التي قلبت ذرات عقلها فما عادت تعقل شيئًا، اسودت الدنيا بعينيها، ألقت نظرة على أولادها فأصابها الغثيان، ذلك النوع الذي يأتي من فرط الخوف والكمد.

مرَّت أيام لا تعرف لها فيها رأسًا من رجلين، حتى سرى فيها سم الانكسار والخنوع، ذهبت إليه معتذرة عما جرى لعله يرضى فلا يسقط البيت، قال إن ما ظنته ليس حقيقيًّا، وأنه لا علاقة له بهذه المرأة، وأنها امرأة متزوجة وانتهت القصة.

ومع الوقت شعرت منى بأن هذه المرأة عندما سمعت صوتها ورأت فيه امرأة عاقلة مهذبة، وأنها ستكون سببًا في خراب بيت بلا داعٍ، ربما قررت تركه، وقال علي إنها متزوجة من رجل ساذج لا يفقه شيئًا، وهي تريد الطلاق منه، كانت منى تسمع ولا تعلق رغم ما يملأ صدرها من تساؤلات، انتهت هذه القصة وظلت رغبته في الزواج قائمة كبركان ثائر تخرج من فوهته حممٌ كلما ظنت منى أنه خمد، أو قل كتوابع زلزال كبير تهز قلبها كلما وقعت.

بعد ولادة ضحى استخدمت منى اللولب لمنع الحمل، استمر معها لثلاث سنوات كرفيق حميم يصون العشرة أكثر من غيره، في أواخر السنة الثالثة أحست أنه في غير موضعه، أخبرت علي بالأمر وأنها تريد الذهاب إلى طبيبة نساء لتفقده، فمن المفترض أن يتمَّ تفقده كلِّ ثلاثةِ أشهر، ولكنه لم يكن يهتم أو ربما كان ذلك كسلًا منه وهي تستسلم، مرت الأيام ولم يذهبا كعادتهما وإذا بالدورة الشهرية تتأخر عن موعدها، فتجرب اختبار الحمل المنزلي فيشير بالإيجاب.

حامل! وعلى اللولب! وبدأت أغرب فترة حمل عرفتها منى أو سمعت عن مثلها، دم ينسكب انسكابًا من إربة مثقوبة طوال الوقت لم تجد نفعًا معه الحفاضات، ثم نزيف حاد أغرق أرضية غرفة المعيشة ظنًّا معه أن الحمل قد سقط ولم يسقط.

طلقات ولادة منذ الشهور الأولى لا تهدأ حتى تتناول مسكنات شديدة، ومثبطات للطلق ثم نوم عميق بعد ألم كآلام الولادة بشكل متكرر لما يزيد عن ثلاث مرات أسبوعيًّا، ثم وصول هيموجلوبين الدم إلى أدنى مستوياته.

كان علاجُ مثل هذه الحالة لأيام في المستشفيات يتكلف ما لا طاقة لهما به، فمكثت بالبيت وكان هو بصفته طبيبًا صيدلانيًّا يعطيها الدواء والجلوكوز ويهتم بها، حتى ظنت أن هذا الأمر قد قرَّب بينهما المسافات، انتظرا حتى اليوم الأخير من الشهر السابع كما حدد الطبيب ميعادًا لولادتها قيصريًّا، فلم تكن حالتها الصحية تسمح بالولادة الطبيعية.

أتت بمولودة أسماها ريم، تزن ما يقل عن كيلوجرامٍ واحدٍ، بدأت منى في تناول حبوب منع الحمل لمدة شهور بدءًا بحبوب تتناسب مع الرضاعة الطبيعية، ثم تركتها لتتناول نوع آخر فيحدث الحمل في هذه الفترة القصيرة، ولم تكن قد استعادت عافيتها بعد.

«وكلما نفختَ تأففًا، تطايرت أوراق حبٍّ كتبتها لك، فأكتب غيرها علَّ الريح تسكن حتى بعثرت كلَّ أوراقي، سألملمها وأرحل بها إلى أرض أخرى، فقد جفَّف حبر قلبي خريفك الدائم».

صومعة الأمومة

ضمَّت منى الصورة إلى أخواتها وجلست تبكي، ينتفض جسدها بطريق الذكريات المتلئ بالمنعطفات والمطبات، ولم تنتبه أنها لم تربط حزامَ الأمان، وها هي الآن تصل إلى محطتها الأخيرة، غير أنها أَبَت النزول قبل أن تحكي لنا كيف كان فصلُ الخطاب في هذه الكلمات التي ترثي فيها منى الفتاة، منى الحالمة، منى الباحثة عن الحب، منى الساذجة، منى الزوجة الراكنة إلى زوجها، مهملة مواهبها وفرصتها في العمل، حتى إذا تخلَّى عنها زوجها سقطت، لتترك مقعدها لمنى الأم، المنكفئة على أبنائها، الراهبة في صومعة الأمومة:

الحبُ عندي عندما كنت صغيرة

عندما كنتُ أراني كالأميرة

كان شوقًا وابتساماتٍ وغيرة

كانَ أن يأتي الحبيب المنتظر

يحمي قلبي من قساوات القدر

يقطفُ ليَ التفاحَ من غصن الشجر

كنتُ أحسَبهُ آتيًا لكي يُرضيني

يحملُ الأحزانَ عني يحتويني

يُمهّد لي طريقَ الفوزِ والأحلام

يطردُ الأحزانَ عني كي أنام

غيرَ أني أدركتُ أني

من بيدهِ كلُّ أمري

ابتساماتي وجَمْري

أيتها الباديةُ طريقًا

لا تتخِذْن الخيال صديقًا

ابحثي عن نَفْسِكِ التَّواقة

واشربي منها جميعَ الطاقة

حتى إذا غدر الزمانُ وخان

لم تكوني هشَّة البنيان

كنتِ ذات إرادة وكيان

وقتها لن تُطْفأ الشموع

وحينها ستنسحب الدموع

وتقع المشكلة الأخيرة بينها وبين علي، التي لا تتذكرها كغيرها من الخلافات التي هي لا شيء، مقارنة بما نسمع به من مشكلات زوجية، إلا أنه كان دائمًا يحمل معول الهدم لتنكيس حياته وحياتها وحياة أربعة براعم خرجوا إلى وجه الأرض، وبرعم أخير ما زال في رحمها ينتظر دوره ليضع لمسة حزن جديدة، كانت هذه المشكلة القشة التي قسمت ظهر البعير، لقد سافر البعير طويلًا محملًا بالخيبات الثقال بلا متاع، ظنًّا منه أنه سيجد الأمان بنهاية الدرب، فإذا به يجد نفسه في طريقه إلى المذبحة.

اعتزلهم طوال ساعات مكوثه بالبيت مغلقًا عليه بابه، قرَّرت ألا تنثر بذورَ الصُّلح ثانيةً، فلم تكن تنبت قطُّ إلا حنظلًا، وبعد مرور أيام هي على المرأة سنون طوال، نظرت إلى أبنائها، ولا تسعني مفردات اللغة كفراش لأمدِّدَ عليه جثمان قلبها الموجود، ولا لأنثر غطاءَ اليتم على أبناء زهدهم أبوهم، تاق شوقًا إلى حياةٍ جديدةٍ يكون هو وشريكة جديدة أبطالها، وكأنه في سنِّ العشرين، فإذا بها تذهب إليه، تطرق بابه وهي تجرُّ البقية الباقية من قدرتها على التنازل والتحمل والذل، بعد أن استجمعت نغمات صوتها المرحة التي تبعثرت في لحن حزين؛ طالبة منه أن يفتحَ لها بابَ رحمته، فإذا به يجيبها بسيف حاسم قطع خاطرها لينزف ما تبقَّى لها من أمل في الإمساك بمجداف سفينتها بعد أن أسقطته يده عمدًا في بحر هائج أن: «اذهبي ودعيني وشأني».

انسحبت حاملة معها كيلًا فائضًا من الجزع والجفاء لم تعد تطيق تذوق مرارته، أرادته أن يحققَ أحلامه التي سيبنيها على أنقاضها وأنقاض أولادهما، وهي على يقين أنه لن يجد من أحلامه أكثر مما أعطته، لكن النصح لا يجدي مع روح تطوق إلى التجربة، لا بُدَّ من أن يخوضَ التجربة علَّه يفيق وإن كان بعد فوات الأوان، أمضت ليلها وهي تحاول رسمَ صورةَ مكبرةَ لأبنائها، تبدو صورة قلبها بجانبه ضئيلة لا تُرى بالعين الدامعة المضحية، عين الأم، نجحت رسمتها في إقناعها بالذهاب إليه مرة أخرى ولتكن الأخيرة.

دقت بابه بعد تنهيدة عميقة في محاولة لإطفاء جمر ضيقها واستجماع أمومتها وأبوته معًا، وسعادة أبنائها فوقهما، فإذا به يقذفها بكلمات رافضة شجت صبرها، ألقى قنبلته الأخيرة، ربما كانت كيماوية أو هيدروجينية أو بيولوجية، ذلك الصنف الذي يلعب بالجينات ويحيل طبائع الإنسان إلى طبائع جديدة، لا تمت إلى نسخته القديمة بصلة، تيقنت أنه كفاها ذلًّا، كفاها تجديفًا في حضرته، كفاها أملًا في أن تكملَ سفينتها الطريق في صحبته.

قالت لنفسها: «فليسقط البيت إن لم يحاول هو رَأْبَ صدعه، ولترسم الحياة مسارًا جديدًا لي ولأبنائي، سأعود بهم لمصر وانفصل عنه حتى تنتهي قصتي معه إلى الأبد، لن تكون هناك النهاية السعيدة التي كنت أرسمها دائمًا في خيالي، نعم، بُتِرت أطراف قصتي قبل أن تصل إلى نهايتها السعيدة».

وقع ما توقعته منى، لم يحاول رَأْبَ الصَّدْعِ، بل ظلَّ يزيده اتساعًا، وكلما مرَّ يوم تجده فيه على حاله تدفقت بشرايينها دماء العزة والجفاء، فيتسع ويتسع حتى مرَّ ما يزيد على ستة أشهر اضطرت إلى البقاء خلالها حتى ينتهي

العام الدراسي لأبنائها، ستة أشهر من الهجر والبعد رغم أنهما كانا ينامان بالغرفة نفسها، لم يحنُّ يومًا، لم يراعِ عِشْرة السنين، لم يولج الكف ليعلم البثَّ، لم يفكر يومًا في إنهاء تلك الحرب الباردة، وكلما مرَّ يوم ولم ترَ منه تمسكًا ازدادت بيعًا.

كم تنهدت بجانبه علَّه يخط بقلمه كلمة تحيل نهاية القصة من حزينة إلى سعيدة، كان جليًّا أن حبره قد جفَّ، يذهب الليل ويأتي ليلٌ آخرَ رغم شمسه، بدأت تؤهل نفسها للتجديف بسفينتها المتلئة بالركاب، تسجل أسماء الأدوية لحالات المرض المختلفة التي قد تصيب أبناءها حين تخلو الحياة منه، فقد كان يتولى هو مثل هذه الأمور، تفكر بأيِّ مكانٍ ستقيم بمصر وهي امرأة دون رجل، عرضت أرضها التي ورثتها من أبيها للبيع، طلبت من أختها المقيمة بالإسكندرية أن تبحث لها عن شقة وكأنها ستكون لهم مصيفًا، فلم تخبر أيَّ أفرادِ عائلتها بما يجري.

حملت الهمَّ في قلبها ليس لقوتها، لكن لأنها علمت أن الحلَّ عنده هو، لن يغني تدخل الأهل إلا في إهانات جديدة لها، ولكم مرت بهذا الوضع، فما زادها إلا ذلًّا ومهانة، الأمر بيده هو، وكلما مرت الأيام أدركت أنها لم تعد تريده وإن عاد، وإن فاضت دواته حبرًا.

«أيها الحب، لم تُجْدِ نفعًا أجهزة الإنعاش، فلتسترح في رقدتك».

نطق كفرًا

إن قوتها في هذه المرحلة قلَّ من يمتلكها من النساء، كم من نساء وصلن إلى هذه الدرجة من السلم وتعبن فعاودن أدراجهن، ولكنها كانت كلما تعبت ازدادت قوةً وصعودًا، وربما أخلَّت قوتها الظاهرة من توازن استبياعه في شيء، فكان يعود من العمل ليجدها تلعب «شطرنج» مثلًا مع الأولاد، تضحك وكأنه ليس من حزن، فإذا به ينضم إليهم، يأخذ مكانَ فريد الذي كان يلاعبها فتلعب وكأنه لا شيء بينهما من فرط لا مبالاتها به، أما ما كان يعصر قلبها بلا رحمة فهو أولادها وانفراط عقد بيتهم، ولكم تكرَّر مشهدُ بكائها وغنائها في الستة أشهر تلك، ولكنها لم تبكِ يومًا أمامه.

اقترب ميعاد السفر، كانت لنزول الإجازات بهجةٌ إحدى مظاهرها الملابس الجديدة، كان شراء الملابس لأبنائها على ذوق معين متعة حرمت منها في تلك الفترة بعد أن اشتراها هو، لم يشترِ لها شيئًا كحاله دائمًا معها، سافرت بملابس بالية كمشاعرها.

وقبيل السفر بأسبوعين تقريبًا تنازل الملك ونزل عن عرشه وفكر في التحدث معها، ولكن عظمته لم تسمح له بأن يذهب إليها، فأرسل إليها فريد ليبلغها أن: «أبي يقول لكِ تعالي إليه يريد منكِ شيئًا».

قالت لنفسها: «حتى عندما فكر في التحدث إليَّ أرادني أنا أن أذهب إليه!»، ظلَّت في مكانها وكأن فريد لم يخبرها بشيء، وبينما تخرج هي من غرفة النوم في إحدى المرات في أثناء وجوده بها، إذا به يناديها.

وقفت منى تنتظر طلة كلماته التي طال غيابها وهي بين شعور برفضه، وانتظار لأن يبدي رغبة في بقائها، لعل الأيام الماضية أثنته عن حلمه، فقال كمن سكت دهرًا ونطق كفرًا: «أين تريدين الإقامة بمصر، بالبلد أم بالقاهرة؟».

البلد قريتهما، والقاهرة البيت الذي بناه بما جمع مما أبقت لهما عليه الأيام من تحويشة العمر من سنوات الغربة، تأكدت هنا أنه يعدو نحو هدفه، ولا سبيل لكبح جماحه، وعليها أن تلقي له الحبل على الغارب قبل أن يدهسها فردت: «القاهرة»، ثم خرجت وتركته وهي تجرُّ آخر أذيال الخيبة.

كان أن تعيش في القرية أمرًا بالغ الصعوبة من حيث كلِّ شيءٍ، بعد أن تعودت هي وأبناؤها على حياة المدينة من حيث المدارس والجو العام للحياة من: المكيفات والناموس وتراب الشوارع، كما استثقلت العيش ببيت أهلها هي وأربعة أبناء وخامسهم أوشك على الوصول، أما عن بيت أهله وشقتها به، فكيف لها أن تعيشَ معهم بعد طلاقها منه.

«كثيرا ما نظن أنه علينا أن نصبر، راجع نفسك فربما أنت تسير في الاتجاه الخطأ».

قُضي الأمر

غلبها الإعياء، أتمَّت ما كانت تقوم به سريعًا، وأصبح كلُّ شيءٍ جاهزًا للسفر إلا بعض الأوراق التي خرج علي لإنهائها، عادت لغرفة المعيشة، ألقت بجسدها وجسد جنينها بعطف، تملكها الفكر عن هذا الذي لم يرَ الدنيا بعد، بدأت معاناته قبل أن يخرج إليها، انحدرت دموعها كروتين يومي، كحبة دواء تؤخذ قبل النوم تنقذ من الموت.

أبى النوم إلا أن يجلب معه الكوابيس هدية كعادته، فإذا بها ترى جنينها يخرج من رحمها، تَهُمُّ بحمله وإرضاعه فتختطفه منها يد لا تدري لمن، فينتفض جسدها دون أن تفيق، ثم ترى أمها تلومها أن هدمت بيتها بيديها وهي تحاول الدفاع عن نفسها دون جدوى، وما إن تخرج من كابوس حتى تدخل في آخر، وكأنها أشباح تطاردها في رحلة ليلية مظلمة.

وما هي إلا ساعات حتى عاد علي الذي كان في حاجة إلى إحدى الأوراق، ناداها ليخرجها من كوابيسها، فإذا بها تهبُّ من رقدتها وهي تصرخ، سألها عن ورقة الإقامة الخاصة بها، أجابته بشرود بعد أن انتبهت إلى وجوده، محاولة إخفاء ما تشعر به من ضيق واختناق وذعر، كمن كان في حريقٍ أوشكت النار فيه على التهامه: «بالحقيبة السوداء الخاصة بالأوراق على طرف السرير».

ذهب ليبحث عنها، ويبدو أنه كان في عجلة من أمره، أو ربما أراد التأكد من أنها لم تأخذ مالًا أو غيره معها، أفرغ الحقيبة مبعثرًا ما قضت ساعات طوالًا في لملمته ثم ناداها:» تعالَي لتحضريها، أنا لا أجدها».

دخلت لترى الصور والأوراق مبعثرة، فقالت بصوت عالٍ عصبي: «ما هذا الذي فعلته، وكيف تفسد ما قضيت ساعات في تجهيزه!».

التفت إليها سريعًا ليصفعها على وجهها قائلًا: «لا ترفعي صوتك عليَّ».

قالت لنفسها وقد جنَّ جنونها: «عن أيِّ شيء يتحدث! صوتي العالي! كم هو في عالم آخر، ولا يدري بما أنا فيه، كلُّ ما يعرفه حقه الزوجي بألا يعلو صوتي على صوته!».

فأجابته وقد تفلتت أعصابها وغلى الدم بعروقها: «أما زلت ترى لك حقوقًا عليَّ وتريدها بحذافيرها! سوَّلت لك نفسك أن تمدَّ يدك عليَّ وأنا لم أعد أخصك في شيء!».

بحثت عن شيء تعبر به عما يدور بداخلها من غضب، رأت المقص الذي قصت به الصور على الكومودينو، أمسكت به كما يمسك القاتل بنصل السكين، وقالت في فوران وهي تجز على أسنانها: «إن مددت يدك عليَّ مرة أخرى فسأقتلك».

هجم عليها واختطفه من يدها، وقال لها وهو لا يكاد يصدق ما رآه: «أنت طالق، ولو أنه يجوز أن أطلقك الطلقتين الثانية والثالثة الآن لفعلت».

فقالت دون تأنٍّ وكأن الكلمات كانت تقف على طرف لسانها منذ قرونٍ تريد الخروج: «ليته يجوز حتى أخلص منك إلى الأبد».

جرى ما جرى في لحظات، ولكنه حمل من المشاعر ما يكفي لألف عام إن جادت المشاعر في عطائها حتى توصف بالتبذير، انصرف تاركًا إيَّاها في البرزخ بين ماء مالح هو خراب البيت، وماء عذب هو خلاصها منه، غير أن ما هي به كان فوق قوانين الطبيعة، فالبرزخ يفصل بين الماءين فلا يختلطان، أما ماءاها فقد اختلطا، ابتسمت ابتسامة مرتعشة شلت حركتها دمعة، تخبطت بغرفتها تخبطات بطعم التِّيه.

نعم قضي الأمر قبل يومين من سفرها، انقسم ظهر البعير، البعير هلك، لم تُجدِ نفعًا أجهزة الإنعاش أيتها البراءة، فلتستريحي في رقدتك، رأت منى أنه قد آن الأوان لتخبر أهلها بما جرى، تحدثت إلى أخيها حازم بأن الطلاق قد وقع، وأنها لا تريد أن يستقبلها أحد من إخوة علي بالمطار، وقد كان، أوصلهم علي إلى المطار وهي لا يبدو عليها أي أمارة من أمارات الحزن أو الندم، كانت تضحك وكأنه ليس هنالك من شيء، وكأنه لم يكن هنالك طلاق قد وقع، هذه هي طبيعتها التي رُدت إليها، هي لا تستطيع الإبقاء على من باعها، وبينما هي بالطائرة، أخرجت دفترها من حقيبتها ثم كتبت بعد دمعات حارقة:

«وبدأ خريف قصتنا عندما ضاق بي قلبك الكبير، لملمت مشاعري المبعثرة في حجراته ورصصتها في حقائبي، وتركت الكرامة أثقلها لأرتديها في رحلتي المجهولة، لعلها تدفئ روحي من برد السقوط، حملت حقائبي الثقيلة، وقبل أن أغادر، ألقيت نظرة أخيرة لأجدَ بعض عمري الذي لم أستطع وضعه في حقائبي، لقد كان مبللًا بدموعي، وكنت قد نشرته على أحبال الأمل منذ براءتي ولم يجف، فقُطِعت الأحبال من ثقلها، ورغم علمي بقسوة الطريق، فإنني قررت السفر لإيماني بأني سأجد الثوب الذي حاكته لي أحلامي».

«نجوت... ولكن».

جمال البدايات

وهنا بدأ فصل جديد في قصتها، استطاعت أن تواجه الجميع بكلِّ قوة، لا بكاء ولا ندم، وكما تكون البدايات دائمًا حلوة، كذلك كانت بدايتها في قريتها، لم يلوِّح أحدٌ براية القسوة، حاولوا تَفَهُّم ما جرى، كانت الأكف التي تحنو أكثر من الألسن التي تلوم، ظنوا أنه بإمكانهم فعل شيء لتُحل الأزمة، بل لا بُدَّ أن تحل، فهناك أربعة أبناء وخامسهم على الطريق -طريق الشقاء- يجب أن يحيوا في كنف أبويهم.

وما هي إلا أيام حتى نزل علي، بدأت تدخلات الأهل للصلح، حضر أخوه وأخته إليها، ولكنها أَبَت أن تقابلهما، كانت على يقين أنهما أتيا دون رغبته، وأنه إن وقع صلح دون رغبته، فلن تزيد القصة إلا فصلًا مأساويًّا جديدًا.

وإن كان زهدها قيراطًا، فقد زهدته أربعًا وعشرين، ليس هو وحده، بل هو وكلُّ ما ومن يخصه، ربما كان عليها أن تقابلهم وتشرح لهم ما جرى وما فعله، وأنه هو من يريد البعد، فقد أشاع بينهم أنها هي من هجرته ومن لا تريد الاستمرار معه، إلا أن كرامتها لم تسمح لها بذلك، أو ربما لم يَعْنِها إن فهموا ما جرى أم لم يفهموا، النتيجة واحدة، لقد انتهى كلُّ شيءٍ وسيتزوج هو، هي على يقين من ذلك، سيتزوج من أخرى غير مصرية، ربما أجنبية، ولكنه أبدا لن يتزوج من مصرية.

بدأت تدور حوارات بينه وبين أهلها دون علمها، رأوا منه البأس والإصرار على الزواج، وأنه لا مجال إلى استمرار حياتهما بعد ما فعلته معه، وهو مَن كان معها زوجًا نَدُر أن يوجد مثله، كم دَلَّلها وكم تحمل منها وكم صبر عليها.

وفي أحد الأيام حضر أخوه جالبًا معه أوراق مدرسة الأولاد بعد استخراجها من السعودية حتى يدخلوا المدارس المصرية، تحدثت إليه وقد غلبتها دموعها وخانها ذكاؤها، واختلَّ توازن ثقتها بنفسها، ثقل عليها أن تخبره بأن أخاه لا يريدها، فإذا بها تحاول أن تبدو قوية فقالت له: «على أخيك أن يكتبَ شقة من بيت القاهرة باسمي لأعيش بها أنا وأبناؤه».

فإذا به يجيبها بثبات وتعالٍ كغني يتفضل على فقير بصدقة، متبعًا إياها بالمن والأذى: «لا أعرف إن كان سيوافق على أمرٍ كهذا أم لا، ولكني سأبلغه بطلبك، كل ما أعرفه أنه سيتزوج، سيتزوج ولكنه سيبقيكِ على ذمته، فلا تقلقي، فقد ردكِ إليه».

- ما لك تتحدث هكذا وكأنه لشرف عظيم أن أكونَ على ذمة أخيك حتى بعد زواجه؟ ثم من أخبرك أنني أريد أن أنال هذا الشرف العظيم؟ وكيف يعيدني إليه دون أن يسأل عن رأيي أأوافق أم لا؟ تبًّا له ولك ولعائلتكم كلها!

انتفض من مكانه وذهب غاضبًا ليكون أول معين لأخيه على الزواج، وكلما حاولت الأطراف إصلاح ذات البين، ووجدت من علي اللين والتراجع، انتفض أخوه في بأسٍ وعنادٍ هادمًا ما اتفقوا عليه، لا يراعي في أبناء أخيه إلًّا ولا ذمة، فما رآهم من أحدٍ وعلم بما هم مُقبلون عليه إلا وبكى وإن كان غريبًا وليس عمًّا مثله، ولم تظهر أمه في الصورة وهي الجدة، فربما لم تنطبق عليها مقولة أعز الولد ولد الولد.

قد كان علي في أفضل حالاته يسرًا، ولكنه رفض كتابة الشقة باسمها، أغضب هذا الطلب أخوها، قال لها إن كان لك أن تمتلكَ شيئًا فليكن من مال أبيكِ وليس من علي، شكرت لأبيها حُسْن صنيعه بأن تركَ لهم ما يعينهم على نكبات

الدنيا، ترحَّمت عليه بدموع حارة، أحسَّت أنه ما زال السند حتى بعد موته.

أبدى علي استعداده لدفع مصاريف المدرسة، رغم أنَّه لم يُنفق عليهم شيئًا منذ نزولهم من السعودية، ولم يُعْطِهم أيَّ مالٍ وقت النزول، جاراها أخوها في الأمر مؤقتًا حتى تتضح الصورة كاملة.

قدمت منى لأبنائها في مدرسة خاصة بمدينة تبعد عن قريتها بما يتجاوز العشرين كيلومترًا بعد أن رفض كتابه شقة القاهرة باسمها، وبعد أن رفض أخوها أن تقيم وحدها من غير رجل، الأمر الذي أثار شجونها وإحساسها بأنها لا تمتلك شيئًا بعد سنوات من الغربة كانت هي الشريكة فيها، كيف تخرج منها صفر اليدين! أهكذا هي المرأة تزرع ولا تحصد!

أدركت منى أنه كان عليها أن تصرَّ على العمل لتكون لها ذمتها المالية الخاصة، حتى إذا أتى عليها هذا اليوم لم يحتوِها هذا الشعور بأنها تقف في مهبِّ الريح دون مال تستند عليه لولا ما تركه لها أبوها.

أدركت منى الآن كم من النساء يكملن حياتهن مع أزواج يسلبنهن السعادة، بل ويسقينهن مرَّ الكأس لأنهن فقراء لم يرثن مالًا، وليس لهن من عمل يتكسبن منه.

كانت منى تمتلك بعض المال يأتيها من إيجار النصف فدان الذي ورثته عن أبيها، فاتفقت مع أمها أن تساهمَ بألف جنيه شهريًّا، وأعطته لها حتى تشعرها بأنها في كنفها ولا يرى الآخرون أن أحدًا ينفق سوى أمها.

ولما وجدت نفسها في شحٍّ من المال فكَّرت فيما تملك من ذهب، فإذا بها تخلع خاتمَ الخطبة، الذي كان يأخذ شكلَ قلبين كبيرين يتربع على عرشهما قلب صغير، خلعته وهي تتذكر ذكرياتها معه.

خلعت كذلك الدبلة والمحبس اللَّذين كانا علامة الارتباط بينهما، ورغم امتلاكها لغيرهم، فإنها رأت أنهم حلقة الوصل بينهما، فرأت في بيعهما فكًّا لما بينهما من ميثاق غليظ، حاول أخوها أن يُثْنيها عن هذا القرار لدرجة أنه عرض عليها شراءهما منها، ولكنها أبت إلا الخلاص منهما، وبالفعل ذهبت إلى الصائغ وباعتهما وكأنها تتخلص من قيد أحكم على أصابعها لسنوات.

رأت الصائغ وهو يعرِّضهم إلى النار ليتغير لونهما، وكأنه يحرق ماضيها مع علي، عادت، وكلما وقعت عيناها على يدها الخالية من الدبلة والمحبس والخاتم استغربتها كمن خلع ضرسًا فيتحسس لسانه مكانه شاعرًا بفراغ منه، فهي لم تعتد رؤيتها كذلك منذ سنوات، تذكرت منى: «هل كان قيدًا وزال أم كان حصنًا يدرأ عني همهمات البشر» فتقول لنفسها: «بل كان قيدًا وتحررت منه أخيرًا، وأما عن همهمات الناس فأنا لها».

وفي أثناء محاولات الصلح التي كانت تتم دون علمها بعد ما دار بينها وبين أخيه، التي أخبرت أخاها وأعمامها قبل وقوعها بألَّا يحاولوا لأنها لا تريده، ولن تكمل معه طريقًا، وأنه لو أخبرهم بأنه يريد الرجوع فهي لن تقبل ذلك ولن يتم، فإن كان قد ردها إلى عصمته دون طلب رضاها فستسعى إلى الطلاق والخلاص منه حتى لو اضطرت إلى خلعه.

كانت تعاني مجتمعًا لا يؤمن بوجود امرأة تأخذ قرارًا كهذا، وأن الرجل هو صاحب الحل والعقد في هذا الأمر، وأنه إن وقع طلاق فلأنه لا يريدها، أما عنها فتتمنى الرجوع، حاولت إفهامهم ذلك ولكنهم كانوا يعتبرونه مجرد كبرياء، ومحاولة منها لإظهار أنها ليست مهتمة بالرجوع إليه.

ولما استيأس أخوها من رَأْبِ الصدع ومع إصرار منى على الطلاق فقد أخبره أخوها بما تريده، رفض علي تطليقها وأخبر أخاها بأنه يريد الصلح، وحدَّد ميعادًا إلى زيارتهم، انتظره أخوها فما أتى، اتصل علي به ليعتذر عن عدم

حضوره محددًا ميعادًا آخر إلى الزيارة، فيقبل أخوها ليأتي الميعاد وما يأتي هو، ولم يمر يومان بعدها حتى دقَّ جرس الباب معلنًا عما توقعته منى:

«لم تحن الفرصة بعد لأبكي، ففقرات الحفل متتابعة، ولا بُدَّ من الابتسام بوجه الجمهور».

الزوجة القديمة

فتحت منى الباب لتجد ساعي البريد يسألها عن منى أحمد سليمان، فتجيبه بأنها هي، يسلمها مظروفًا ويطلب توقيعها بالاستلام فتوقع، ينصرف هو ويدق قلبها من هذا الموقف الذي لم تمر به من قبل، تفتح المظروف لتجده من مأذون القرية المجاورة لقريتها يخبرها فيه بزواج زوجها من فلانة وأنه وجب عليه إعلامها بذلك.

تلقت منى الخبر بكلِّ هدوءٍ، جال بخاطرها ذلك المشهد الذي يتكرر كثيرًا بالأفلام المصرية الذي تتسلم فيه المرأة رسالة على يد محضر تقرأ فيه خبر زواج زوجها من أخرى، وكيف أنها ترقع بالصوت من هول الصدمة وفجاجة الخبر.

لم تفعل منى ذلك، نعم لم تفعل ذلك لأنها تتوقعه وتنتظر حدوثه، هذا ما كان يلوح به دائمًا، هذا هو ما هُدم بيتهما لبنائه، هذه هي الخطوة التي كان لا بُدَّ من أن يخطوها علَّه يستريح، غير أنه قد وقع في قلبها أن المسمار الأخير قد دقَّ في نعش علاقتهما.

ما فاجأها هو أنه تزوج من مصرية، ومن قرية مجاورة لقريتها، أين أُسطواناته المشروخة التي لطالما أسمعها إيَّاها بأنه لن يتزوج من مصرية!

أدخلت الرسالة إلى عقر دارها، سألتها أمها التي كانت تجلس في مدخل البيت مع زوجة أخيها عن ماهية الأمر فأجابت بأنَّ لا شيء، دخلت غرفة النوم، وضعت الرسالة في حقيبتها.

عادت لهما وكأن شيئًا لم يكن، غير أنها تحولت من حالة الشك فيما هو قادم إلى يقين ما بعده يقين، لم يعد هناك مجالٌ إلى الرجوع، لقد قطع الطريق ولم يعد هناك جسر للعبور.

ولما اختلت بنفسها غلى دمها ليس لزواجه، بل لأنه أصرَّ على إعادتها إلى عصمته ليتزوج عليها، لمكره ولؤمه وخداعه لأخيها بأنه آتٍ إلى الصلح، بينما كان يسعى في طريق زواجه، كانت كلُّ أفعاله تشي بمعدنه فما يزيدها منه إلا نفورًا.

لقد أخبرته منى آلاف المرات أنه بإمكانه الزواج من أربع، ولكنها لن تكون يومًا واحدة منهن، وإن كانا قد افترقا ليحقق حلمه، ولم يثنه عن قراره تدخلات أهليهما، فلماذا ردَّها إليه إذن قبل زواجه، نعم لقد أراد كسر أنفها، أرادها أن تحمل لقبَ الزوجة الضُّرَّة، الزوجة الأولى، الزوجة القديمة بعد أن أصبح هناك أخرى جديدة وهو زوج الاثنتين.

لقد لطمها هي وأهلها لطمة غادر لئيم، فما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، ولكنها تذكرت أنه بيدها الحل النهائي، إن أبى تطليقها فأمامها الخلع، ذلك الحلُّ السحري الذي سيخلصها منه بلا رجعة، قررت ألا تطلب منه الطلاق من باب ألَّا تطلب منه أيَّ شيءٍ، لقد زهدته كزهد الصوفي، ستخلعه كما يخلع الصوفي النعم والحرير، ويرتدي الخشن من الثياب بكامل إرادته.

علم الجميع، تبخر لديهم أي عذر قد التمسوه له، اتضحت الصورة بعد تلك الطعنة الغائرة لهم، نعم لقد كان يسرح بهم حتى أتمَّ زواجه، لم يتوقعوا أن يُوضعوا في مثل هذا الموقف، منى زوجة جميلة مميزة يتمناها أيَّ رجلٍ، من عائلة لم تتعرض لمثل هذا الكسر في فروعها، ثم عن خمسة أبناء، كيف هانوا عليه وعلى مَن هو منهم، وقد بكى على حالهم الغريب قبل القريب.

غلى الدم في عروق الجميع، رأوا أنه قد آن الأوان لتوضع النقط فوق الحروف، على كلٍّ حمل حمله، لن يحملَ أحدٌ حملَ أحدٍ، لن تتحمل منى ذات الثلاثين عامًا حملًا تنوء منه الجبال لتمضي بقية عمرها وهي ما زالت صغيرة بلا زواج ليعيش هو مع زوجة وكأنه ابن العشرين الذي لم ينجب بعد، لا بُدَّ من أن يفهم حقيقة القصة، هؤلاء الأولاد مسؤولون منه هو وليس من منى.

إن كنت لم تعبأ بأبنائك الذين يحملون اسمك وتزوجت وأنت تظن أنك نازل عند هذه المحطة لتتركها تتكفل ببقية الرحلة، فعلينا أن نخبرك بأنها من سينزل وليس أنت، ستكمل رحلتك مع أولادك وزوجتك الجديدة ولتبحث هي عن رحلةٍ أخرى أكثر أمانًا بعد ما أصابها من وعثاء رحلتك وكآبة عشرتك.

«ما لهذا العالم يسلبني نفسي ثم يغدو فضفاضًا لا يحتويني حدَّ التيه!».

طعنة القريب

الجدة أم منى، ذات القلب الدَّامي، الدم الحامي والأقرب إلى العصبية والتسرع منها إلى التعقل والأناة، المفجوعة في ابنتها، ذات رحلة العمر الطويلة الملآنة بالشقاء والكفاح من أجل أبنائها، المحتضنة لأبنائه المتكفلة بنفقاتهم لعل الماء يعود ليجري ليرتوي الجميع.

نزل عليها الخبر كالصاعقة التي أخلَّت بتوازن قلبها، الطَّامة الكبرى التي وضعتها بين نارين لا جنة معهما، نار ابنتها التي كُسر خاطرها ووجب عليها الثأر لها، ونار أبناء علي الذين وجب عليها رميهم له ثأرًا لابنتها وهي تعلم علم اليقين أنهم فلذة كبد ابنتها وما يمسهم يلدغها، غير أنَّ غضبها صارعها فغلبها، أخذت الأبناء بذنب أبيهم، لم تعد تطيق بقاءهم ببيتها.

وهنا، وكأنَّ ما أصاب منى لم يكن كافيًا، يأتيها بركان قسوة أمها على أبنائها، لم تعد تراهم إلا أبناء علي الذي لطَّخ ثوب حسن ظنهم به بسوء فعلته، صارت تعد عليهم لقيماتهم التي يأكلونها، تشتكي إلى أبنائها من كثرة ما تنفق عليهم، تصرخ بوجوههم لما يستحق وما لا يستحق من أسباب، وهم الذين لا يد لهم ولا حيلة بفعلة أبيهم.

وكلما همَّت أمها بالصراخ في وجوههم أصاب منى ما يصيب من انشقت الأرض من تحته إثر زلزال فيهوي إلى أسفل السافلين، كانت تأخذ أمها من يدها عنوة إلى الغرفة بعيدًا عن أبنائها لتترجاها بغضب مرير وهي تجز على أسنانها وتنهمر دموعها بلا توقف: «ما هذا الذي تفعلينه بهم؟ لمَ تأخذينهم بفعلة أبيهم! إنَّهم لا يفقهون شيئًا مما جرى ويجري ولا حيلة لهم به، لا تشوهي صورتك في أعينهم، هم أبنائي الذين لن أسمح لأحد بكسرهم حتى أنتِ».

تسكت الأم لتتفكر بما فعلته وهي تنظر إلى وجه ابنتها المكدور، لكنها كالثور المذبوح، يضرب بقرونه في أيِّ شيء انتقامًا، ومع تكرار المشهد -وكذلك كلما حضر أحد إخوتها اختلت به أمها ليتحدثوا عن منى وأبنائها- ترى منى نفسها وأبناؤها منبوذين، أبناؤها الذين لم يُهانوا من قبل وبهم براءة الأطفال التي لا تقف طويلًا عند الحزن، بل ما تكاد تمر دقائق حتى يبحثوا عن متعة جديدة من متع الحياة التي لم يروا منها بعد وجهها العابس.

وبعد أن كانت الدعوة إلى التنازل عن الأبناء لأبيهم سرية، فقد أصبحت الآن جهرية، فيجتمع الأم والإخوة والأعمام في محاولة لإقناع منى متسائلين: «كيف ستتعاملين مع الحياة في ظلِّ غياب الأب وحضور خمسة أبناء؟ وماذا عن المدرسة؟ وعن إذا مرض أحدهم؟ وعن إذا عضَّته زوجته وقسا قلبه على أبنائه ولم يُنفق عليهم؟ من أين ستأتين بالمال؟ إن حصلتِ على وظيفة فكم ستربحين منها؟ وهل سيكفي هذا للإنفاق على أبنائك الذين تعودوا على مستوى معيشي مرفَّه؟».

فتجيب بكلِّ قوة: «سينفق عليهم أبوهم، وإن لم ينفق فسأعمل وأنفق عليهم، لن أكفَّ عن المحاولة حتى لا أتخلى عن أبنائي وإلا صرت كأبيهم، ما ذنب الأبناء حتى أتركهم! سيرزقني الله برزقهم، أما إذا ضاقت بي الأرض بما رَحُبت ولم أجد ما أنفقه عليهم فسيكون لي العذرُ حين ذاك في أن أتخلَّى عنهم لأبيهم، ما أدراكم أن الله لا يدبر لي أمري، وأنه سيوسع أرزاقنا وسيعوضنا عنه إن تخلى هو عنا!».

يصمتون تعاطفًا وليس اقتناعًا في محاولة لإعطائها مزيدًا من الوقت، لتتفكر في الأمر حتى إذا أزفت الآزفة، ولم تقتنع أجبروها على ذلك، وقد كان ما ظنوا، كانت منى بعد كلِّ نقاش تختلي بنفسها، يزور النومُ الجميع إلَّا هي، خاصمها، لملم أحلامه ورحل، فيسقط أمرها في كفتيَّ ميزان، كفة العقل والمنطق والثأر من علي، وكفة القلب والأمومة.

ترى أن كفةَ العقلِ والمنطق تتفق مع رأي أهلها، فتحدث نفسها: «محقُّون هم، بأيِّ منطق تتم هذه القسمة! أن أتحمَّل أنا هذه المسؤولية وحدي في هذه السن، ويذهب هو ليتزوج ويبدأ من جديد وكأنه ابن العشرين، تلك إذن قسمة ضيزى!».

«وتتقاذَفُني الآهات ككرة، تلهو وتضحك هي، ولا أعرف لي وِجْهَة».

24

نِصاب الأمور

وترحل ليلة وتأتي أخرى ولا يتوقف حديث منى إلى نفسها: «يجب أن يدرك موقعه الحقيقي بالحياة الآن، لا بُدَّ من ذلك، هو أب لخمسة أبناء، هو المسؤول عنهم شرعًا وقانونًا، وإن كان في الأمر شيءٌ من الغيظ ومحاولة الثأر من علي، إلا أن هذا لم يكن كلَّ شيءٍ، لا بُدَّ أن يراني على حقيقتي، أنا لست تلك المرأة التي يزهدها زوجها خِلقَةً أو خُلُقًا.

وهل أتزوج أنا الأخرى! نعم تتزوجين، بل يجب أن تتزوجي، أنتِ الآن في الثلاثين وربما تطول بكِ رحلتكِ مع الأيام لتبلغي الأربعين أو الخمسين، أو الستين أو السبعين، أو الثمانين أو التسعين أو...، عشرة أو عشرون، أو ثلاثون أو أربعون، أو خمسون أو ستون عامًا أو يزيد، كيف تمرين من بينهم وحيدة بلا زوج حبيب يعوضك عن فعلة هذا النَّاكر لكلِّ ما كان منك من حبٍّ وإخلاصٍ وتضحياتٍ!

إنَّ مَن مات عنها زوجها وأخذت العهد على نفسها بألَّا تتزوج من بعده لديها ذكريات تربطها به، وغياب منه ليس بإرادته، أما أنتِ فكيف تُقنعين نفسك بذلك!

أنت بحاجةٍ إلى قلبٍ يحتويكِ، لرفيقٍ تميلين عليه حين ترهقك الحياة، لا تنكري ذلك، نعم، إن ما فعله جعلك ترغبين في أن تدرئي عنك ذلك الصنف من المخلوقات.. الرجال، ولكن الله خلق صنفين، ذكر وأنثى، وكتب عليهما اجتماعهما وميل كلٍّ منهما إلى شقه الآخر لتكتمل الصورة وتهدأ النفوس وتسكن.

نعم، هناك نساء قرَّرن عدم الزواج ثانية، ولكن قلوبهن لم تمت، ظلت تنبض وتطلب الأُنس بالآخر، فإن مرَّ بطريقها أحدهم تخيلته معجبًا أو محبًّا، ثم خاطبًا وزوجًا حبيبًا مخلصًا.

إيَّاك والظن أنَّ قلبَ المرأة يموت أبدًا، وإن قدَّمت ألفَ دليلٍ ودليلٍ على موته، ثم إنها إن رأت زوجين معًا يتصدَّع فؤادُها متسائلًا لمَ ليس لي شريك كما لها؟ لمَ كُتبت عليَّ الوحدة وأنا ممتلئة بالمشاعر عن آخري؟ بأيِّ سوقٍ أبيعها؟

لقد وَجَد مَن تهتم لشأنه لأنه ذهب إليها وحيدًا بلا أبناء، حاملًا معه المال هدية، أما أنتِ فمن ذا الذي عساه يهتم لشأنكِ ومعكِ أبناؤكِ الخمسة! هو درس لا بُدَّ من أن يتعلمه ولو لبعض الوقت، لن تتخلي عنهم إلى الأبد، فقط حتى تُوضَع الأمور في نصابها ويدرك أنه الحلقة الأضعف وليس أنتِ، وأنه سيتحمل مسؤولية الأبناء الخمسة مع زوجته الجديدة التي ظنته هي الأخرى لوزة مقشرة، وأنكِ الحلقة الأقوى عندما تتزوجين من غيره، فإذا بلسان حالها يقول: اللهم كما أجريت أنهار الحب بداخلنا، فارزقنا بمن نرويهم بها، فليس هناك أقسى من أن نبني على مشاعرنا سدودًا».

إنَّ العقل يزن الأمور ويضعها في نصابها، ولكنه لا يراعي أحدًا في قسمته فيقسو لأبعد الحدود، فلكي يوازن الكفتين لا يتردد في نزع فلذات كبد أم ليضعها في كفة الأب ليحقق العدل.

وما إن يصل عقلها إلى هذه المأساة حتى لا يتمالك قلبها نفسه، يهيج باكيًا صارخًا كثورٍ طُعِن، حاملًا معه صكَّ الأمومة سلاحًا، هو ليس في لباقة العقل، بل يسكب المشاعر سكبًا كما يسكب الرسَّام ألوانه ليرسم لها لوحاتٍ لأبنائها وهم بعيدون عنها، مع زوجة أبيهم: «أتتركين أبناءك لزوجة أبيهم! وآهٍ من زوجة الأب! ثم آهٍ وآهٍ من زوجة الأب! إن كانت تقيَّة تكون عادلة فاصلة قاطعة مع أطفال غذاؤهم الحب والحنان والعطف واللين والعفو والتغاضي، وإن لم تكن تقية تكن سكينًا باردًا على رقاب أبنائك، هذا لو كان طفلًا واحدًا، فما بالنا لو كانوا خمسة منهم مَن هو رضيع!

وماذا عنك من بعدهم، ماذا لو لم تموتي حزنًا؟! فالموت هو طوق النجاة الوحيد لمن هم في مثل حالك، لا تستجيبي لتلك الدعوات التي ينادي بها أهلك وعقلك، إنَّها هلاكُك، إن كونك أمًّا يُعدُّ وشمًا قد طُبِع عليكِ منذ أن كنتِ ببطن أمك، وكلما مرَّ يومٌ زاد بريقه وهم في حضنك، ولا تظني أن بعدهم عنك سيضعفه بل سيضعفك أنتِ، لن تجدي في الحياة شيئًا يستحق نظرة منكِ، هم كل الحياة، اليوم الذي لن تسمع فيه أذنك صوتهم خبل وجنون».

فيردُّ عقلها مدافعًا عن رأيه: «ألا تتعبين في رعايتهم! استحمامهم وتصفيف شعرهم وغسل ملابسهم واستذكار دروسهم والقيام بكلِّ شؤونهم، إنهم الوهن والضعف».

فيردُّ القلب مقاطعًا العقل: «كم من عقل أودى بصاحبه في الظلمات، أنا لا أبالغ، ربما لست قادرًا على الإقناع، أعلم ذلك، ولكني أقسم لك إنَّني على حقٍّ».

ويأتي الفجر مع استمرار ما بينها وبين النوم مَن هَجَر، وما بين عقلها وقلبها من جدال، لم تَذُق للنوم طعمًا، استيقظت أمها لتجدها على هذه الحالة، وفي لحظات السكون هذه يلتقي قلبيهما في الوجع نفسه، إنها قطعة منها، تقومان إلى صلاة الفجر فتدعو أمها على علي وأمه أن يصيبهما ما أصاب ابنتها، فتطلب منها منى ألَّا تدعو على أحد، وأن تدع الأمر إلى الله.

ولَّما حضر أخوها طلبت منه أن يتواصل مع علي طالبًا منه تطليقها، وإن وصل بهم التفكير في الرفض بسبب (القايمة) فليعلمه أنهم على استعداد إلى التنازل عن كلِّ حقوقها، كانت ترى غليان الدم في عروق أخيها رغم هدوئه، وبالفعل اتصل به لترد أمه قائلة: «لقد سافر وسيعود بعد أسبوع».

لقد سافر إلى الإسكندرية مع العروس، نعم ترك القدر يغلي على النار وذهب إلى قضاء أسبوع العسل مع عروسه، أبلغ أخوها أم علي بلهجة شديدة: «أبلغيه أننا نريد الخلاص، وأننا على استعداد للتنازل عن جميع حقوقها إن كان ذلك ما يمنعه من تطليقها».

فأجابته بطريقة من عُرف عنهم العقل والحكمة: «سأبلغه بما قلت، وكما دخلنا بالمعروف سنخرج بالمعروف».

فأجابها ساخرًا: «عن أيِّ معروفٍ تتحدثين!».

وما إن عرفت أم منى بأن علي سافر لقضاء أسبوع العسل مع زوجته الجديدة حتى شتَّ عقلها وصاحت كقنبلة قد انفجرت: «ذهب إلى قضاء شهر العسل تاركًا لنا أولاده لنرعاهم ونُنفقُ عليهم! خذوهم واذهبوا بهم إلى أمه لترعاهم حتى يعود ليتسلمهم هو وعروسه».

فأجابها أخوها: «هذا القرار يعود لمنى، هذا أمرها، إن أرادت التنازل عنهم أو الاحتفاظ بهم فلن نعارضها، ولكن ما لا أرضى به هو أن تعيش بهم وحدها في تلك المدينة، لتأخذ شقة في المنزل وتستقل بحياتها بهم إن أرادت، أمَّا أن تعيشَ بعيدًا عنَّا بلا رجل فهذا ما لا أرضى به ولن يكون».

بدأت أطياف من الأنباء تأتي إليهم عن عودته وعروسه، وعن أنهما يقيمان في شقتها، وكم هي العروس جميلة، إنها تقول للقمر قُمْ لتجلس مكانه، وكم هي سعيدة بعريسها وتقول لمن يراها: «حسبي الله ونعم الوكيل في منى أنها فرَّطت في رجل كعلي» تحكي إلى أهل قريتها كم عنده من مال، وأنَّ الله عوضها به خيرًا بعد زواجها الأول، وما هي إلا أيام حتى أرسل في طلب أبنائه لرؤيتهم.

«ورفيقًا أميلُ عليه حين ترهقني الحياة».



وَهْنٌ على وَهْنٍ

وعن الأبناء لا ينتهي الحديث، في عالم آخر يعيشون، لا يدركون شيئًا مما يحدث من أكبرهم ذي العشر سنوات إلى أصغرهم ذات العام ونصف، لم تحدثهم أمهم في شيءٍ مما يجري، لم تثُر يومًا في وجوههم، لاعنة أباهم على ما فعل، كانت لا تدري كيف تخبرهم بما جرى من زواج أبيهم، وما سيجري من تبعاتٍ لزواجه، ولكنها كانت على يقين أن هذا ليس هو الوقت المناسب لإخبارهم، فما زالت الأيام تُخبِّئ الكثير، ولا يدري أحدٌ أيَّ نهايةٍ لهذه القصة ستكتب لهم.

أخذت منى تُحدِّثُ نفسها في حذرٍ وخوفٍ: «لماذا يريدهم؟ ليعرِّفهم على زوجته الجديدة أم يريد أخذهم مني؟ وهل أقبل أم أرفض؟».

أما عن الأبناء ففرحون بذهابهم إلى أبيهم كجميع الأطفال، بدأ عقلها يشت، أحسَّت أن الأمور بدأت تخرج عن نطاق سيطرتها، أخذت تسأل نفسها كتائهٍ في صحراء واسعة: «هل أُبْقي عليهم ليعيشوا في القرية ويُحرموا من مدارسَ تُجَارِي ولو القليل من مستوى مدارسهم في السعودية؟ وما هذا العمل الذي يمكنني القيام به لأنفق عليهم فأكفي احتياجاتهم؟ إن أخذهم أبوهم فسيعودون لبيئتهم التي تعوَّدوا عليها، فهل أتنازل عنهم؟».

أعدَّت لهم بعضًا من ملابسهم، ذهبوا إلى أبيهم فرحين تاركين البيت ليعيش شيئًا من الهدوء وأمهم لتعيش شيئًا من التعود على العيش من دونهم، كانت في أواخر شهرها الثامن من الحمل، تعيش وهنًا على وهن؛ وهن الجسد ووهن الروح.

ولَّما مرت أيام على رحيلهم وجرَّبت منى العيش من دونهم، قالت في محاولة لإقناع نفسها: «نعم أنا الآن أفضل، وأمي الآن أفضل، إن روحي زاهقة ولكنني أفضل، نعم، أمي أفضل، نعم سأتركهم له، أنا الآن أفضل، نعم، أنا أفضل، لا جدال مع أمي، لا كلمات سامة لأبنائي، لا إنفاق عليهم، لا غسيل لملابسهم، لا أشياء مبعثرة هنا وهناك، أستطيع الآن أن أَنعمَ بشيءٍ من الراحة، نعم أنا أفضل الآن، وأمي أفضل، كلُّ شيءٍ أفضل، لكن لماذا تمر الليالي والأيام ولا أنام، لماذا لا أنام وكلُّ شيءٍ أفضل؟».

لم تَعد تُعِدُّ الطعامَ كما كانت تفعل في وجودهم، تعده الآن زوجة أخيها، تناديها أمها لتأكل، لا تطيق مجرد النظر إلى أيٍّ من مُتع الدنيا، تُلحُّ أمها، ولتغلق منى بابَ الكلام تأكل في هدوء وهي تشعر برغبة في التقيؤ.

أيام ويعود الأبناء محملين بالملابس المتسخة لتغسلها منى، تثور أمها وتمور قائلة: «أخُدَّامهم نحن!»، الأبناء يحكون عن طنط التي يأكلون معها المثلجات وكم هي لطيفة ومتدينة، فتتمنى منى أن تكون زوجة أبيهم كما وصفوها حتى تحنو عليهم عندما ينتقلون إلى العيش في رحابها إن تنازلت هي عنهم.

ثم عن جدتهم لأبيهم التي تطلب منهم أن ينادوا زوجة أبيهم بماما، وعن ابنتها ضحى التي حممتها زوجة عمها ليصبح جسدها متاحًا ليراه القريب والغريب، وعن الصغيرة التي تجلس بالشارع على أبواب البيوت بعد ما أصبحت بلا أم ترعاها.

أدمى قلبها أن جسدَ ابنتها أصبح متاحًا ليراه ويلمسه غيرها فراحت تحدث نفسها: «أصبحتِ بلا أم بُنيتي كيتيمة يحممها من يتفضَّل عليها بذلك»، وعن ماجد الذي يغلب عليه الصمت والشرود، وعن صغيرتها التي فقدت الأم لتكتب

عليها حياة من يتم، نام الأبناء إلا فريد الذي جلس بجوار أمه تبدو عليه أمارات الدهشة والمفاجأة، فقد تفاجأ بوجود امرأة جديدة مع أبيه يقدمها له كزوجته، حاولت منى نزعَ فتيل دهشته فقالت: «كيف الأحوال عند بابا؟».

أجابها وعيناه تنظران بعيدًا: «لَمَّا وصلنا هناك وجدنا امرأة مع بابا، نظرت إلى بابا متسائلًا فقدمها إليَّ بأنها طنط رجاء زوجته».

أجابته منى وقد احتواها الحزن: «نعم، لقد تزوَّج بابا بامرأة غيري».

– نسيت أن أقول لكِ بإنني عندما ناديتها بطنط طلبت مني جدتي فتحية أن أناديها بماما.

قالت له منى وهي تلملم ما تكسَّر منها وكاد يغلبها لسانها في الدعاء على حماتها بأن تفقدَ كلَّ أبنائها حتى لا تجد من يناديها بأمي: «كم من الأمهات لكلٍّ واحد منا، فريد؟».

– واحدة.

– ومَن هي أمك؟

– أنتِ.

– إذن لا تعطِ هذا اللقب إلا لي ما دمت أنا على قيد الحياة، نادها بطنط.

– نعم أنا لم أستطع أن أناديها به، أناديها بطنط، ولكن لماذا تزوجها، ماما؟!

أجابته وهي ترى نفسها تمثالًا مقدسًا بأعين أبنائها وقد هدمه علي الآن بفعلته: «ربما هي أفضل مني».

– لا ليست أفضل منكِ، إنها أقصر منكِ ماما، وأكثر منكِ امتلاء، حتى وجهها بدا عاديًّا، عينان سوداوان بينما عيناكِ زرقاوان، غير أنها تضحك كثيرًا وتأكل الكثير من المثلجات.

– ربما هي كذلك في عينَيَّ بابا.

سرح فريد في جواب أمه حتى أخذه النوم، وبقيت أبواب عينَيَّ منى مفتحة على مصراعيها، أغلقت عليهم غرفة النوم، وخرجت لأمها بالصالة لتجدها قد عادت إلى ثورتها قائلة: «كيف يدخل بها بشقتك وعلى فراشك!».

فتجيبها منى بنفاد صبر: «ما هذا الذي تفكرين به أمي! إنه جبروت منهم، أعلم ذلك، ولكنه لا يعنيني في شيء، أنا أخسر أبنائي وأنت تتحدثين عن شقة وفراش!».

تتساءل أمها والنار تغلي بصدرها: «لماذا أعادوهم؟ ولماذا لم تغسل لهم زوجة أبيهم أو جدتهم ملابسهم؟».

فتجيبها منى وهي تخرج زفيرها في استسلام: «هانت أمي، الأمر كله لا يتعدى الشهر حتى يسافر أبوهم ويأخذهم معه، تحمَّليهم هذا الشهر وعامليهم بما يليق حتى يرحلوا وهم يحملون ذكرى حلوة عن جدتهم، هانت أمي تماسكي».

وتمرُّ أيام عصيبة وإذ بعلي يتصل بأخيها ليخبره عن رغبته في لقاء منى والتحدث إليها.

«إذا اقتحمت الدموع أسوار عينيك يومًا وقد جَرَّدَتْكَ الأحزان من سلاحك، فاستسلم لها ولكن لليلة واحدة فقط، وإلا اعتبرت مقلتيك إحدى مستعمراتها، ثم احمل سلاح الرِّضا وامسحها به مسحًا لترحل عن خديك، وأخبرها أن الضحكات أصحاب الأرض غدًا عائدات».

ثورة المذبوح

وكبنزينٍ مسَّته نار تساءلت منى: «يتحدث إليَّ! عن ماذا! هل أبقى على شيء يتحدث إلى به؟ ما يريد إلا شماتة بي، يريد أن يقولَ لي ها أنا ذا قد تزوجت عليك رغمًا عنك»، خرجت منى عن هدوئها وصمتها اللَّذين طالما تظاهرت بهما، رفضت رفضًا قاطعًا، ولَّما أخبروه برفضها أصرَّ على طلبه، وأنها زوجته ومن حقه التحدث إليها، وأنَّه لن يطلقها قبل أن يلتقيا.

رفضت ثانيةً وهي تتعجب من إصراره، وجرأته التي وصلت حدَّ الوقاحةِ، أصابتها نوبة من البكاء لم تُصِبْهَا من قبل، ينتفض جسدها ويعلو صوتها وكأنَّ هذا اليوم كانَ ميعادُ فتح حصالة تماسكها الذي استمرَّ لما يقارب العام، ومن قبله أعوام وأعوام من التماسك، تندفع منها دموع لا حصر لها، سيل من البكاء لا يتوقف تعلن به رفضها لأيِّ حوارٍ.

ولَّما رأت أمها ما أصابها أخبرت أخاها أنها لن تضغطَ عليها أكثر من ذلك، إنها حامل وفي شهرها التاسع، وحزنها قد يودي بحياتها أو يصيبها بأذى لا قِبَل لهم به، لقد تحملت فوق طاقتها، وكلَّما حاولوا إقناعها قالت: «إنَّ مجرد قبولي الجلوس معه يعدُّ إهانةً كُبرى لي، وبأيِّ عينٍ سيواجهني! يا له من جبروت ولؤم وتَبَجُّح ذلك الذي جعله يُقْدم على طلبه، وهل هنتُ إلى هذه الدرجة حتى إنه يردني إلى عصمته ليتزوج عليَّ ثم أرضى بلقائه!».

أخبرها أخوها أنه يجب عليها قبول ذلك لأنه ما زال بينهما الأبناء: «يجب أن تلتقي به لتتفقي معه على الأقل على كيفية التواصل مع أبنائك بعد سفرهم، لن ينقطعَ الحبلُ المشدود بينكما أبدا»، وكان ما قاله أخوها سببًا مقنعًا هدَّأ من ثورتها.

حضر أعمامها قبل حضوره، أخبروها أنه تحدث إليهم، وأنه آتٍ بوجه غير الذي أتى به من قبل، يبدو عليه الندم على فعلته، حضر هو وعمه، جلس الجميع، دخلت عليهم منى في هدوء، ألقت عليهم السلام وجلست، حيَّاها عمه، حيَّته بأحسن منها، قال مواسيًا وراجيًا: «لا تحزني لما جرى يا ابنتي، سامحيه بنيتي».

قالت وهي لا تفهم ما يرمي إليه: «ماذا تعني أن أسامحه؟ وكيف يكون ذلك؟ كنا قد طلقنا وذهب كلٌّ منَّا إلى حياته، كان لا يَكل ولا يمل من التعبير لي عن رغبته في الزواج حتى كرَّه إليَّ عيشي معه، تركت له كلَّ شيءٍ ورحلت حتى يحقق حلمه، فإذا به يردني إلى عصمته ثم يتزوج، أراد إهانتي فقط، ولكم أخبرته أنه من حقه أن يتزوج أربعًا، ولكني لن أكون يومًا إحداهن، ولكنه -لأنه لئيم- أعادني لعصمته ليتزوج عليَّ، أنا لست ببلهاء حتى أهدم بيت أبنائي، لقد عانيت وصبرت لسنوات وأنا أحاول الإبقاء عليه قائمًا من أجلهم، ولكنه كلما أبديت إمساكًا أبدى هو تسريحًا».

حكت له الكثير مما بدر منه طوال سنواتهما معًا، وما كان من الرجل إلا أن كرَّرَ كلمته: «سامحي بُنيتي».

فقال علي وكأنه يبرئ نفسه أمام عمه: «هل لو كنت قد جئت إليكِ سعيًا إلى الصلح كنت ستقبلين؟».

فأجابت منى: «بلا شك، هل تكون هناك فرصة لأحمي بيتَ أبنائي ولا أفعل؟ ولكنك -بدم بارد- خرَّبت بيتهم، حرمتهم من أمهم وفرضت عليهم زوجةَ أب هي سكين تلمة على رقابهم، أتمنى أن تكون صالحة لتكون رفيقةً

بحالهم، ولكني أعرف زوجة الأب جيدًا، كانت لنا جارة إن أخطأ أحدُ أبناء زوجها في شيء أمسكت برأسه وخبطته في أقرب جدار رغم تدينها».

ثم التفتت إلى عمه وقالت في حزم: «أنا أريد الطلاق، وإن كان ما يمنعه من ذلك حقوقي فسأتنازل عنها جميعًا».

فرد علي: «إن حدث وطلقتك فسأعطيكِ كلَّ حقوقك».

قالت بترفُّع: «لا أريد منك شيئًا، كلُّ ما أريده هو أن أعرف كيف سأتواصل مع أبنائي بعد سفرهم».

فقال محاولًا إبداء رغبته في أخذهم: «مَن ستتركين منهم؟».

قالت بثبات: «جميعهم».

قال وكأن هموم الدنيا قد ألقيت على صدره، ولكنه يحاول التظاهر بأنها ستندم على ذلك مشككًا في أمومتها: «حتى ريم؟».

فباغتته قائلة: «حتى الذي ما زال في بطني».

فبدا كمن صُبَّ فوق رأسه ماءٌ باردٌ، وبعد أن همت بالاستئذان قال: «لا بُدَّ من لقاءٍ آخرَ بيننا».

فقالت بعصبية: «لا تماطل طويلًا».

فقال بثقة من بيده مقاليد الأمور: «من حقي الجلوس معكِ مرة أخرى وأخرى لأنه أنا مَن سيطلق، وليس الطلاق بالأمر الهيِّن».

أجابته بسخرية وحسرة: «الآن أدركت أنه ليس بالأمر الهيِّن! فلكم قلت لي إنَّه أهون الأمور من قبل كلما نبهتك إلى آثاره علينا وعلى أبنائنا، وعمومًا لا داعي لذلك، فقد سطرت بيديك كلمة النهاية لقصتنا».

ولَّما انصرفوا جلست منى مع نفسها تفكر فيما وصلت إليه: «هل أقوى على تنفيذ ما قلت؟ وهل صعوبته في عيشي دون أبنائي أم عيش أبنائي من دوني؟ أتدركين جيدًا أن عيشك من دونهم شجرة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار، نعم هم جذورك، لو تنازلت عنهم فهو أمر مؤقت حتى أتمكَّن من إيجاد مصدرِ رزق أَرْوِهم وأطعمهم به، وهل لديَّ حلٌّ آخر».

شعرت بحنق تجاه مجتمع ظنت نفسها قادرة على مواجهته وها هو الآن يقول لها: «لا أُريكَ إلَّا ما أرى»، مرَّ يومان وأرسلَ في طلبِ الأبناء، الأبناء التائهون الذين يفرحون بذهابهم إلى أبيهم ومن معه، مرَّت أيامٌ عادوا منها فرحين، فالجو هناك به بهجة بيت أُقيم به عُرسٌ على عكس بيت أمها الكئيب الممتلئ عن آخره بالأتراح، تحدث إليهم عن سفرهم معه وأبدوا سعادتهم بذلك، أحبَّت ضحى زوجة أبيها وتعلقت بها، شعرت منى بأن أبناءها في حالة من الاستغناء عنها، هم لا يفهمون شيئًا، ولكن ذلك هوَّن عليها أمر تركهم فهو عليهم هيِّن رغم شعورها بطعم الصبار لعدم تعلقهم بها.

«خلق الله الدنيا لنحيا بها معًا يا آدم فلا تُفْلِت يديَّ فأشقى وتشقى».



الأرض والمجرَّة

تعددت زيارات الأقارب والأصدقاء ينصح بعضهم بالعودة وبعضهم بعدمها، كان من بينهم عمتها التي تزوجت من رجل لا ينجب حتى ضاع شبابها دون ثمار، وكيف أنها نادمة الآن على أنها ضحَّت بأمومتها، نصحتها بالعودة لعلي، وألَّا تترك أبناءها أبدًا، وأن كفَّتها وأبناءها ستظل هي الأرجح بالمقارنة بزوجته الثانية، كانت عمتها هذه كالرجال في صلابتها وعزتها وتقديرها لمكانتهم الاجتماعية بين عائلات القرية، فتعجَّبت منى من موقفها، بل كانت تسخر من كلماتهم قائلة: «أأصير إحدى زوجاته! ويصير هو المتزوج من اثنتين!»، كانت تدرك جيدًا أن هذا الدور لا يليق بها، وأنها لن تلعبه أبدًا تحت أيِّ ظرفٍ.

ثم تأتي أختها الكبرى لتدور بينهما مكالمات هاتفية لساعات وساعات تُدحرج لها فيها فكرة القبول بالعودة بشكلٍ غير مباشرٍ، ككرةٍ لا تدخل المرمى، ولكنها تُربك الحارسَ فيرتمي أرضًا، تؤكد لها في ثنايا الحديث أنها لن تقوى على فراق أبنائها، ولن تقوى على الإبقاء عليهم وسط الأهل، وأن هناك الكثيرات مِمَن هنَّ زوجات لزوج واحد وحياتهن مستقرة، وأن الشرعَ حلَّل ذلك، كانت منى تتلقَّى منها الكلمات بين سخرية وتعجب وتأكيد على رفضها.

إنَّ منى لا تعترض على كلامها بقدر رؤيتها له أنه لا يليق بها أو بعلي، ليست هي المرأة التي ترضى بأن تكون إحدى زوجات رجل، وقد أعطاها الشرع الحق في ذلك، وليس علي بذلك الزوج الذي يفقه مقاصد التعدد، لقد تزوج رغبة في امرأة تطلبه.

إنَّ علي كمعظم رجال هذا الزمان، تجد الواحد منهم لم يعطِ زوجته حقوقها ثم يحدثها عن زواجه الثاني، لا يفهم معنى أن تتزوج بثانية حق الفهم، إن التعدد مسؤولية تنأى عن حملها الجبال، إن زوجةً ثانيةً يعني بيتًا ثانٍ، ونفقات ثانية وأبناء جُددٍ، وعدلٍ في كلِّ شيءٍ ورعاية للأبناء وغيره الكثير، أمَّا رجال اليوم فيظنونه عروسًا جديدةً تشاركه الفراش ولا شيء بعد ذلك، ثم يُقيم ثلاثة أرباع سعادته على الغيرة والمنافسة بين زوجاته على إرضائه والاستئثار به، وأمَّا الربع الأخير، فعلي هجر مَن تسوِّل لها نفسها الخروج على النسق وتهديدها بتطليقها واستبدالها بمن هي أجدر منها بعشرته.

إن التعددَ هو أن تكون قوامًا على أسرتين بدلًا من واحدة، ولا تجد رجلًا أقام التعدد كما أراده الله إلا ونَدِم، وودَّ لو تملَّص منه وعاد خطوات للوراء، حتى يصلَ إلى محطته الأولى عند زوجته الوحيدة، ثم دعكم من كلِّ هذا وتعالوا إلى المجتمع حيث تعيش مَن تزوَّج عليها زوجها، حياة تتجمع على فأر صغير، لدغات سامة لا بُرْء منها، لماذا كلُّ هذه اللدغات في روح المرأة؟

ولو أنَّ المرأة تُفكر بعقلها لكانت هي أول مَن يسعى إلى تزويج زوجها إن أبدى رغبةً في ذلك، ليتها تتركه يعدِّد وتنظر ماذا ترى، عائل لأسرٍ بكلِّ ما تحمله كلمة أسر من أحمال، عادل بين زوجات هو عاجز عن العدل بينهن ولو حرص، وهو يفكر في يوم يأتي فيه وأحد شقيه مائل، غير أن المرأة العربية تربَّت على فكرة كيف تملكين زوجكِ، وعار عليكِ إن نظر إلى غيركِ، فما نظر هنالك إلا لتقصير منكِ أو لعيب بكِ.

وبينما الأبناء في إحدى زياراتهم إلى أبيهم إذ بأكبرهم يعود مسرعًا طالبًا من أمِّه أن تعدَّ حقائبهم، لأنه بقي على سفرهم أيام معدودات، نزلت كلماته عليها كسهم أصاب قلبها، فهمت الآن معنى أن يطيرَ القلب، نعم إنه يطير حقًّا،

ليست بلاغة بل حقيقة، يطير من مكانه ليحلق بعيدًا عنها، بل هي روحها تفارقها وترحل وعليها الإمساك بها قبل خروجها، نعم إنه حقًّا ويقينًا خروج الروح، صغرت كلُّ الأمورِ في عينيها بتلك اللحظة العجيبة، لحظة لم تتخيل أن تعيشها قطُّ.

إنَّ زواجه كان كبيرًا كبر الكرة الأرضية، أمَّا الآن فهو صغير في حجم الكرة الأرضية مقارنةً بالمجموعة الشمسية ومجرتنا وكلِّ المجرات وكلِّ الكون، شعرت أنَّ كلَّ تلك المصائب لا تساوي شيئًا مقابل حرمانها من أبنائها، لا لن تتركهم، مات الشك والتردد.

أخذ ابنها بعضَ الحقائب ورحل، وهي في عالم آخر تعيش فيه بلا أبنائها: «أيتها الأمومة التي لا تموت، إنَّ باقةَ مفاجآتك لا تنتهي، ألهذا الحد أنا لعبة بيديكِ؟ ألا تعبئي بعالمي؟ عاداتي وتقاليدي وأهلي وكرامتي وقلبي وأنوثتي؟ كيف تُنسينني الدنيا بمَن فيها! كيف أحلْتِيني بعصاتك السحرية إلى كائنٍ آخر غير الذي كنته منذ ثوانٍ معدودات! فليرخص كلُّ شيءٍ الآن ولا أتركهم».

حان موعد الزيارة الثانية لعلي، طلبت منى من أخيها أن يخبره بموافقتها على العودة، فهي لم تتحمل مجرد فكرة سفر أبنائها وبعدهم عنها، فما الذي يمكن أن يصيبها لو تركوها حقًّا! دخل عليها علي غرفة النوم، جلس بجوارها على طرف الفراش، احتواها بذراعه ووضع رأسها على صدره، وقال في ندم: «ما هذا الذي فعلناه بأنفسنا بعنادنا!».

فلما رأت الندم في عينيه قالت له باستكانة: «لن أستطيع العيش دون أبنائي، ولن أكون إحدى زوجاتك».

أجابها بكلمات خرجت منه كما تخرج التوبة من فم مذنب لتتلقاها منى بسكينة: «لا تقلقي ولا تفكري كثيرًا بذلك الأمر، دعيه إلى الله».

راح يقبل جبينها بحرارة قبلات تحمل التقدير والاعتذار، أحسَّت بما في طيَّات كلماته من معنى، كان يتكلم وهو ينظر بعيدًا كأنه يرى نهاية هذه الزيجة مقبلة عليه، كان ندمه باديًا عليه لكنه لا يستطيع تطليقها بعد أسبوعين من الزواج ودون سبب.

ولما أحسَّت منى بندمه وأنه متمسك بها طابت نفسها بعض الشيء، وتركت الأمر إلى الله يُسيِّره كيف يشاء، فلم تعد تؤنِّب نفسها على شيءٍ رأت أنها جاهدت ما وَسِعها الجهاد حتى غلبتها أمومتها، شعرت بالرِّضا عن نفسها كمن بذل كلَّ الجهد ولم يقصر بشيء ولكنه لم يبلغ مراده، بقي بداخلها شعورٌ أنَّها الخاسر في معركتها معه.

لقد دفعت هي ضريبة كلَّ ما تلا القصة من تبعات، إن علي لم يدفع أيَّ ثمنٍ على أخطائه وتكفَّلت هي بدفعها، بقي بداخلها شعورها بالظلم الذي ليس بيدها دفعه، أدركت حينها أن دفعه أصبح بيد الله وحده، بيده وحده إعادة حقها لها ودَفْعِ الظُّلْمِ عنها، نعم، رغم صورة المغلوب التي التُقِطت لها فإنَّها كانت تعيش حالة من الرِّضا عن النفس، وانتظارًا لقصاصٍ تأتي به يد الله.

ورغم هول الأحداث فإنَّ شيئًا من السعادة قد غمر منى، سكَبَه شعورها بالأمان في تلك اللحظات التي جمعتها بعلي، إنه الشعور الذي طالما افتقدته منه، إنَّ منى والكثير من النساء لا يطلبن الكثير ليقدمن أعينهن على طبق من ذهب، ما طَلبن إلا الأمان منك أيها الرجل، أَعْطِها الأمان وستشرب معك طوفانًا من مشكلات الحياة وكأنَّها تشرب عسلًا، أما إذا ضننت به فلن تجد منها إلا الرحيل، فإن لم يكن بالجسد فبالروح.

وما هي إلا أيَّامٌ حتى وصلها دخانُ الحريق المشتعل في بيت أمه، أقامت أمه الدنيا ولم تقعدها، قالت له: «لن تعود منى، لقد رفضت الرجوع قبل ذلك، وإن أردت رجوعها فعليك بتطليق الثانية»، ثم الثانية تعترض هي الأخرى على رجوع منى: «لماذا تزوجتني إن كنت تنوي الرجوع إليها؟ أخبرتني أن ما بينكما قد ذهب ولن يعود»، ومع الضغط المستمر عليه لاحظت منى تَغَيُّره، أتَّاها بوجهٍ جديدٍ غير الذي أتى به قبل، بدا عليه أنه يخوض حربًا ضروسًا، ويبدو أن هذه الحرب آتت أكلها فلم يعد متمسكًا بمنى كما كان، بدا مشوشًا مضطربًا في إحدى زياراته لها، جلس قليلًا ثم همَّ واقفًا وقال: «أنتِ السبب فيما جرى».

أجابته بسخرية وانكسار: «نعم، أنا مَن تزوجت!».

ولَّما رأت منه ذلك لم تستطع التفريط في كرامتها أكثر من ذلك فقالت: «لقد قبلت بما لم أتوقع من نفسي أن تقبل به قطُّ، وإذا بك تلومني وتحملني جريرة ما جرى، وأنَّني مَن أوصلنا لما نحن به».

اقتربت منه وأمسكت بذراعه في حسم وقالت: «اسمع يا علي، لقد سرنا شوطًا طويلًا في طريق انفصالنا بدرجة تسمح لكلٍّ منَّا باستكمال الطريق، أنت تزوجت، وأنا سأتزوج، فإن كنتَ في حيرةٍ من أمرك، وتريد الرجوع عن قرار عودتنا فلتقل من الآن».

– لا، لا أريد الرجوع عن قرار عودتنا.

نفى ذلك، ولكنه نَفْيٌ نطقت به شفتاه وعبرت عيناه الزائغتان عن عكسه، ثم رحل دون تحديد ميعاد لأيِّ شيءٍ، كلُّ ما مضى كومة وأيامها هذه كومة آخر، ألهذه الدرجة هانت! أصبحت تتمنى العودة ولا تجدها: «أأنتظر عودته ووفاءه بعهده بفارغ صبر؟ كم أنا رخيصة! هل تفعل بي أمومتي هذا! أتعصرني فلا يتبقى بي قدر أنملة من احترامي لذاتي!»، كانت تضيق بها الغرفة ليلًا وكأنها فرغت من الهواء، وكأنها سجن لا بُدَّ من الهروب منه، فتخرج منها لتجلس في مدخل البيت لتنظر إلى السماء.

رأت في السماء من ماتت منتحرة هربًا من معاناتها مع زوجها فتلتمس لها العذر بل الأعذار، رأت مَن قتلت زوجها فتلتمس لها العذر بل الأعذار، رأت مَن ماتت كمدًا وحزنًا بالسكتة القلبية فتتمنى لو آل حالها إلى ما آلت إليه، مرددة قول السيدة مريم: «يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا»، ما هذه الأيام التي لا تمر! ما هذا النوم الذي لا يأتي! ما هذه الدنيا التي ألفظها! ثم كتبت واصفة حالها:

يا زَهْرَةً قد ذَبُلْت ما عُدْتَ تَعْشَقُ قَطْفي

أصبحتَ عني غريبًا ما عدتَ تَعْرِفُ عُرْفي

تَرَكْتَني في الليالي بالسُّهْدِ ألقى حَتْفي

زرعتَ دربي شوكًا أدُوسُهُ رغمَ أَنْفي

أدميتَ قلبي وروحي ما من دواءٍ لجُرحي.

ثم نزلت من السماء، وألقت نظرة على أهل الأرض، وقالت في صمت:

«إذا كان حزنك يسمح لدموع عينيك أن تنهمر، فاعلم أنك لم تذق طعم الحزن بعد، فهناك حزن كالمُهْل يغلي في القلوب كغَلْي الحميم، يحرق دماء قلبك قبل أن تثمر دموعًا، ويرسب أملاحها ليترك أرضَ قلبك بورًا،

وإذا كنت تنام ودموعك تجري على خدك، فاعلم أنك لم تذق طعم الحزن بعد، فهناك أعين لا تذوق للنوم طعمًا، جفونها أبواب مفتوحة على مصراعيها لاستقبال زائر الفكر الذي يحيل نهارهم ليلًا وليلهم نهارًا جالبًا معه الإغماء هدية.

وإذا جعلك حزنك لا تقرب الطعام والشراب إلا بالقدر الذي يبقيك حيًّا، فاعلم أنك لم تذق طعم الحزن قطُّ، فهناك حزن يجعلك تتقيأ إن وقعت عيناك على متع الدنيا، فمتع الدنيا شفاء العليل وجسدك يريد الرحيل.

ولم تجد ما تناجي به ربها إلا دعاء النبي عندما هاجر إلى الطائف وآذاه أهلها بعد ما فرَّ من اعتداء أهل مكة عليه: «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرَّاحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الَّذي أشرقت له الظُّلمات، وصلح عليه أمر الدُّنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك».

«نقطةُ ضعفٍ سُكِبَت في قلب كلِّ أنثى فملأته قوة تتحدى بها كلَّ شيءٍ حتى نفسها».

خروج الروح

لامت منى نفسها أنها وافقت على العودة، ثم عادت لرشدها وحمدت الله على أنها فعلت ذلك حتى لا تشعر بأنها حادت يومًا عن أيِّ طريقٍ يجمعها بأبنائها، أدركت الآن أنَّ القدر قد كتب عليها فراقهم، وأنه ما عليها إلا التوقيع على ما خطَّ به قلمه إلى حين عودتهم لها بعدما تكون قادرة على إيوائهم والإنفاق عليهم، أدركت أنه قد آن الأوان لتخبر أبناءها بما هو آتٍ من أهوال.

كان فريد جالسًا وحده بغرفة المعيشة، اقتربت منه وهي تحمل كلَّ همومِ الدنيا وقالت: «لقد حُرمت من صحبتكم والسفر معكم، فريد».

فقال لها وهو يتعجب من حاله: «أشعر أنني لستُ طبيعيًّا، أنا لا أستطيع البكاء، أظن أمي أنه لو جاءني أحدهم ليخبرني أن أبي قد مات فسأحزن لدقائق ثم أعود للعب».

اطمأنت منى إلى جوابه وشعرت أنه لن يقف طويلًا عند هذه المشكلة، لأنه ورث عن أبيه نظرته دائمًا إلى الأمام، كان ماجد بالفراش وقد أوشك على النوم، اقتربت منه وأخذت تمرِّرُ كفَّهَا على جسده في إشفاق وقالت: «بذلت ما بوسعي لأسافر معكم، ولكن بابا حرمني من ذلك، كنت أتمنى ألَّا تفارقوني، ولكن لم يعد الأمر بيدي».

بكى ماجد بكاءً حارًّا، فما كان منها إلا أن شاركته البكاء، وهي تواسيه قائلة: «لن يطول ذلك كثيرًا حبيبي، سنعيش معًا قريبًا إن شاء الله».

ظلت منى تطمئنه وتطبطب عليه حتى نام، أما ضحى فقد وجدتها فَرِحة بسفرها مع أبيها وزوجة أبيها، فآثرت عدم التحدث إليها بالأمر وتمنت لو تدوم فرحتها، أمَّا الصغرى ريم التي لا تستطيع لها شرحًا فلها وعليها سالت الدموع وطار الفؤاد ولم يعد، نام الجميع ولم ينم لمنى جفنٌ، قضت ليلتها تتأملهم وكأنها تدَّخِر بعض نظراتها إليهم لتسترجعها حين يغيبون وهي لا تصدق أنهم سيغيبون، تمنَّت في هذه اللحظة لو اكتشفت أن ما يجري كابوسًا وستفيق منه.

أخذوا الحقائب ورحلوا وهم لا يدركون أنه ذهاب بلا عودة، فراق طويل، حرمان من أم، حياة جديدة لا يعلم بها أحد إلا الله، لم تتمكن منى حتى من تقبيلهم سوى الصغرى، فرغت كلُّ مشاعرها عندها علَّها توزعها على إخوتها فيما بعد، لا تدري لِمَ لم تتمسك بتقبيلهم واحتضانهم قبل الوداع، كلُّ ما هنالك أنها رأت الأمر هينًا عليهم فأحبت أن يظل هينًا، ذهبوا خفافًا وبقيت هي مثقلة بما لا تستطيع له حملًا.

الكلُّ من أهلها يبكي إلا أمها تنتحب، تمسك بالأبناء ولا تريد فكاكهم وكأنها تصبُّ كاسات الندم من عينيها على ما كان منها، أو أنها لم تصدق أن ما أرادته أصبح حقيقة أمامها الآن ولكنها ترفضها، أو ربما خوفها مما سيصيب ابنتها بعد رحيلهم.

أما منى فتقف كصنم لامرأة تريد الإمساك بأبنائها ولكنها في النهاية صنم، مرت عليها ساعة بعد رحيلهم وهي في مكانها لا تتحرك والجميع حولها يخاف الاقتراب منها، قامت لتسدل الستار على مأساتها، دخلت غرفة النوم التي تنام بها هي وأمها، ألقت بجسدها على سريرها الذي يحتل أول الغرفة يمينًا، وما هي إلا ساعة حتى تبعتها أمها

لتجدها ساكنة مغمضة العينين، فتدخل هي الأخرى إلى سريرها الذي يقع في نهاية الغرفة يسارًا بعد أن أطفأت المصباح.

قضت منى ليلتها تحدث نفسها وهي تتظاهر بالنوم حتى تنام أمها بينما يندب قلبها ندبًا: «توقفت مَواسِمي عند الخريف، تَسَاقَطَ الأحِبة، جفت المشاعر حتى إن عودًا واحدًا من كبريت الذكريات يُحِيلُها جهنم، تتقاذَفُني الآهات ككرة، تلهو وتضحك هي ولا أعرف لي وِجْهةً، عدد ساعاتكِ ليلتي كالأرقام، ليس لها نهاية، بل كلَّما مرَّتْ زادت، تجمعت عليَّ الهموم حتى تطرحني أرضًا، وتضرب قلبي فتقسمه، فاللهم جبرًا».

ولما قضى الليل وطره، وأرخى اليوم الجديد سدوله نادتها روحها قائلة: «أيها الساهرون والناس نِيَام، قد حان وقت استيقاظهم، فكفكفوا دموعكم».

عندما تُعذَّبُ الروح، يستحي الجسد من التعبير عن آلامه وإن كانت طلقات ولادة، يبدو أن آلام المخاض كانت تنتظر رحيلهم حتى لا تتجمع عليها الآلام، فلما رحلوا أخذ الفؤاد دوره في النحيب، فما كان من آلام المخاض إلا أن توارت في خجل أمام عظمة ذلك النحيب.

بدأ الطلق يتصاعد وهي لا تشعر به، استمر إلى ساعات وهي في عالم آخر، فلما لم تستجب له بدأ النزف يروي فراشها بدم حار وهي ما تزال غائبة في ذلك العالم، كانت روحها تختنق وكأنها تتأهب إلى الخروج من جسدها حتى نطق أذان الفجر، فإذا بها تهب واقفة لا إراديًّا لالتقاط أنفاسها لتجدَ الدمَ يصبُّ صبًّا من رحمها، وإذا بها تفيق على ألمٍ أضعاف ما ذاقت في ولاداتها الماضية.

أسرعت إلى الحمام، جلست على القاعدة مفرجة بين ساقيها وكأن الألم يخرج من بينهما، وما هي إلا دقائق حتى انتابها دوار أفقدها القدرة على الرؤية أو الكلام استنجادًا بأمها، وما هي إلا لحظات حتى أخذت تتقيأ عصارة معدتها التي باتت خاوية على عروشها والعرق يتصبب على كامل جسدها ثم هدأت النوبة.

لم تمر دقيقة حتى بدأت نوبة جديدة تكرر ما وقع في سابقتها حتى خارت قواها، حاولت جاهدة الوقوف، وقفت، خطت خطوات ثقيلة والدم يتبعها في خيط متأرجح حتى أمسكت بمقبض الباب، وبينما هي تديره إذ بها تدخل في نوبة دوار أقوى ثنت ساقيها ليسقط الجسد مرتطمًا بأرض الحمام القاسية لتنطلق منها صيحة تأوُّه أفزعت أمها.

استيقظت أمها فزعة، ألقت بنظرها على سرير ابنتها فلم تجدها لتجد مكانها بقعة دم كبيرة، وبركة دم متجلط على السجادة المفروشة أمام سريرها، ثم خيط من الدم يخرج من الغرفة، جرت فزعة تتبع ذلك الخيط الذي امتدَّ من الغرفة إلى الصالة ثم إلى الحمام، هرولت إلى الحمام وجسدها يرتعش، أمسكت بالمقبض ولفته لينفتح الباب مرتطمًا بجسد ابنتها، صرخت بأعلى صوتها وولجت من باب الحمام بصعوبة لتجد حمامًا من الدم تغرق به منى.

دخلت منى في نوبة جديدة من الطلق، خرجت أمها مهرولة من الحمام لتخرج من شقتها وتصعد السلم وهي تنكفئ على درجاته حتى وصلت إلى شقة ابنها، خبطت على الباب بلا توقف حتى انفتح، سحبته من يده وهي تقول: «أختك غارقة بدمها»، سحب يده منها ونزل مسرعًا ليسبقها فقالت: «إنها بالحمام».

حملها على يديه ووضعها بسيارته وانطلق بها إلى أقرب مستشفى بالمدينة المجاورة لقريتهم، اتجه إلى قسم الطوارئ، وبعد فحص الطبيب لها أخبرهم أن حياتها في خطر بسبب النزف الذي سببه انفصال المشيمة بسبب ارتفاع ضغط الدم، وأنه لا بُدَّ من نقل الدم لها قبل التعامل مع الجنين الذي توقف نبضه، وأن طلق الولادة مستمرٌ معها،

ولكنه من الخطر عليها أن تلد طبيعيًّا لأنها تنزف، وأنه بعد نقل الدم إليها سيضطر إلى إخراج الجنين الميت بعملية قيصرية، طلب منهم الإقرار بالموافقة على ذلك ليقوم باللازم في أسرع وقت.

وقَّع أخوها على الإقرار المطلوب، وتم كل ما أراده الطبيب لتخرج من غرفة العمليات وهي لم تَفِق من المخدر بشكل كامل، ليستمع الجميع إلى هلوستها التي تمزح بها مع أولادها: «هات قبلة يا فريد، تعالي إلى حضني ريم، لقد أعددت لكم الطعام هيا لنأكله، خذ الورك الذي تحبه ماجد»، وما إن تسمعها أمها حتى تبكي بحرقة، يُنقل دم إليها مرة أخرى بعد إفاقتها وقد بدت كشبح، ولما أفاقت تحسَّست بطنها لتدرك أنها قد وضعت، التفتت لأمها تسألها عنه لتجد عينيها تزوغان منها، تسألها منى وكأنها تتمنى أمنية: «أَمات؟».

فتنحدر الدموع من عينَي أمها، وتقترب منها مواسية دون أن تنطق بكلمة، تبتسم منى وتقول بفرح: «الحمد لله إنه مات، الحمد لله إنه استراح من أمه وأبيه ومنك ومن هذه الدنيا، كنت أتساءل بيني وبين نفسي عن مصيره فلا أجد لسؤالي جوابًا، الآن اختار الله له المصير الأهون، وَلَكَم أودُّ لو صَحِبْته حيث ذهب لأخرج من دنياكم التي لم أعد أطيق العيش بها، أين هو؟ أريد أن أراه».

أتت أمها به إليها لتجده صغيرًا عَلَته زُرقة، كانت المرة الأولى لها التي ترى فيها مولودًا ميتًا، أخذت تتحدث إليه وهي تحتضنه وكأنه حيٌّ: «عانيت معي منذ أن قدَّرَ الله لك الوجود بأحشائي، لم ترَ معي يومًا حلوًا، أخذت من الدنيا نصيبك من الأسى من قبل أن تضع بها قدمك فاكتفيت وفارقت معلنًا أنها ليست بدار مقام، ليتني أرافقك في رحلتك إلى الآخرة، ليت الله يأخذني معك».

بدأت آلام ما بعد الولادة القيصرية تتناوب عليها، أخذته أمها منها ودموعها تتساقط فوقه وخرجت به من الغرفة، نظرت منى إلى حالها، وقد أصبحت كقطعة لحم وضعت بقدر يغلي وقد أوقدوا عليها النار ونسوها وظلت هي تجوب في القدر؛ علَّها تجد لها مخرجًا فما وجدت حتى تفكَّكت أنسجتها واهترأت.

لم تبق عندها قدرة على التحمل أو أمل تتحمل المزيد لأجله، لماذا تتحمل تلك الآلام الآن! من أجل وليدها الذي مات أم من أجل أبنائها الذين رحلوا؟ أرادت أن تطفئ النار عن قطعة اللحم، نظرت إلى ذلك الأنبوب الذي يصل بين جسدها وكيس الدم، سحبته من كفها بعد أن أغلقت محبسه الذي يوقف تدفقه وتركت نفسها للنوم.

عادت أمها لتكتشف فعلتها، نادت الممرضة لتعيد تركيبه، خرجت من المستشفى بعد أسبوع ذاقت فيه من الآلام ما لم تجد سببًا يجعلها تتحملها، أوصى الطبيب بأن توضع تحت المراقبة لفترة لأنها ربما تؤذي نفسها، معللًا ذلك بأنها تمرُّ باكتئاب ما بعد الولادة، وخاصة بعد موت وليدها، أخبرته أمها ببقية قصتها فأكد أنها ربما تفكر في إنهاء حياتها، وعليهم ألَّا يتركوها وحيدة حتى تتعافى.

مر أسبوع آخر قضته بين النوم والصمت، أراد جسدها وعقلها أن يأخذا قسطًا كبيرًا من اعتزال الحياة، حتى الكوابيس التي كانت تحتل ليلها رحلت، إننا نرى الكوابيس عندما نخاف من فقد شيء ما، أما وقد فقدت منى كلَّ شيء فلم تجد الكوابيس حاجة إلى زيارتها.

كان جميع من بالبيت يسعى إلى خدمتها من أم وإخوة وزوجاتهم، لكنها لم يكن لها أيَّ احتياجات، حتى ملابسها أبت أن تغيرها، لم تسمح لأحد بأن يتبادل معها الكلمات، كانت كلماتهم تذهب إليها برسائل العطف ولا تعود، أما عن الطعام فلم تقربه، لم يجد جسدها ما يتغذى عليه سوى المحاليل حتى جفَّ عودها.

علم علي بما جرى، لم يعرفوا مَن هي العصفورة التي أخبرته، اتصل بها في حضور أخيها ليطمئن عليها، لم يتمالك أخوها نفسه، أجابه في غضب ونفور: «ماذا تريد منها!».

– هي زوجتي وكانت تلد ابني، ومن حقي...

قاطعه أخوها وقال في غلظة والدم يغلي بعروقه: «أليس عندك قطرة دم واحدة تدرؤك عنَّا! تعلم تمام العلم أنها بصقتك، إن أصاب أختي مكروه فلن يقتص لها منك إلا أنا أيها اللئيم، إن كنت تريد أن تراها بخير فلن تكون كذلك إلا بخلاصها منك، ارحل عن سمائها مُطَلِّقا يا غمامة سوداء تحجب عنها شمس الحياة».

امتصَّ علي غضبه على مَضَضٍ، ثم أفاق ليعود إلى طبيعته وهمَّ بالردِّ على أخيها بأنه لن يطلقها، وسيذرها معلقة كالبيت الوقف، ولكنه تراجع بعدما أحسَّ أنه لن يزيده التمسك بها الآن إلا خسارًا، الآن شعر بأنَّ ضلعه يخلع منه عندما هم بتطليقها، ولكنه نطقها: «منى طالق».

أنهى أخوها المكالمة، ونظر إلى أخته مستبشرًا ومبشِّرا ليجد ابتسامة جافة على شفتيها، وكأنَّ شفتيها نسيتا كيف يكون الابتسام بعد أن هجرهما طويلًا، فقال لها مواسيًا: «انزاحت الغمة أخيرًا، صفحة وطُويت من حياتك، إنَّ لله حكمةً فيما جرى وسيرد لك حقك يومًا».

أخذت تبكي ويشاركها البكاء، أمر بإحضار الغداء، ترجَّاها أن تأكل فأكلت فاستبشروا خيرًا بشفائها، نامت طويلًا ثم أفاقت على زقزقة العصافير، صعدت إلى سطح البيت وجلست ساعة، مرَّ الهواء العليل على روحها كانسًا معه شيئًا من ضعفها ويأسها وقنوطها.

«إن أجبرتك الحياة على الانحناء فعجِّل بالاستقامة؛ فبعضهم يبني حياته على انحنائك».

نساء العرب

بعدما سافرت الروح ورحل الوليد، حضر كلٌّ مَن هُنَّ في مثل حالها أو أقرب ليضعن ما أمكنهن من بلسم على فؤادها الفارغ، وربما على أرواحهن كذلك، كُنَّ كالعصبة التي تجمع أفرادها مع كلِّ أزمة مرَّت بها إحداهن، وكلما جارت الدنيا على أنثى جديدة ضممنها إليهن، وكأنَّ الأرواح المعذبة تتجاذب لتصبح جسدًا واحدًا يتداعى كلُّ عضوٍ منه إلى الآخر بالحمى والسهر إن اشتكى سقمًا.

اتفقن جميعًا على زيارتها تحمل كلٌّ منهن قصتها وكأنهن أردن ضمَّ عود حطب جديد إلى حزمتهن، إن انضمامها إليهن يحفظها من أن تكسر إن بقيت وحيدة، ويزيدهن ترابطًا وقوة لمواجهة مجتمع لا يرحم أمثالهن.

كان من بينهن صديقتها هنادي، التي انفصلت عن زوجها بعد ما رأت من حماقاته، متكفلة بأبنائها الثلاثة منه في بيت أهلها، تروي لها معاناتها من مجتمع لا يرحم، من طليقها الذي ينفق على أبنائه وقتما يشاء ويمتنع وقتما يشاء، من أهل هي لهم ابتلاء وقدر يقبلونه على مَضَض، من جيران يتتبعون خطاها متى وأينما ذهبت، من عدم اقتناع بقرارها في عيش حياتها لأبنائها، وعن أبنائها الذين هم أمانة تنوء عن حملها الجبال وحملتها هي، وعن قلبها الذي كثيرًا ما يلومها على القحط الذي يعيشه معها، وأنه بحاجة إلى الارتواء، وأنها وضعته في بيئة غير صالحة للعيش القلبي وكم هو في حاجة إلى إِلْف.

وكان من بينهن قريبتها عزة التي كسر زوجها قلبها بزواجه عليها واستمرارها معه من أجل أبنائها، لعدم القدرة على الإنفاق عليهم، مع نزيف قلبها الذي لا يتوقف، الذي لطالما حاولت إقناع قلبها بأنها كانت غلطة منه، وأنه يحبها هي وليس زوجته الجديدة فلا يقتنع أبدًا، وعن انكسار عينيها أمام الناس، وأمام أبنائها وأمام نفسها، وعن المرارة التي لا يرحل طعمها أبدًا، بل يزيد كلما اختلت بنفسها، وعن علاقتها بزوجها التي مهما حاول إقناعها أنها حبُّ حياته، وأن زواجه من غيرها غلطة عمره ولولا إنجابه منها لطلقها فلا يقتنع قلبها بحرف واحد مما قال، غير أنها تكتفي بالصمت، أمَّا عن النار التي بداخلها فلا تخمد أبدًا، وعن الفرحة التي لا تدخل قلبها أبدًا مهما جد من مفرحات، ولكم أقنعت نفسها بأن نجاح أبنائها هو فرحتها الكبرى التي لا تريد غيرها، وكلما نجحوا حاولت أن تفرح فتبكي.

وأمَّا الثالثة فكانت حليمة، إحدى سيدات القرية التي كان يُلقي عليها زوجها بأعبائها وأعبائه حتى استنزف كلَّ طاقتها للعيش معه، قررت الطلاق ومعها ابنها ثم تزوجت من آخر، وبقي ابنها مع أمها لأنها لم تجد زوجًا يرضى باصطحابه معها، ثم تنازلهم عنه ليعيش مع أبيه وزوجة أبيه، لأن أمها لم تعد تقوى على رعايته، ولأنَّ إخوتها وأبناءهم يعاملونه كخادمهم، ليبقى قلبها يعاني جزءًا منه قد بُتِر، وشيئًا من ضميرها ينالها منه وخزًا شديدًا كلما ضحكت لها الدنيا، وعن عينَيَّ ابنها اللتين كلما رأينها قالتا من الكلام ما هو أقوى من جلد السِّياط.

وكان من بينهن رواء التي مُنِيَتْ بزوج لا يعبأ بشيء إلا إشباع رغباته منها وجمع المال وكنزه، ثم موته في حادث تاركًا لها أربعة أبناء وثروة محترمة بالبنك، وبعد دفنه ظلت فرحة صغيرة تقفز في قلبها لم يَرَها أحد سواها، لم تجد زوجًا يرضى بها وأبنائها إلا طامعًا يرمي بشباكه على ما لديهم من مال فرفضته، وها هي تكمل حياتها الآن بقلب لم

يصبه غيث بسنوات الزواج، وكم تعاني الآن جفافًا، وكثيرًا ما حام حولها الغربان، وكثيرًا ما ضعفت حتى أوشكت على الهلاك فتمالكت نفسها في اللحظات الأخيرة.

الغريب أنه كان من بينهن شيماء التي كانت تحب منى حبًّا جمًّا، التي كانت الصفحة البيضاء الوحيدة بينهن، رزقها الله بزوج محبٍّ حنون، يزداد حبه لها اشتعالًا كلما صبت عليه من زيت دلالها وعنادها وحبها لتملك شيئًا مما لديه، تحبُّ الحياةَ وما حَوَت، نهمة لا تشبع، أدرك زوجها ذلك فيها ولم يبخل عليها بشيءٍ من أمور الدنيا أو أمور قلبه، كانت تعطيه على قدر عطائه.

تدرك أنها ليست مثالية وأنها لم تقدم ما تستحق عليه كلَّ هذا الحب منه، تعجَّبت لما أصاب منى وكيف فرَّط زوجها بها وقت كانت تراها تَحْمِلُ من الصفات ما يفوق ما تحمل هي، وما يتمناه أيُّ رجلٍ في زوجته، كانت شيماء تلومهن جميعًا على سلامة نيتهن المطلقة مع الرجال، فالرجل بالنسبة إليها غريمٌ وليس حليفًا في معركة الحياة الزوجية، وأنَّه على المرأة الاستيلاء على مستعمراته مقابل أيِّ شيءٍ تهبه إياه، ترى أن الحب والأمان يكمنان في الشدِّ والجذبِ المستمر بينهما وعدم إعطائه الأمان مهما أبدى من مشاعرَ، لم يقتنعن قطُّ بنظريتها حتى جربن الزواج ففشلن جميعًا إلا هي.

بكين جميعًا ذلك البكاء الذي أخفينه عن أعين العالم إلا شيماء، تَداعت كلٌّ منهن إلى الأخرى تواسيها وتخفِّف عنها، ولكن ما كُنَّ فيه كان أقلَّ حرارة من منى، هنَّ وصلن إلى نهاية القصة تقريبًا حتى وإن كانت النهاية حزينة، أمَّا هي فما زالت على صفيح ساخن، ولن يبرد إلا عندما تعود طيورها المهاجرة لأعشاشها المغزولة بقلبها.

وبينما هنَّ جالسات حاولت كلٌّ مُنهنَّ مواساة منى، فقالت موجهة كلماتها إلى هنادي: «لقد فعلتِ ما عجزتُ أنا عن فعله هنادي».

– نعم، ولكن تحمل مسؤوليتهم وحدي ليس بالأمر الهيِّن، لا يشعر بمعاناتك أحد حتى مَن ضحيتُ من أجلهم، بل أحيانًا يلومونني أنه كان يمكنني تحمل أبيهم لتستمر الحياة، هوِّني على نفسك منى، على علي أن يتحملَ مسؤوليتهم ولو قليلًا، على الأقل حتى لا يتذمر بعد ذلك من الإنفاق عليهم، وليتأكد أنه إن لم يدفع فعليه أن يأخذهم، وهذا على الرجال أثقل من الجبال، أو على الأقل تكونين قد بدأت مشروعك وأصبح بإمكانك أن تنفقي عليهم.

فتقطع شيماء الحوار: «ما هذا الذي تقولينه يا هنادي! إن ما فعلته هو القرار الصائب الذي لا ينبغي أن تتراجع عنه، الأبناء مسؤوليته التي عليه أن يتحملها هو ومَن تزوجته وهي على علم بظروفه، أمَّا عن منى، فعليها أن تنسى القصة، فالأبناء سيعتادون على الوضع الجديد، عليها أن تستعد إلى القصة الجديدة.

تتساءل هنادي في دهشة: «عن أي قصة تتحدثين؟».

أجابتها شيماء بكل ثقة: «قصة زواجها الثاني، عليها أن تفكرَ في نفسها كما فكَّر هو في نفسه، هي ما زالت صغيرة جميلة يتمناها أيُّ رجلٍ، إنها أجملنا جميعًا، وما إن يعلم الراغبون في الزواج بأنها أصبحت مطلقة دون أبناء حتى يتهافتون عليها».

تناولت عزة طرف الكلمة قائلة بحسرة: «تمنيت أن أفعل ذلك عندما علمت بزواج زوجي علي، كان عندي إصرار غريب بالفترة التي فارقته بها على أن أتركه إلى الأبد هو وأبناءه وأتزوج، تزوجته فقيرًا ولم أشعره قطُّ بذلك، عشنا أجمل أيام عمرنا ولم أشتكِ له يومًا حين يخونه جيبه أو حتى حين تخونني مشاعره، كنت أشعره دائمًا أنه ملء قلبي

وعيني، فإذا به يتزوج من أخرى فقط لأنها تمتلك بيتًا، قال لي بعد زواجه منها أنني حبه الأول والأخير، وأن هذه غلطة ولا يستطيع تطليقها لأنها حملت منه، ولما هممت بالزواج اعتُصِر قلبي كمدًا على أبنائي، أحسست أنني أدق المسمار الأخير في نعش بيتهم، تراجعت عن الزواج وعدت له، ولكني لم أهنأ من بعدها يومًا».

ردت شيماء بحضور لا يبارى: «هذا هو الطبيعي، ما يجعل المرأة سعيدة هو أن تشعر أنها كلُّ النساء في عين زوجها، وأن ينظر هو إلى غيرها إسفنجة تمتص كلَّ مشاعرها نحوه، إما أن يتزوج بأخرى فهو أن يعصر على رأسها إسفنجة مشبعة بالمهانة، وليس هو فقط، بل كلُّ المجتمع يفعل معها ذلك.

لا تقولوا لي إن التعددَ حلالٌ، أعلم ذلك جيدًا، ولكنه على أيام الرسول كان الطبيعي أن يعددَ الرجل، فلم يكن المجتمع يرى أن زواجَ الرجل على زوجته يقع لعيب فيها، ائتني بهذا المجتمع وأنا أقبل بالتعدد، أنت في مجتمع لا يرحم، تصبح مَن تزوج عليها زوجها موصومة بالعار، ولا يتوقف الهمز واللمز عنها في وجهها ومن وراء ظهرها، هي نفسها تتحاشي الناس حتى لا تسمع من أحد كلمة تنتأ جرحها الذي لا يطيب.

ثم إن الرسول عاش مع السيدة خديجة سنوات وسنوات ولم يتزوج عليها، ونحن نعلم أن غالبية زيجاته فيما بعد كانت بأمر من الله له، ثم إنه رفض زواج سيدنا علي على السيدة فاطمة، يقولون لأن مَن أراد أن يتزوجها ابنة رأس الكفر، لكن لماذا لم يتزوج سيدنا علي من أخرى من بنات المسلمين؟

إنَّ الأصلَ واحد لشرط العدل الذي لن يحققه أحد ولو حرص على ذلك بنصِّ القرآن، ولو وقف القرآن عند ذلك لأبقى كلُّ معددٍ أيامَ نزول الآية على واحدة وطلق الباقي، ولكن لأن بعضهم كان معددًا، فقد أمرهم الله بألَّا يميلوا كلَّ الميل، التعدد ليس بسنة كما يدعون، بل إن من يسمع الآية يستشعر أنها نهي عن التعدد لا حثٌّ عليه، ثم أين هو جيل الصحابة الذين كانوا نِعْمَ الأزواج، يعطي زوجته حقوقها كما أمره الله، وإن كان معددًا يعدل ولا يميل كرجال زماننا المائلين، إننا نجد رجالَ هذه الأيام مقصرون مع واحدة، يلقي الرجل على زوجته بمسؤولياته، لا يرعى أبناءه حق الرعاية، ثم نجد كلمة «سأتزوج» علكة في فمه، لقد حلل لي الشرع أربعًا وربما يكون لا يصلي حتى.

ثم إنه يتزوج وكأن الثانية للمتعة فقط، وما هي إلا امرأة تريد زوجًا وبيتًا وأبناء وحياة دائمة معه، وغالبًا ما يميل إلى إحداهن، أو يضرب إحداهن بالأخرى ليعيش دور ديك البرابر، كان عليكِ يا عزة أن تتزوجي من غيره، وما كان ينبغي لك أن تضحي معه طوال حياتك إلا وأنت دائمًا تذكرينه بأنه مقصر، وأنك تتحملينه وليس هو مَن يتحملك، عمومًا، جميعكن أخطأتن في أسلوب حياتكن مع أزواجكن، وها أنتن تدفعن الثمن الآن».

وأخيرا سُمع صوت حليمة التي تؤثر الصمت ونادرًا ما تدخل في حوارات متجنبة الجدل الزائد: «صدقت يا شيماء، هذا هو الخطأ الذي وقعتُ فيه في زيجتي الأولى، ضحيت معه بكلِّ شيءٍ وأخلصت في الجهد والعمل حتى رمى كلَّ مسؤولياته على كتفي، ولم أجد منه حتى المشاعر، وجدت دمي ينزف وكان لِزامًا علي أن أوقف نزفه، لم يكن القرار سهلًا، لامني الناسُ مُدَّعين أنني من خرَّب البيت الذي كان بالفعل خربًا، ولكني الآن رغم أن الله عوضني خيرًا بزوج حنون فإن ضميري لا يرحمني فيما يخص ابني، حتى ابني نفسه لا يرحمني أبدًا من نظراته اللائمة».

هنا نظرت لهن رواء وهي ترمي بابتسامة ساخرة وقالت: «لن أشتكي أنا الأخرى يا شيماء حتى لا تُلقي عليَّ باللوم».

أجابتها شيماء بلا تردد: «أنت أكثرهن نصيبًا من اللوم، منذ اليوم الأول من زواجكما وهو لا يرى إلا رغباته وماله، يتعامل معك كالجارية، كان عليك أن تتركيه منذ البداية، لكنك بدلًا من ذلك أنجبتِ نصفَ دستة من الأبناء».

ردت رواء بحرقة: «تعلمين جيدًا أن الطلاق كان خيارًا مرفوضًا من أمي وأبي، وقد أخذه الله في الوقت المناسب لأنني كنت أفكر بالانتحار في تلك الأيام التي لا أعادها الله أبدًا».

قالت شيماء بصيغة التهنئة: «وها أنت الآن حرة».

ردَّت رواء ساخرة: «حرة! أين هي هذه الحرية، أنا محرومة من كلِّ شيءٍ، أعين الناس كاميرات سُلِّطت عليَّ، أنا لم أهنأ معه بشيءٍ أجعله تميمة على صدري أتقوَّت وأتقوَّى به على وحدتي بعد موته كما تفعل الأرامل، لا أدري لماذا يستنكر الناس عليَّ أن أتزوجَ! حتى الرجال أنفسهم من يريدني منهم يريدني وحدي، هل أُلقي بأبنائي بملجأ، ليس لهم غيري في هذه الدنيا».

ثم أكملت والدمع ينساب من عينيها: «يقولون إنَّ الدنيا تذيقنا يومًا حلوًا وآخر مرًّا، فما بالها لم تذقني إلا مرَّها! بدءًا من أهلي، مرورًا بزوجي وأولادي، حتى الناس، الجميع يستنكر عليَّ أن أتذوقَ بعض الأيام الحلوة مع رجل، أن يرتوي قلبي بشيءٍ اسمه الحب لطالما سمعت عنه، يبدو أنني لم أنل من الرواء إلا اسمي، يقولون: لكلِّ امرئ من اسمه نصيب، فلماذا لم يكن لي من اسمي نصيب!».

ومع جملتها الأخيرة فاضت عبراتهن جميعًا، تبكي كلُّ واحدةٍ منهن على حالها وحال غيرها وحال الكثير من النساء في هذا المجتمع العربي.

هنا تداركت شيماء الموقف، فهي لم تكن تحب لحظات الضعف هذه وقالت متحفزة: «ما جرى جرى، لن يفيد البكاء على اللبن المسكوب، دعونا ننظر إلى المستقبل».

أجابتها منى وهي ترى في كلمات شيماء مدخلها لكلِّ شيء وأولهم عودة أبنائها إليها: «صدقت شيماء، علينا الخروج من هذه الدوامة التي ندور جميعا بها فلا نجد لنا مخرجًا».

انصرفن جميعًا وهن يفكرن بكلمات شيماء ومنى، هل من الممكن أن يصبح مستقبلنا أفضل؟ كيف نخرج من تلك الدوامة التي ندور بها؟ هل سيثمر ذلك الحوار عن أفعال أم هي مجرد فضفضة؟ أفكار حبيسة بأدراج العقول؟

أصبح فؤاد منى فارغًا ولم تكن تبدي بالأمر، رأه القريب والغريب دون أن تنطق ببنت شفة، لم تعد تنطق قطُّ إلا للضرورة القصوى، فقد ربط الحزن لسانها وزهدت الدنيا بما فيها.

لم يمضِ على فراقها لهم إلا شهر تبدلَّت فيه إلى ذلك الكائن الحزين الذي ارتسم الويل على وجهه، فإذا نظرت إلى عينيه وجدت بابًا موصدًا تقف خلفه جموع من الدموع على أهبة الاستعداد للانسكاب دون أيِّ مقدمات، غير أنها لا تنسكب.

قررت أن تبني حياةً جديدةً تستطيع بها أن تستعيدَ قلبها وفلذات كبدها، أن تبدأ مشروعًا تحصل منه على دخل تستطيع به العيش مع أبنائها، تبدأ حياةً جديدةً في عالم قد زهدته وتقيأته.

مرت أيام ورأس منى لا يتوقف عن التفكير يسألها: «هل أَفَلَ نجمك؟ هل هذه نهايتك أم هي وقفة لبداية جديدة؟ هل ستعيشين عالة على ميراثك من أبيك أم سيكون لك شأن آخر؟ هل تخلص علي من إعالتك لتنتقل إلى غيره من أمك

وإخوتك! أفيقي منى، أعلم أنك ستفعلين شيئًا من أجل عودة الروح، لكن دعينا نضع الأمور في نصابها الصحيح.

كان عليك أن تعملي ليكون لك كيانُك الخاص، إن كونك عالة عليه جعلك رخيصة في نظره، ليس أنت وحدك، بل إن الغالبية العظمى من الرجال والنساء مثلك ومثل علي، ليت الرجال يدركون دورهم الرئيس مع النساء، ليتهم يدركون أنهم قوامون عليهن، ليتهم لا يبخسون النساء حقوقهن لأنهن رضين بأن يكن تابعات لهم، غير أننا نجد المرأة تشارك زوجها في نجاحاته وهي تعتبرها نجاحاتها هي، فلا فرق بينهما في نظرها، فإذا بها تجد نفسها خاوية الوِفَاض إن قرَّرَ هو إنزالها بأيِّ محطة يختارها.

لكنهم لا يدركون، رجال اليوم يرون في ضعفهن فرصةً للتحكم بهنَّ وإذلالهن، رجال اليوم يجبرونهن على الخروج معهم إلى العمل وامتلاك ما يستندن عليه إن غدروا.

لا بُدَّ أن تفعلي شيئًا لك قبل أن يكون لأبنائك، تخيلي أن أبناءك عادوا لك وكبروا فانصرف كلٌّ منهم إلى حياته، هل ستصبحين عالة عليهم حينها؟ أفيقي منى، عليك أن تقفي على أصولك».

سألت نفسها: «ولكن كيف لي أن أقف على أصولي؟ ليس لي إلا ما أملك من ميراث وموهبة حباني الله بها، منذ سنوات كنت أحب الأزياء، هل أستطيع العودة لها الآن مستندة على ما تركه لي أبي؟ نعم أستطيع، وماذا عن موهبتك التي طالما أهملتها؟ الكتابة منى، هل تزيحين عنها التراب أم كتب عليها أن تدفن حية؟ سأكتب، نعم سأكتب، أعلم أن الكتابة هي ذاتي، سأبحث عن ذاتي حتى أجدها.

ولكن كيف لي أن أبدأ ومع مَن؟ لن يشعر بي إلا مَن شربوا من الكأس نفسها التي شربت منه، لن يشعر بجرحي إلا مَن أصابه جرح مثله، لن يقف بجانبي إلا تلك الصديقات، ولن أتخلى أنا عنهن، سأكون لهنَّ سندًا كما هنَّ لي».

اتصلت بهن تطلب حضورهن جميعًا، طرحت عليهن فكرة مشروعها الذي تودُّ القيام به حتى يكون لها دخل يكفي إلى الإنفاق على نفسها وأبنائها، وأنها بحاجة إليهن وأنهنَّ بحاجة إليها، فربما يخفف المال بعضًا من معاناتهن، فقالت لهن: «أنا أهوى الأزياء منذ طفولتي، وأجيد تصميمها رغم مرور سنوات وسنوات من الإهمال لهذه الهواية، فإنني أرى أن إزاحةَ التراب عنها ليس مستحيلًا، أفكر بمشروع صغير لتصميم وحياكة الملابس، وأرى أنَّ هذا المشروع يناسبنا جميعًا؛ فهنادي خريجة كلية الاقتصاد المنزلي التي درست بها الخياطة وخلافه، وعزة تهوى الخياطة والمشغولات اليدوية، أمَّا عن حليمة فلا تكل من العمل، نشيطة كنحلة بلا طنين، على استعداد للتعلم والقيام بأيِّ مهمة تكلف بها، أمَّا عن رواء فتجيد التعامل مع الناس ووسائل التواصل الاجتماعي، مما يخدم الترويج للمنتجات بشكلٍ خاص وللمشروع بشكلٍ عام، أما شيماء فستكون العقل المدبر والمسؤول المالي عن المشروع، تعلمن جميعًا أن المال هو لعبتها المفضلة».

ضحكت منى ضحكة منكسرة شاركنها جميعًا بها عدا شيماء التي رفعت أحد حاجبيها تحديًا، أكملت منى عرض فكرة المشروع قائلة: «سأعرض الأرض التي ورثتها عن أبي للبيع، لتكون رأسَ المال الذي نبدأ به، ومَن تريد أن تكون شريكة بنسبة ما مما لديها من مال فلتتفضل، فما رأيكن؟».

حازت فكرة المشروع إعجابهن جميعًا، انصرفن على وعد بالتفكير في الأمر، وعرضه على أزواجهن لَمن كان لها زوجًا، إلا شيماء التي أعلنت موافقتها ورغبتها في أن تكون شريكةً بالمشروع، قلن لها بدهشة: «تمهلي حتى تأخذي موافقة زوجك، فهو من وهبك هذا المال».

فقالت بثقة وهي تضع كفها على خصرها متراقصة: «لا أحتاج إلى موافقته، أصبح مالي أنا وانتهينا».

«أنْعِم برفيقٍ إن كُسِرَ خاطري جبره».

فؤاد فارغ

قضت منى ليلتها بعينين ساهرتين، عين على أبنائها تحاول تخيل كيف حالهم، وعين على مشروعها الذي سيقرب المسافات بينها وبينهم، وقبل أن تنام طلبت من أخيها عرض أرضها للبيع، ورغم ثقل الفكرة عليه وعلى أمها فإنهما خضعا إليها مع قلقهما من فشلها وضياع ما لديها من شيء تستند عليه إذا حاربتها الأيام يومًا بأسلحتها الفتَّاكة كالمرض.

حاولت أمها إثناءها عن الفكرة، غير أنها رأت منها بأسًا شديدًا في أنه أمر يخصها هي ولا مجال للنقاش بشأنه، فلن تنتظر المنَّ من أحدٍ، ستقوم بما يعينها على الاكتفاء والحصول على ما يغنيها عن أيِّ أحدٍ، وأن المال هو المخرج من معاناتها، ولا بُدَّ لها من أن تجمعه، فلم تجد أمها غير الصمت ردًّا.

أخذت كلَّ ما كان ميراثًا لها عن أبيها، وهي تدعو له بالرحمة على حسن صنيعه معها، فلولا هذا الميراث ما كانت لتستطيع البدء، استأجرت هي وشريكاتها محلًّا في مدينة قريبة من قريتها ومن الجامعة التي قررت الالتحاق بها لدراسة الكتابة.

تهوى الكتابة منذ صغرها شعرًا ونثرًا، تلجأ إليها في أوقات الحزن والفرح، لكنها لم تستغل هذه الموهبة كما ينبغي، وها هي الآن تحاول إحياء ما مات منها، أو ربما أهيل عليه التراب وهو ما زال ينبض بالحياة.

كانت الدراسة نبراسًا أضاء طريق كتاباتها لتخرج دقيقة بليغة، فقد حظيت بكوكبة من الأساتذة الأكفاء في هذا المجال، بدأت تكتب كلما اعتصرها الألم ليسكب منها حروفًا تمس أوجاعَ كلِّ مَن يقرأها فتطيب.

بدأت تنسج قصصًا خيوطها كلُّ موقفٍ حاربت فيه القيمُ الحياةَ وعادت خائبة مهزومة، كلُّ بسمة أحالها القدر إلى دمعة، كلُّ حلم أحاله الواقع إلى كابوس، كلُّ بيت آمن إلى أطلال في براثن الخوف واليأس، كلُّ وليد في أحضان أمه إلى يتيم مشرد.

غير أنها أرادت أن تطيبَ خاطر القراء في النهاية لتبث فيهم الأملَ، كانت تُنهيها بنهايات سعيدة لم تذق هي لها طعمًا، تجبر الفجر على المبيت في دار روحها لعلَّ شمسَ السعادة تشرق من جديد.

ورغم ما هي فيه من هدم ورفع لأنقاض وبناء لسكن جديد، فإنه لم يكن ذرة مما تلقاها به المجتمع من النقد والهمز واللمز الذي أضاف الكثير من التجهُّم والحرقة المكتومة بداخلها، ما جعلها تفقد اللذة في كلِّ شيءٍ، حتى الطعام لم تكن تدخله فيها إلا إذا نفدت طاقتها وبدأت في السقوط، فتأكل أقلَّ القليل فاقدة أيَّ لذةٍ، بدأت مشروعها وهي في حرب على جبهات شتَّى بلا سلاح ولا عتاد، فكلما هاجمها محارب لم تعبأ بالجروح التي أصابتها واستكملت طريقها نحو غايتها.

تمكَّنت صديقاتها المتزوجات من أخذ الموافقة من فم سباعهن، اشتركن معها في شراء ماكينات الخياطة، وتجهيز المكان بما يحتاجه من وصلات كهرباء وإضاءة ورفوف ودواليب وشماعات ومكاوٍ ثم القماش من أفضل الخامات.

بَدَأْن مشروعهن بحماس لا ينقطع، يدفعهن إلى ذلك رغبتهن في النجاح ومن قبله خوفهن من شماتة مجتمع لا يرحم، وما إن بدأت ثمار ما زرعن تنضج حتى أنشأن صفحة تجارية على الفيس بوك للترويج إلى منتجاتهن.

وما إن رأى الناس من أهل القرية منتجاتهن حتى بدأوا في بثٍّ شيءٍ من الدعم والتشجيع لهن، وما إن مرت سنة حتى بدأ يذيع صيتهن وأصبح لهن جمهور وزبائن من مختلف المحافظات.

على الجانب الآخر، أنهت منى أولى رواياتها وبدأت تبحث عن دار نشر تتبناها، كانت من قبل ذلك قد أنشأت صفحة أخرى أدبية تحمل اسمها تبثُّ فيها كلَّ يومٍ شيئًا مما تمر به على هيئة خواطر وشعر حتى أصبح لها جمهور ليس بالكثير، لكنه كان مؤشرًا على أنها تسير على الطريق الصحيح.

مرَّ هذا العام ثقيلًا طويلًا مملوءًا بالتفاصيل التي رسمت لوحة جديدة لروحها، لم تعد تلك الروح البريئة كما كانت، أصبحت أقل براءة وأكثر قلقًا، وما كان يبرد من قلقها إلا إيمانها بربها، وأنه سيرضيها يومًا وإن طال انتظاره، على يقين بأن الله ينظر إليها وكأنه يقول لها: «أعلم ما أنت به ولي به حكمة لا تعلمينها، وسيحين الوقت الذي أردُّ لك به حقك وأكثر، سيحدث ما هو ليس في حسبان أحد، فقط اصبري واحتسبي».

«كان خطئي أن انتظرتكِ أحلامي أن تأتي إليَّ، لم أكن أعرف أنك تسيرين بقدمَي».

حلوة أم ملتوتة؟

مرَّ العام إلا بعض أيامه لم تمر، ظلت عالقة بفؤادها، إنها تلك الأيام التي كانت تتواصل فيها مع أبنائها، مكالمة فيديو ترى وتسمع فيها تلك الطيور التي ارتسمت على ملامحها معانٍ أخرى غير التي رحلوا بها، فقد حملت أصواتهم ألحانًا جديدة ملآنة بالشجن.

لقد رحلوا تائهين، سرقهم سكين الرغبة في العودة لحياتهم وإن كان برفقتهم امرأة أخرى غير أمهم، وما هي إلا أشهر معدودات حتى حملت ملامحهم اضطرابًا نفسيًّا معقدًا لم تستطع منى فك طلاسمه، إضافة إلى قصر مدة المكالمات لأسباب عدة أهمها أنهم لم يبادلوها درجة شعورها نفسها.

إن ما يميز الأطفال أنهم يستطيعون التكيف مع أيِّ ظروف ويعتبرونها الوضع الطبيعي إلا القليل، إلا أن اضطرابهم كان يظهر جليًّا في قلة ابتسامهم، السعادة عندما تذكرهم بأيام طفولتهم وذكرياتهم ثم الانقباض مرة أخرى.

كانت مكالماتها معهم تمر عليهم كمشروب لذيذ إلا أنه يخلق اضطرابًا بالعقل، أما عنها فقد كانت مكالمة وحيدة معهم كفيلة بإقعادها طريحة الأسى لأيامٍ وأيام، وما إن تتعافى حتى تدخل في معاناة جديدة مع المحادثة التالية، كانت تشعر أنهم دخلوا عالم الاضطراب النفسي بخطى ثابتة، وما كان يخرجها من مآسيها من شيء، لكنها كانت تتستر عليها بالعمل والكتابة، كانت لا تترك من وقتها هنيهة ليأخذها الفكر إلى باحات القنوط، ما جعلها على قيد الحياة هو أملها في رجوعها إلى أحضانهم.

كانت قبل أن تتصل بهم تربط على قلبها بألف قيد حتى لا يطير إليهم فيخبرهم بما هي فيه من حنين واشتياق، ناهيك بالأسى والأنين، أرادت أن يكون اللقاء خفيفًا مرحًا: «أهلا بالغالي، فريد حبيبي».

فيجيبها بشيء من الخجل وكأنها شخص غريب عنه تعلو وجهه ابتسامة مضطربة: «أهلا يا ماما».

– كيف حالك، أفتقدك أنت وإخوتك.

– ونحن أيضًا نفتقدك.

– طمئني عليكم، أنتم بخير؟

– بخير، الحمد لله.

– والمذاكرة؟

– نذاكر أحيانًا، أنا أذاكر، لكن مذاكرة وواجبات ماجد وضحى تحتاج إلى من يساعدهم بها.

– مَن يذاكر معهم؟

– بابا يحاول، لكن المشكلة في الوقت، يرجع متأخرًا من عمله.

– وريم؟

– يعني، بأحوال، ساعات مبسوطة وساعات تبكي، الغريب أنها تتبول على نفسها في أكثر الليالي.

صدمت منى من هذا الخبر، لم تكن ريم تفعل ذلك قطُّ وهي معها، فسألته في قلق: «ومن يغير لها ملابسها ويرعاها؟».

– أنا، طلب مني بابا أن أغير لها ملابسها بعدما تشاجر مع طنط لأنها لا تريد ذلك.

– بطلٌ أنت يا فريد، وحقك عليَّ أنا، وعد مني أن هذا لن يدوم إلا لشهور، أعطني ماجد لأطمئن عليه.

– ألن تعيشي معنا مرة أخرى ماما؟

– سأعيش معكم وتعيشون معي إلى أن أموت يا حبيبي، أنا بدأت مشروعي وبدأت أتكسَّب منه، أنتظر حتى يدرِ عليَّ دخلًا يلبي احتياجاتنا، دعواتك فأنا في أمسِّ الحاجة إليها.

– خذي ماجد.

تقول له مبتهجة: «ماجد حبيبي، لك وحشة كبيرة بحجم الجنة، هل تفتقدني كما أفتقدك؟».

بعد فترة صمت قصيرة رد غاضبًا معاتبًا: «متى ستأتين؟».

حاولت منى التماسك وأجابته وهي على يقين أنه يعاني: «عندما تعودون لمصر سنبقى معًا إلى الأبد».

– وبابا وطنط؟

لم تجد منى إجابة على سؤاله فقالت: «أتريدهم أن يعيشوا معنا؟».

أجابها بحزم: «أريد بابا، أما عن طنط فلا، فهي تتشاجر معنا كثيرًا، تصرخ بوجه ريم فتبكي، وضحى أحيانا، تقول لي دائما أنت ماءٌ من تحت تبن، ماذا تعني هذه الكلمات يا ماما؟».

أغاظ منى ما سمعت، إن ماجد أكثر أبنائها هدوءًا وعاطفةً وطيبةً، تنزل دموعه لو مسه أحد بكلمة ولو بسيطة، فكيف لها أن تؤذيه بهذه القسوة! لكنها تمالكت نفسها وقالت: «تعني أنك هادئٌ طيب القلب».

– لا، معناها ليس كذلك، إنها تقولها بوجه عابس، كما أنها تقول لي إنني أشبهك وكأنَّ ذلك عيبًا بي، وتقول إنك لست أمًّا وأنك رميتنا، ولكن بابا قال لها إنك لم ترمنا وأنك ستعودين لتعيشي معنا قريبًا، عندما أطلب منها شيئًا تقول اطلبه من أبيك أو من أمك، وأبي مشغول طوال الوقت، وعندما يعود من العمل لا تدعنا نتحدث معه فتقول اذهبوا إلى النوم، بل وتجبرنا أحيانًا على النوم قبل أن يعود».

– تريدك أن تنام لتصحو باكرًا وقد شبعتَ من النوم لتذهب إلى مدرستك وأنت حسن المزاج، قل لي كيف هي أحوالك بالمدرسة؟

– نذهب إليها بعد الحصة الأولى، لا أستطيع حل الواجبات وحدي، وكذلك ضحى، تعالي كي تحليها معنا.

– تحمل يا ماجد لهذا العام فقط، ومن العام القادم سأحله معكما، أين ضحى؟

– ها هي معك.

تقبل منى عليها بكلمات حنونة: «ضحى قمري! قولي لي كيف يظهر القمر بعز النهار!».

ترد في غضب وكأنها لم تسمع كلمات الإطراء والمدح: «ماما! متى ستأتين؟!».

– قريبًا حبيبتي سنعيش معًا، كيف حالك يا أجمل ضحى بالدنيا؟

– بخير، هل لي أن أقص شعري؟

- ولمَ؟

- يؤلمني حين تمشطه لي طنط، تقول لي: «ممَن ورثت ذلك الشعر؟ من أمك؟» هي لا تعرف أن شعرك جميل.

- وشعرك أجمل يا ضحى، لا تحزني.

- أنا لا أحبها، تنام وتقول لنا اكنسوا الشقة واغسلوا الأطباق، تقول لنا دائمًا حين تغضب: «أي بلوى ألقت بكم إليَّ!».

- لا تشغلي بالك بكلماتها حبيبتي، نظفي أنت وإخوتك من دون أن تطلب منكم، أعمال البيت كثيرة عليها.

- متى ستأتين؟

- قريبًا حبيبتي سنكون معًا، أين هي ريم؟

- ها هي.

تعطي ضحى الهاتف لريم فتمسكه بلهفة، فتسرع منى قائلة: «ريم الحلوة! كبرت صغيرتي وأصبحت قمرًا، يا حلوة أنت يا نور عين ماما!».

تبتسم ريم ولا تجيب، فتعاود منى المحاولة: «أنا ماما، أحبك، أفتقدك كثيرًا، متى ستأتين لكي أشتري لك لعبًا وفساتين ونذهب إلى الملاهي؟ فريد وماجد وضحى يحبونك، هل أشتري لك عروسة كبيرة؟».

لم تجبها بحرف واحد، فقالت منى وهي تميل بخدها ناحيتها: «هات قبلة لماما يا أجمل ريم».

لم تعطها، حاول إخوتها أخذ الهاتف منها إلا أنها لا تريد أن تتركه، فقالت منى في محاولة جديدة: «أأحكي لكِ حدوتة؟».

أومأت برأسها إيجابًا، بدأت منى تحكي لها قصة وهي تحاول كتم دموعها، واستبدالها بابتسامة تنبعث منها بهجة اختلقتها لعلَّ ريم تبادلها بمثلها: «كان هناك أربعة أطفال وأمهم، قالت أمهم تعالوا لنلعب استغماية، اتفقوا أن تغمض أمهم عينيها وتعد حتى عشرين حتى يختبئوا، عدت الأم: واحد، اثنان، ثلاثة... حتى عشرين».

أكملت منى وهي ترى الإصغاء والانتباه من ريم ومنهم جميعًا: «فتحت عينيها وبدأت تفتش عنهم، فتشت عنهم الشقة كلها ولم تجدهم، تعبت من التفتيش وقالت: آه آه آه».

بدأت ريم تضحك، تحمست منى وحاولت أن تزيدَ من جرعة الضحك فقالت: «قررت ماما أنها لن تهدأ حتى تجدهم، فتشت تحت السرير فوجدت فأرًا فصرخت بأعلى صوتها يا لهوي».

ضحكت ريم بصوت أعلى فأكملت منى بحماس: «فتشت تحت الثلاجة فوجدت صرصورًا فقالت يا خرابي».

علت ضحكات ريم وإخوتها فزادت منى من الإثارة قائلة: «فتحت الدولاب، وأخيرًا وجدت فريد فأمسكت به، فتشت تحت منضدة السفرة فوجدت ماجد فأمسكت به، ولما حاولت الخروج من تحتها خبط رأسها بالمنضدة فقالت آاااه».

ضحكت ريم مجددا فأكملت منى: «فتحت درفة المطبخ فوجدت ضحى فأمسكت بها، ولما حاولت قفل الدرفة خبطت رأسها، ومن كثرة الخبطات تحولت رأسها إلى بطيخة مشقوقة».

هنا لم تستطع ريم التوقف عن الضحك، فأكملت منى في جدية مصطنعة: «تعبت ماما من التفتيش، ولما قعدت لتستريح قعدت على بلونة ففرقعت بصوت بوم».

ضحكت ريم ثم نطقت موضحة: «لم تجديني».

فتقول منى والدموع تنحدر من عينيها لأنها تكلمت أخيرًا: «نعم، قامت ماما وهي تعبة تفتش عن ريم في كلِّ مكان فما وجدتها، في الأواني، الأكواب، الحقائب، إبريق الشاي، الموقد، الثلاجة».

وكلما ذكرت منى شيئًا ضحكت ريم بلا توقف، فأكملت: «تعبت ماما من التفتيش عنها، إنها ذكية وتجيد الاختباء، راحت ماما لتضع فساتينها في الغسالة، فتحت الغسالة فقالت ريم بصوت مرعب جعل ماما تقفز من مكانها بخ، صرخت ماما وجرت، حسبتها فأرًا آخرَ، خرجت ريم من الغسالة، قالوا جميعهم إنَّ ريم هي الفائز في اللعبة، أمسكتهم ماما كلهم ودخلوا معها الفراش وناموا، وتوتة توتة خلصت الحدوتة، حلوة أم ملتوتة؟».

فقالت ريم: «حلوة».

هنا سمعت منى صوتًا عاليًا وكأنه شِجَار يظهر فيه صوت علي ولا صوت لأحد غيره، كان يزجر أحدًا زجرًا عنيفًا، فطلبت منى من أبنائها أن ينهوا المكالمة الآن فاستجابوا إلى طلبها، كانت منى تجد حساسيةً بالغةً وحرجًا كبيرًا عند التحدث مع أبنائها وهم في بيت يعد الآن بيت امرأة أخرى غيرها، ولا تدري أيسبق هذه المكالمات ويلحقها توتر من أيِّ نوعٍ أم إن الأمرَ يمرُّ بسلام؟

تفكرت في أمر زوجة أبيهم، هل ستنجح فيما فشلت هي به أم ستفشل؟ كانت تدري أنها تحملت ما لا يُطاق، وأنه يصعب على أيِّ امرأةٍ تحمله، فجاءها يقين بأنها لن تنجح فيما فشلت هي به، ليس لعيبٍ بها، بل بعلي، غير أنها أدركت أن الأثرَ السلبي للوضع الحالي سينقلب على أبنائها، عليها أن تحاربَ الزمنَ لتنجو بهم من هذه الريح العاتية التي ستقتلع أمانهم إن تأخرت هي في استرجاعهم.

«بعدما أنهى المهرج عرضه الفكاهي، وحيَّا جمهوره بابتسامة عريضة،
اختلى بنفسه وتجرَّع مُرَّ كأسه».

أولى درجات السلّم

كان أحد أساتذتها بالدراسة الأستاذ أحمد النديم المعروف بالأوساط الأدبية، صاحب عدد من الروايات المميزة، والأهم من ذلك أنه يمتلك إحدى كبرى دُور النشر في مصر، فلما انتهت من روايتها ودَّت لو أمكنها عرضها عليه عله يسمح بنشرها تحت رعاية داره.

شقَّ ذلك على نفسها لما فيه من عدم احترام لقوانين اللعبة التي تنص على التقديم عن طريق الدار مباشرة، كما أنه كان محاطًا دائمًا بالفتيات اللائي يبدو عليهن إعجابهن به، ويتخذن من السؤال عن الدراسة ذريعة لنيل فرصة للتحدث إليه، واستعراض جمالهن وملابسهن وعطورهن، فإذا سنحت لإحداهن الفرصة للتحدث معه ألقت بشباكها عليه علَّها تفوز بذلك الصيد الثمين.

كانت في أثناء جلوسها بالقاعة انتظارًا لمحاضرته تسمع وشوشة الفتيات عنه أنه أعزب، وكم هو وسيم وجذاب، كم يحببن طوله وبنيته الرياضية ذات العضلات المفتولة، ولون بشرته القمحاوي، وشعره الأسود الطويل الكثيف، وكم هي جذَّابة تلك الشعرات البيضاء التي تظهر بين خصلات شعره على استحياء، ويا ويلهن من عينيه العسليتين ذات الأهداب الطويلة، والحاجبين الرفيعين اللَّذين يفصل بينهما الرقم إحدى عشر فيُضفي عليه شيئًا من الجدية والقوة، وكم هو شامخ ذلك الأنف الطويل ذو المقدمة العريضة المرتفعة، ويا الله على فمه الصغير الذي كاد أن يخفيه شارب غزير الشعر يميل إلى الشقرة رغم سواد شعره ولونه القمحي، وكم هي محظوظة مَن سيتزوجها.

ثم ينتقلن إلى الحديث عن سبب عدم زواجه حتى يومهن هذا، أم تراه تزوج من قبل، ثم تتساءل أخرى عن كيف عرفتن أنه ليس متزوجًا؟ فتجيب إحداهن بأنه ليس هنالك دبلة بيده اليسرى أو حتى اليمنى، ثم تحكي إحداهن عن حوارها معه وكيف كان هادئًا وقورًا غاضًّا بصره حتى إنَّه لم ينتبه إلى العدسات اللاصقة ذات اللون الأزرق التي وضعتها خصوصًا لتلفت انتباهه إليها.

أمَّا عن منى فقد وجدته رجلًا في منتصف عقده الرابع أو أكثر قليلًا، طويل القامة مهندم الثياب في ثراء جَلِيٍّ، وما إن تصل إلى عنقه المائل إلى الأسفل حتى تدرك أنه قد كسره هم ثقيل، وما إن ترتفع عيناك إلى عينيه حتى ترى جيشًا مهزومًا كسر نظرته خسارة كبيرة.

نأت منى بنفسها عن الدخول في هذه الدائرة المشوبة بالشبهات، فربما ظنها تسعى لما يَسْعين إليه، كما أنه لم يكن القبول بمثل هذه الدُّور الكبرى بالأمر السهل، عليك أن تكون معروفًا وذا سمعة طيبة في عالم الأدب حتى تنشر لك مثل هذه الدُّور أعمالك، فصرفت منى نظرها عن هذه الفكرة، وبحثت عن دارِ نشرٍ يسهل الوصول إليها.

وصلت منى عن طريق الفيس بوك إلى دار نشر عرضت عليها روايتها وقبلت، كان عليها أن تزورَ تلك الدار للاتفاق على العقد وتوقيعه، حُدِّد موعد للمقابلة، كان ذلك صبيحة إحدى الليالي التي تحدثت فيها إلى أبنائها، وما يتبعها عادة من بكاءٍ وسهدٍ وزهدٍ في العالم إلا من رغبة في انقضاء ذلك الليل، ليأتي نهار تحتوي فيه فلذات كبدها في حضنها ويحتوينها في أحضانهم.

استيقظت باكرًا أو بمعنى أصح أنها تكاد تكون لم ترَ للنوم ملامحَ إلا أشباحًا، ارتدت أفخم ثيابها، التي لم تكن قد ارتدتها منذ أشهر لتدرك كم أكلت تلك الأشهر، ليس فقط من مشاعرها، بل من جسدها، كم أصبح فضفاضًا، إلا أنه كما يقول المثل إن ذبلت الوردة فرائحتها تبقى فيها.

نعم لقد نحفت، إلا أنَّ النسخةَ النحيفةَ منها أعطتها طلة أرستقراطية، زادها الحذاء ذو الكعب العالي وحقيبة اليد البسيطة فخامةً، أما عن وجهها فقد زاده الحزن جلالًا ووقارًا، ونحت النحول ملامحه فصارت مصقولة بفخامة، واحتواه حجاب كما تحتوي باقة الورد ورداتها الجميلة.

وصلت إلى الدار قبل ميعادها بساعةٍ تقريبًا، جلست بالاستقبال تحضر نفسها إلى المقابلة، وبينما هي كذلك إذ بها تغفو لدقائق، وبينما هي في غفوتها إذ بها ترى فيما يري النائم أنها تمسك بالنسخة الورقية من روايتها، وإذ بالأستاذ أحمد يُقبل عليها، وما إن دنا منها وأحست به يريد أخذ روايتها حتى تراجعت إلى الوراء مخفية روايتها خلف ظهرها، فإذا به يبتسم لها ابتسامة نثرت بذورَ الأمان في روحها، ثم مدَّ يده إليها طالبًا روايتها، تمهَّلت قليلًا حتى أثمرت البذور طمأنينة وارفة، فإذ بها تُسلِّمه إيَّاها.

أفاقت منى من غفوتها فإذ بها تجده يفتح باب الدار مارًّا بموظفة الاستقبال فتسمح له بالدخول مباشرة إلى مكتب الأستاذ جاسر صاحب الدار، بناءً على أوامره بالسماح له بالدخول متى حضر نظرًا إلى مكانته في عالم الأدب التي هي شرف كبير يطمح هو في الاقتراب منه، ولِما بينهما من صداقة دامت إلى سنوات يُقوِّي من أواصرها، بحث الأستاذ أحمد الدائم عن صحبة تجلب إليه المتعة التي يهرب إليها من أحزانه.

أَخَذَ الأمرُ منها دقائقَ لتستوعب أيًّا مما مرت به في الدقائق الفائتة حقيقةً وأيهما حلمًا، وهل حلمت حقًّا؟ وإن كانت قد رأت حلمًا حقًّا فما تفسيره؟ وكيف حضر إلى مكان وجودها بمجرد إفاقتها من غفوتها؟ لم يسعفها عقلها في تفسير تلك الأحداث المتلاحقة في هذه اللحظات الخاطفة، وما هي إلا دقائق حتى طلب الأستاذ جاسر من الموظفة السماح لها بالدخول.

دقَّت منى الباب ودخلت لتجد غرفة مكتب مستطيلة واسعة جيدة الأثاث والإضاءة، يحتلُّ مكتب الدكتور جاسر المساحة المواجهة للباب مباشرة، يتكون مكتبه من مكتب كبير فخم وكرسي ذي ظهرٍ عالٍ كالعرش يعتليه وكأنه ملكٌ، عُلِّقت على الجدار خلفه شهادات الماجستير والدكتوراه التي حصل عليها مؤخرًا، إضافة إلى كرسيين وُضِعا أمام المكتب أكثر تواضعًا وأقل فخامة من كرسيه، ثم مكتب آخر في بقية الغرفة تصاحبه بعض الكنبات الجلدية المريحة يجلس به الأستاذ أحمد يتصفَّح هاتفه المحمول، كان قد طلب من جاسر إتمام مقابلته معها أولًا بما أنها آخر مواعيده، ليتفرغا بعد ذلك لما رتَّبا له من خروج لقضاء وقت طيب في إحدى الصالات الرياضية.

«الحياة -رغم قسوتها- نعشقها، نتسلقها، علَّنا نجني من ثمارها شيئًا،
علَّنا نصل إلى النور، إلى حقيقة الأمور».

أشباه المثقفين

كان الأستاذ جاسر صاحب دار نشر صغيرة حديثة، من أصول صعيدية، لكنه تربَّى بالقاهرة في أسرة ميسورة الحال، تخرَّج من كلية التجارة، ثم أُتيحت له فرصة السفر إلى إحدى الدول العربية، قضى بها ما يقارب العشرين عامًا، كان يحبُّ الأدبَ ويتذوقه ويحاول مجاراته في قصائد يكتبها، لكنه لم يكن موهوبًا، ولم يدرس حتى ليمسك بشيء من أدوات الصنعة، فخرجت كتاباته ركيكة رديـئة.

كان من ذلك الصنف من البشر الذي يحب الشهرة والوصول إلى الطبقة الراقية المثقفة، لم يجد ما يمنعه من كسب ذلك، فمعه المال من وجهة نظره، ثم شرع في الالتحاق بكلية الآداب لينهل منها ما يمكنه من الحصول على شهادات أدبية من ماجستير ودكتوراه كبرواز له ولمكتبه ولينادِيه الناس بالدكتور جاسر.

يبقى السبب الرئيس لمساعيه هو محاولة تقليد صديقه الأستاذ أحمد الذي صعد على سُلَّمِ المجد من أولى درجاته، ليصبح صاحب واحدة من أشهر دور النشر في مصر إن لم تكن أشهرها، فقد أحب تلك المكانة الأدبية وتمناها لنفسه.

لقد كان على علم تام بأن هذه المكانة لا يصل إليها أصحابها إلا بعد أن تنقش في أرواحهم أصول العلوم والآداب والفنون بين دراسة وكتابة لنتاج نقحته الخبرة والتجربة، غير أنه كان يرى أن المال مغناطيس يمكنه أن يجذب كلَّ غالٍ وثمينٍ، وأنه ما حضر المال إلا وحضرت معه الشهرة والمكانة والجاه والسعادة وكلُّ شيءٍ جميل.

من هنا أنشأ جريدة إلكترونية عيَّن بها بعض الأدباء الذين يبحثون عن فرصة، وأشباه الأدباء أمثاله الذين يحبون الشهرة والوصول، استطاع أن يجذب إليها بعض الموهوبين المبتدئين عن طريق عمل مسابقات أدبية شهرية.

كانت منى من بين هؤلاء المبتدئين، شاركت في بعض مسابقات جريدته وفازت، شاركت لتكتشف نفسها ولتتأكد من وجود موهبتها وأنها يجب أو لا يجب أن تستمرَّ في الكتابة، ولما وجدت نفسها من ضمن باقة الفائزين في أكثر من مسابقة جرت الدماء في شرايين موهبتها، واشتدَّ عود عزيمتها وقررت كتابة روايتها التي تتعاقد بشأنها الآن.

ولما اشتد عود جريدته الإلكترونية قرر تحويلها إلى جريدة ورقية، ثم إنشاء دار نشر تحمل اسم عائلته، تواصلت معهم منى تليفونيًّا، وأخذت منهم وعودًا شفهيةً مبالغًا فيها بأنها ستكون راضية كلَّ الرِّضا عن العقد، وسيتم ما يلزم لتنال روايتها ما تناله روايات دور النشر الكبرى من توزيع على أوسع نطاق، ومشاركة بالمحافل والمهرجانات المحلية والدولية كافة، وأنه عليها أن تحضرَ إلى مقرِّ الدار بالقاهرة لإتمام كلِّ شيء، وذلك الصنف من الكلام المعسول الذي يُلْقى جزافًا دون أخذ الإجراءات اللازمة لتنفيذه.

ولما دخلت منى ألقت عليه التحية فردها باسمًا بأحسن منها، ناظرًا إليها نظرة إعجاب، وأشار إليها بالجلوس على المقعد الذي عن يمينه، ثم نظر إلى الأستاذ أحمد وكأنه يأخذ رأيه في شكلها، ولكنه كان مشغولًا بهاتفه، دار بينهما حوار طويل بدأه قائلًا: «أهلًا أهلًا، تفضلي أستاذتنا الجميلة الموهوبة».

لم تشعر منى بالارتياح إلى نظراته وكلماته فردت باقتضاب وعلى شفتيها ابتسامة زائفة: «أهلًا بحضرتك دكتور جاسر».

– من أيِّ محافظةٍ هلَّ علينا هذا الجمال؟

أزعجتها كلماته المبتذلة فقالت: «هذا الجمال كتبته في محافظة المنوفية».

ضحك ضحكة عالية صاخبة وقال: «نعم، الرواية جميلة حقًّا».

– وهل قرأتها؟

ارتبك قليلًا ثم قال بثقة زائفة: «عندنا لجنة من أساتذة مُخْتَصِّين محترفين يقرؤون كلَّ الأعمال التي تقدم إلينا، وبعد البحث والفحص والتدقيق يعرض عليَّ المتميز منها، وقد كانت روايتك من بينها، نعم لم أقرؤها، لكنهم أعطوني فكرة عامة عنها، مدحوا اللغة والبلاغة والحبكة، ولكن أَلم يلفت انتباهك أن جرعة الحزن بها زائدة عن اللزوم؟ الحياة حلوة والناس عندها من الهموم ما يكفيها، القراءة عند الناس أفيونة تخرجهم من همومهم، ثم إننا نريد مشاهدَ تجذب القرَّاء، الجمهور في أيامنا هذه يفتش عن المتعة والإثارة، فهمتِني على ما أظن».

فهمت منى ما لمح إليه وقالت بهدوء: «لن أقول إنه لا يهمني الجمهور، أنا عندما كتبت روايتي كتبتها لي ولكلِّ مَن يُشبهني، ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه بالكلمات، كما أن الصدقَ في المشاعر عند الكتابة يجذب كلَّ الجمهور أيًّا كانت ميوله، نعم إنها رواية وحبكة ويمكن التلاعب ببعض أجزائها لترضي الجمهور الذي قصدتَه، ولكنها ستصرف عنها جمهورها الأصلي الذي أريده».

وقبل أن تنهي كلامها قاطعها قائلًا: «يبدو أن خبرتك قليلة في مجالنا، أهي روايتك الأولى؟».

أجابته مبتسمة: «نعم هي الأولى».

– إذًا، اتركي لي الأمر، هو لعبتي، عندي الخبرة الكافية، أخذت روايات من إصدارات دارنا نصيبًا كبيرًا من الشهرة والمبيعات بسبب اللمسة السحرية التي نصحتُ بإضافتها إلى هذه الروايات.

أجابته منى بهدوء مشوبٌ بالغضب: «أنا لن أغير شيئًا في روايتي، لن أغير حرفًا منها».

قال محاولًا إثنائها عن قرارها: «إننا كدار نشر ندفع 25% من تكلفة نشر الرواية، ونأخذ 75% من الأرباح، لأننا ننفق الكثير لتصل الرواية في توزيعها إلى جميع مكتبات مصر، وأنا -كتقدير مني لروايتك وكمحاولة لإقناعك بإضافة بعض التحابيش لها- مستعدٌ لرفع 10% زيادة من تكاليف نشر الرواية، أظنكِ اقتنعتِ».

ردَّت منى بشيءٍ من الدهشة: «أحقًّا ما تقوله!».

– نعم، عرض خاص وحصري لك أنت فقط، عرض سخي أعرف، ولكنك تستحقينه.

– عن أيِّ عرضٍ سخيٍّ تتحدث؟! ما هذا العرض من الأساس! أحقًّا تريدونني أن أدفع ثلاثة أرباع تكلفتها، ثم تحصلون على ثلاثة أرباع الأرباح، عجيب أمركم، وهل تسير كلُّ دورِ النشر على هذا النحو الذي تسيرون عليه؟

– لأكون صادقًا معكِ، هذا ما نتبعه مع الكُتَّاب المبتدئين الذين لم يسبق لهم نشرَ أيِّ عملٍ، فإذا أقبل الجمهور عليها وطلبها، فبالتأكيد ستتغير الموازين، أمَّا الآن فنحن نجازف مجازفة كبيرة بكاتبة لم يسمع عنها أحدٌ من قبل، سيدتي الجميلة، ثقي بي، ولن تندمي على ذلك أبدًا.

تنهَّدت منى ونظرت إليه نظرة باسمة، وقالت بهدوء: «أما عن الأمور المادية فهي آخر ما يشغلني، وإن كنت أراها مجحفة قاتلة لكلِّ موهبة ليس لديها ما تدفعه، أما ما يجبرني على الاعتذار عن إتمام التعاقد مع داركم فهو رغبتكم في

التلاعب بالرواية، وما تحويه من مشاعر إنسانية، مضطرة إلى الانصراف، وأعتذر عن إضاعة وقتكم ووقتي أيضًا، بالتوفيق دائمًا لكم دكتور جاسر، تشرفت بمقابلتكم».

– أتعجَّب من موقفكِ حقًّا، لن أعتبر هذا ردك النهائي، ما زال أمامك فرصة لتفكري بالأمر، فإن غيرت رأيك فأنا عند كلمتي، اتصلي بي متى تشائين، ويسعدنا دائمًا استقبالك بالدار.

انصرفت منى وهي تجر أذيال الخيبة والإحباط، خرجت بروايتها الورقية التي دخلت بها تاركة حلمها هناك.

«ستعاني لتكون مختلفًا، ثم تصبح السراج الذي يضيء طريق القطيع».

قشة النجاة

خرج الأستاذ أحمد من المكتب خلف منى، استوقفها قائلًا: «هلَّا سمحت لي بالتحدث إليكِ قليلًا؟».

فوجئت منى به أمامها، لكنها ظنته سيحاول إقناعها بما فشل دكتور جاسر في إقناعها به، فأجابته بهدوء مشوب بعدم الرغبة في تكرار الحوار نفسه: «لا داعي إلى ذلك، لن أقبل تحت أيِّ ظروفٍ تغيير حرف واحد من روايتي للأسباب التي ذكرتها».

أجابها بكلِّ سكينة: «لن أطلب منك ذلك أبدًا، دعيني أقدم لك نفسي أولًا حتى لا يقع أيُّ لبسٍ أو سوء فهم، فلتتفضلي بالجلوس إذا سمحتِ».

ألقت عليه نظرة تحاول بها تصديق ما لا يمكن تصديقه أو حتى توقعه: «هل يجود الزمان عليَّ بأن تنشر روايتي داره! لا، لن أعلق نفسي بذلك الأمل العظيم».

جلست وهي تحاول أن تبدو غير متوترة أو ملهوفة، جلس قريبًا منها، صمت لثوانٍ كمن يرتب أفكاره، ومن أين يبدأ، ثم قال في هدوء مصحوب بابتسامة وهدوء الخبير: «أحمد النديم، أحبُّ أن أقدمَ نفسي ككاتب، ولكن معك عليَّ أن أضيفَ أنني صاحب دار النديم للنشر والتوزيع».

أرادت منى أن تخبره بأنها تعرفه لأنها إحدى طالباته بالجامعة، ولكنها آثرت ألَّا ترد إلا بالترحيب فقال: «تواجدتُ بالصدفة في أثناء مقابلتك مع الدكتور جاسر، وبالطبع سمعت ما دار بينكما من حوار، أعجبني إصرارك على عدم تغيير أو إضافة شيءٍ إلى روايتك لمجرد إرضاء نوعية معينة من القراء، وآسفني خروجك خائبة المسعى، أعلم أن أول رواية لكاتب ربما تلقى في دار لا تناسب قدرها اضطرارًا».

سكت للحظات، ثم قال مستدركًا: «وحتى أكون صادقًا معكِ، أنا لم أقرؤها، وبالتالي لا أعرف إن كانت ذات قيمة أم لا، لذلك فإن أقصى ما يمكنني تقديمه لك من دعم هو أن تسمحي لي بأخذ هذه النسخة منك لتقييمها من قِبل لجنة خاصة بتقييم الأعمال التي تقدم إلى الدار للبَتِّ في أمرها، تعلمين أنه لا مجال للمجاملات، ولا مجال أيضًا للتعسف في التقييم، أحتاج إضافةً إلى النسخة رقمَ هاتف لك، أو بريدًا إلكترونيًّا للتواصل معك، أنهيت كلامي، فهل لك من تعليق؟».

أجابته منى والدموع تكاد تتسرب من عينيها: «أقول أن ما يحدث الآن ما هو إلا أن ساقك الله إليَّ، فلك شكر لا ينتهي، ليس فقط لأنك أعطيتني فرصةَ تقييم روايتي، ولكن لأنك ودارك لا تحتاج إلى روايتي ومع ذلك اهتممت لأمري، جبرت بخاطري، شكري بلا انتهاء لإنسانيتك، وأعتذر أنني أخذت من وقتك الذي أعلم كم هو ثمين».

ابتسم ابتسامة ملؤها ذلك النوع من السعادة الذي يشعر به من أدخل الفرحة على قلب أحدهم، كتبت منى ما طلب وهمَّت بإعطائه إيَّاها فوجدته مادًّا يده إليها، خافضًا إيَّاها كمن يتلقى صدقة ليشعرها بأنها ذات اليد العليا فابتسمت، انصرفت منى وهي لا تصدق ما جرى.

انتوى أحمد عرض الرواية على لجنة الدار كما وعد منى، سأله الأستاذ جاسر ماذا فعلت، أخبره أنه أراد مساعدتها، قال جاسر: «أعجبتني الرواية غير أن صاحبتها أعجبتني أكثر، إنها تشبه رواياتك إلى حدٍّ كبير».

أثارت كلمات جاسر فضول أحمد لمعرفة ما تحكيه الرواية، قرَّر أن يقرأها هو بنفسه ليقيمها، قضى وقته مع جاسر الذي انتهى بالاتفاق على الخروج في رحلة صيد في إجازة نهاية الأسبوع.

«وبعضهم قادر على خلق المنحة من رحم المحنة».

رؤيا وأمل

عاد أحمد لبيته حيث يسكن هو وأمه، عاد ليجد تلك الأم التي هي من ذلك الصنف من الأمهات التي يعد أبناؤها ماء حياتها، تذوب ألمًا إن عكَّر صفوه مكروه، وقد طال ابنها ما تتشقق منه الحجارة، فما بالكم بقلبها، ولكنها لا تكل ولا تمل من انتظار يوم تراه فيه سعيدًا هانئًا، تراه خيِّرًا طاهرَ النفس، وهي على يقين أن الله لن يخذله أبدًا، عاد ليجدها تنتظر عودته كالعادة لتطمئن عليه حتى تستطيع النوم، فلامها قائلًا: «أما زلتِ لم تنَمِي! ألم نتفق من قبل أنك لن تسهري حتى هذه الساعة المتأخرة أبدًا!».

– ليست أنا من اتفقت معك، بل هي أمٌ بقلبٍ من حجر، لا تطلب مني ما هو فوق طاقتي، اجلس فقد رأيت لك رؤيا.

أجابها مبتسمًا: «حقًّا! أرجو ألَّا تكون مثل كلِّ رؤاك التي تزوجينني بها من امرأة جميلة».

– لا، إنها ليست كذلك هذه المرة.

– ارِوِ لي إذًا ما رأيت.

– رأيت، خيرًا، اللهم اجعله خيرًا، رأيتُ امرأة...

قاطعها مبتسمًا وقال: «ما دامت تبدأ بامرأة، فهي إذا رؤيا كلِّ مرةٍ».

– اصبر أحمد، لا تقاطعني.

– حاضر، تفضلي أمي.

في انتظار نسخة جديدة من سابق رؤاها، فأكملت: «كانت تقود سيارة وقد بدا عليها التعب والإرهاق من طول السفر، وقد كنت أنت كذلك متعبًا ولكن من السير، فلما وصلت عندك طلبت منها أن تركب معها».

قاطعها مرة أخرى مداعبًا: «تقصدين أن أتزوجها».

ابتسمت الأم ثم عادت لدِقتها في حكي ما رأت: «فبكت إشفاقًا عليك، لكنها قادت السيارة مرة أخرى دون إرادة منها، وتركتك وحيدًا فأصابك الهم والغم».

قاطعها للمرة الثالثة وهو يتنهد تنهيدة أخرجت شيئًا من همٍّ دفين: «صدقت رؤياك هنا أمي، ألم أقل لك مرارًا: لا تثقي بأيٍّ منهن».

أكملت أمه بعد ما دمعت عيناها لما رأت عليه من حزن: «واصلتَ السير خلفها ثم اختفت صورتها وأكملت أنت طريقك حتى إذا كدت تهلك من التعب والعطش –بعد الشر عنك– وجدت عين ماء ووجدتها عند تلك العين تنتظرك تحمل لك الماء، فتشرب وتسقيها».

أجابها مبتسمًا محاولًا إخفاء همه كعادته: «إنَّ رؤياك تصلح أن تُكتب رواية أمي، إنها جميلة حقًّا، ولكنها لا تناسبني للأسف».

فلما وجد الحزن يرتسم على وجهها داعبها قائلًا: «أكانت جميلة بالدرجة التي ترضيكِ أم لن توافقي عليها إن أردتَّ الزواج منها».

أجابته بلهفة وكأنه ذاهب إلى خطبتها: «كانت زرقاء العينين، بيضاء طويلة...».

قاطعها ضاحكًا: «ما شاء الله! ألم تخبرك بعنوانها لنذهب إلى خطبتها حتى لا نضيع وقتنا في السير والتعب والعطش!».

أجابته بجدية: «لا لم تخبرني، ولكن انتظر، تذكرت شيئًا، عندما تركتكَ ناديتها أنت باسم منى راجيًا منها أن تأخذك معها».

فقال محاولًا مداراة ابتسامته وكأنه يتحدث في أمرٍ ذي شأن: «أرى أننا اقتربنا من الوصول إليها، اسمها منى، زرقاء العينين، بيضاء، طويلة، نستطيع أن نكتب إعلانًا في الجرائد بهذه المواصفات لتحضر إليك كلَّ من لها هذه الصفات لتختاري أنت مَن رأيتها».

تداركت أمه سريعًا: «ولكن كيف لها أن تتركك وأنت في هذه الحالة، كيف هنتَ عليها؟!».

– نعم عندك حق، كيف هنت عليها! لن أكتب الإعلان ولن أتزوجها.

ضحكت أمه وهمَّ واقفًا، قَبَّل يدها ورأسها وقال لها مواسيًا: «أنتِ كلُّ النساء في عينَيَّ، ما دمتِ معي فلا تقلقي عليَّ، لا تشغلي بالك أكثر مما ينبغي بأمر زواجي».

– لن يرتاح بالي إلا عندما أزوجك بمن تعوضك عن معاناتك، ثم أرى أولادك لأموت مرتاحة البال.

تنهَّد تنهيدة يائس، وقال وهو يبتسم محاولًا مداراة الحزن المقيم بعينيه عنها: «حاولي أن تعرفي تفاصيل أكثر عنها هذه الليلة لنصل إليها سريعًا ليرتاح بالك».

بادلته الابتسام، ذهب إلى غرفته ومعه الرواية لعله يقرأ منها شيئًا قبل نومه كعادته في القراءة كلِّ ليلةٍ قبل النوم.

«ننير وننطفئ، نقوم وننكفئ، إلى الله نلتجئ، على الصبر نتكئ».

بائع السعادة

خلع أحمد ملابسه، أخذ حمامًا دافئًا بحمامه المرفق بغرفة نومه، صلى ركعات أتبعها بدعاءٍ لأمه بأن يحفظها الله له، وأن يريحَ بالها ويرزقها الرِّضا بما هو عليه، فكلُّ معاناته تتلخص في وجهها الحزين، ولا يعلم كيف يقتل أملها بأن يخبرها بحقيقة عدم قدرته على الإنجاب، لقد كُتب عليه ذلك، فكيف له أن يعوضها عن رؤية أحفادها!

دخل فراشه وأمسك بالرواية، وجد الإهداء في أولى صفحاتها.

«إلى روحي البريئة التي رحلت، ونفسي القلقة التي لا ترحل أبدًا، وفؤادي الرَّحَّال بحثًا عن بيتٍ بلا عنوان، وقلبي المطمئن دائمًا بالإيمان، وإلى كلِّ مَن هم في مثل حالي».

شدَّه هذا الإهداء شدًّا، أحسَّ أنه في مثل حالها، وأن هذه الرواية مهداة له، ألقى نظرة عامة على الرواية متفحصًا صفحاتها فوجد كلَّ فصلٍ منها مختومًا ببعض الأبيات الشعرية، التي إن لم تكن موزونة عروضيًّا بشكلٍ كاملٍ، إلا أنها تحمل معاني مؤثرة بعمق، ففي أول فصل مثلًا كتبت:

أنا خِرقَةٌ بَالِيَة مَلآنَةٌ بالنُّقوش
ما عدتُ أَصْلُحُ ثَوْبًا بَلْ بالثَّرى مَفْروش
تَدُوسُني الأقدام أو مَمْسَحًا للرُّتُوش
أرضٌ بَوَارٌ صِرت أو قُلْ بَقَايا جُيوش
مَهْزومَةٌ من عدوٍ يرقص بِوَجْهٍ بَشُوش.

لمسته كلماتها، نعم إنه هو تلك الخرقة البالية، إنه هو تلك الجيوش المهزومة من عدوٍ غادرٍ هزم روحه وداس بحذائه سعادته، انتقل إلى الأبيات في الفصل الثاني فوجدها تكمل ملحمته:

أنا العيونُ السَّهَارى أنا الدُّمُوعُ الحَيَارى
أنا قتيل يُوَارى أنا عار يَتَوَارى
جَرَّدْتَني من أماني فما لقلبي دارا
كَنْزٌ أنا في الخَلاءِ للسَّارِقِينَ مَزَارا
خَمْرٌ أنا في الكُؤُوسِ يَشْرَبْن كُلُّ السَّكَارى
يَدْنُونَ مِنِّي كعسلٍ ما ذُقْنَ إلا مَرَارا.

نعم، أنا عار يتوارى، أتوارى بالضحك واللعب والصيد والعمل، جردتني من أماني حقًّا فما أرى لقلبي دارًا.

ذهب سريعًا إلى الفصل الثالث ليجد نفسه هناك:

أَيَا يَوْمِي التَّعِسْ أيا غَدِي المُسْتَبَاح

إن أملي غادٍ ومأتَمي قد لاح

قد غَدَوْتُ رهينة لِعُصْبَةٍ بِسِلاح

تشهره في وَجْنَتي تقتل نسيمُ الصباح

تقولُ عُمْري قصيرٌ وريحُ قبري فاح.

يَدْنُونَ مِنِّي كعسلٍ ما ذُقْنَ إلا مَرَارا.

نعم إن غدي مستباح، فلم تقنع أحزاني بيومي وما قبله فحجزت غدي، فلا أمل للسعادة بالفوز به، تذكر حينها كلماته هو التي كتبها في إحدى رواياته التي تقول: «ليت لي في عالمِ الأحزانِ بيتًا، لي قصورٌ شامخاتٌ لو دَرَيْت، سأموت أنا وتبقى هي شاهدًا على العصر، عصرُ قلبي، ليبقى خرقة بالية تصلح لمسح كلِّ ألوان السعادة التي بعثرتها ريشة الأيام وهي ترسم طريقيَ المسدود».

انتقل بعيدًا إلى الفصل الخامس عشر لعله يجد مخرجًا من ذلك الطريق الوعر، فوجد هذه الروح الجديدة التي مسحت عنها ما مضى من حزن:

تشابكت يدانا وعَدَوْنا فَرِحين

تُقَبِّلُ ثَغْرَ خَدَّينا أغصانُ البساتين

فنغلق باب عينينا ونضحك حَالِمين

تُرى تَدومُ فَرْحَتُنا أم تُفَرِّقُنا السنين!

فحدَّث نفسه: «عن أيِّ فرحةٍ تتحدثين، أنا لست هنا».

فلما زاد عليه الوجد ذهب إلى الفصل الأخير فوجد أبياتًا تختتم الملحمة:

والآنَ تَدْنُو المَنِيَّة ماذا تُراكَ جَنَيْت

هل مِن صديقٍ حميم! كم بالوفاءِ أَبَيْت

هل من دخولِ الجَنَّة عن بَابِها وَلَّيْت

من جَنَّتي قد خَرَجْت وللعذابِ أتَيْت

فَذُقْ صَنيعَ يَدَيْك وعَان ما عَانَيْت.

فحدث نفسه قائلًا: «لا يهمني إن كانت ستتذوق صنيع يديها أم لا، أما عني فما الذي صنعته يداي لأتذوق كلَّ هذا المر!».

وضع الرواية جانبًا فاستضافته الذكريات في بيتها، تلك الأطلال القائمة بقلبه، تذكر قصته منذ البداية عندما أنهى سنوات الجامعة وعُيِّن معيدًا بكلية الآداب قسم الفلسفة وكانت هي إحدى طالباته، كانت تذهب إلى مكتبه لتسأله عن بعض القضايا الفلسفية، كم كانت جميلة يسلب جمالها العقول والقلوب، كم كانت مرحة محبة للحياة، فإن جالسها لدقائق تذوق طعمًا منعشًا للحياة لا يُقاوم.

أدرك مع الوقت أنها لا تهتم بالأمور الفلسفية بقدر اهتمامها به، نبهته إلى أنه يجب أن يكون في مكانة أعلى من ذلك، ولن يصل به إليها إلا المال، حكت له كم عانت فقرَ عائلتها، وكم كانت زميلاتها اللائي هن أقل منها في كلِّ شيء أفضل منها في كلِّ شيءٍ فقط لأن أسرهن لديهن ما يكفي من المال.

جعلت زياراتها له منتظمة كمخدر، ثم انقطعت فجأة، فإذا به يعاني معاناة المدمن، أكلان في قلبه، ما مرَّ يوم دون أن يراها إلا وهجره النوم وراحة البال، وبعد أسبوع من الغياب لم يستطع المكابرة وادعاء الاستغناء، بدأ في البحث عنها وطلب حضورها متعلِّلًا بأسبابٍ واهية كتنظيم بعض الأعمال الإدارية لدفعتها وغيره لمجرد أن يراها وتمتزج كلماته بكلماتها ونظراته بطلتها.

ولما انتهت العلة غابت، فقد ضايقها أنه لم يأخذ أيَّ خطوة جادة نحوها، قررت أن تزيد ناره اشتعالًا، كانت في أثناء المحاضرة تجلس إلى جوار بعض من زملائها الذكور، تتحدث إليهم وتنثر ابتساماتها عليهم.

اشتعلت نار الغيرة بقلبه، تحدث إلى أمه بما يفيض به قلبه، راق الأمر لها وحثته على تحديد ميعاد معها للتقدم إلى خطبتها، قابلها معلنًا حبه لها، طارت فرحًا، أخبرته كم طال انتظارها لهذه اللحظة، سعد لسعادتها ورغبتها به وتقدم لخطبتها هو وأمه، انقبض قلب أمه منها عندما رأتها لا تدري لماذا، لكنها آثرت ألَّا تعكر صفو فرحة ابنها، بدأت في رسم لوحة لحياتهما معا، ڤيلا وسيارة وعضوية بأكبر الأندية ومجوهرات، ضحك من أحلامها إلا أنها خططت له الطريق لها قائلة: «لا بدَّ من مشروع يدر عليك دخلًا كبيرًا».

أخبرها أن السعادة ليست في المال، أنكرت كلماته بشدة، التمس لها العذر لما حكته عن معاناتها مع الفقر، أحب تحقيق أحلامها، لكن من أين له ذلك! هو فقير وإن لم يكن حاله سيئًا كحالها، استمرت خطبتهما لعام لم ترَ فيه أيَّ جديد، بدأت تتململ منه، قررت فسخ الخطبة، وما هي إلا أيام حتى وجدها مع زميل لها كان ابنًا لرجلٍ ثري، عانى ما لا يتحمله قلب، غير أن ما جرى طاب لأمه وجعلها تبوح له بما أخفته من قبل، لكن ما باحت به لم يغير شيئًا مما في قلبه.

ما كان يؤلمه هو أنها كانت ترى فقره نقطة سوداء في ثوبه الأبيض، إلا أنه كان يرى صغر سنها عذرها الوحيد، كان يفكر دائمًا كيف يعلمها أن حبهما لا يُقدر بثمن ولم يهتدِ إلى طريقة، لم يكن يعرف أن القدر يخبئ له رجلًا يستميلها بماله، فتتركه وتختاره.

أدرك الحكمة رغم وجعه، علم أن دوره الآن هو الانتظار والمراقبة، وما هي إلا أشهر معدودات بحسابات الزمن والدهر كله بحسابات قلبه حتى عادت إليه باكية وقالت: «لم أذق طعم الحب إلا معك».

قفز قلبه فرحا لكنه تمالك نفسه وقال: «وماذا عن المال؟».

أجابته وهي تقترب منه بوجهها البهي: «لا قيمة له من دونك».

ودَّ لو احتواها بين ذراعيه ولكنه راوغها قائلًا: «ولكنني الآن أحب امرأة غنية».

ثارت كطفلة ماكرة خطفت منها لعبتها: «سأقتلك وأقتلها».

أعجبته اللعبة وأسعده تمسكها به فأكد قائلًا: «لن أتزوج إلَّا هيَ».

ردت في عناد: «لن تتزوجها».

باغتها قائلًا: «إذاً أنت لا توافقين على زواجي منكِ!».

فقالت في ضعف وانكسار: «لكنني لست غنية، أنا لا أملك شيئًا».

فقال وهو يفيض حبًّا وضعفًا: «ألا تملكين قلبي!».

فقالت والفرحة تغمرها وهي تحاول الاعتذار عن تركها له مبدية ندمها وتقديرها: «أنا أغنى الناس».

نعم، غفر لها ما كان منها، كان يعاملها كطفلة عليه أن يتغافل عن هفواتها، ويعلمها ما هو الصواب وما هو الخطأ، لم يخطر بباله أن هناك طباعًا لا تتغير، وأن الحية التي ربيتها ودربتها منذ مولدها قد تلدغك يومًا.

«رضيتُ لقلبي -يا دنيا- بأن يكون خاتمًا بإصبعك، فلا تخلعيه».

مبنيٌّ للمجهول

حسبها أحمد عجينة لينة يستطيع تشكيلها كما يشاء، لكن ليس من أحدٍ بهذا الوصف، فما هي إلا أيام حتى عادت لحديثها عن المال، فلما استيأس من قدرته على إخراج المال من قلبها، فكَّر مليًّا كيف يُحقق أحلامها.

راودته دائمًا فكرة دار النشر والتوزيع التي كانت حُلمَ أبيه الكبير، بدأ في تمهيد الطريق له، تزوجا، شربا معًا من نهر السعادة ما يروي ظمأ قلبيهما، كان كلُّ شيءٍ معها حلوًا، تطبخ أشهى الطعام ليكتسي عوده الجاف باللحم، أنيقة في ملبسها، يتلقى جسدها منها اهتمامًا بالغًا فتسكره نعومة ملمسه، فراشة في حركاتها تحط عليه فيهبها رحيقه، متدللة في طلباتها فيلبيها ليرى الفرحة في عينيها فيشبع ويطمئن، ملاكًا في نومها يتهدل شعرها على وجهه فتسدل عيناه أستارها على تعبه، مغرمة في حبها تأخذ وتعطي بلا تَصَنُّعٍ أو حياءٍ فتتفجر شهوته وتنساب نشوته، كان حضنًا منها كجنة تحتويه ويحتويها، حتى آراؤها التي يختلف معها بها كانت حجرًا يلقى في ماء قناعاته الراكد ليعطيها حياةً ونشاطًا بعد خمول وكسل.

بدأت في التمرد بعد عامٍ من الزواج، كانت كثيرًا ما تردد عباراتها «أين المال؟ أريد أن أهنأ بشبابي»، حاول زرع الصبر في أحلامها دون جدوى، مرَّ عامٌ آخر وازدادت تساؤلات أمه عن الحفيد، إلا أنها لم يكن يشغلها هذا الأمر، كانت لا تريد أن يعيش أبناؤها فقراءً كما عاشت هي على الرغم من أن دخله ليس بالقليل كأستاذ جامعي إضافة إلى الدخل الذي تدره الدار.

استعانت بإحدى وسائل منع الحمل طوال تلك الفترة، ولكن إلحاحه وأمه لم يتوقف حتى توقفت عن استخدامها، ولما مرت شهور دون حدوث حمل ذهب إلى أحد الأطباء لإجراء الفحوصات اللازمة دون أن يخبرها، لم يرد جرح مشاعرها إن بان له أن العيب منها، فإذا به يكتشف عقمه، ساء ما علم، فقد كان عاشقًا للأطفال، وينتظر ذلك اليوم الذي يناديه به أحدهم بلقب بابا، ثم عن أمه التي لا تكل أمانيها عن مراودتها عن حفيدها، لم يخبر زوجته لِئَّلا يزيد من شعورها بالحرمان، ولم يخبر أمه لأنه لم يقوَ على ذلك.

مرَّ عامٌ ثالث وهما على هذا الحال، اجتهد فيه ليوفر لها المال، بدأت الدار تدر دخلًا، ولكن أين هو هذا الدخل من أحلامها، كان يمضي وقتًا طويلًا في العمل وتمضي هي وقتها مع صديقاتها كما كانت تخبره دائمًا.

وفي إحدى الليالي التي حولت حياته إلى جحيم أتته غاضبة، حاول معرفة سبب غضبها فأخبرته -بعد أن أخذت عليه عهدًا أن يساعدها في تنفيذ ما تريد- أنها حامل في شهرها الأول، سكت محاولًا فهم ما يجري، أهي حقًّا حامل؟ هل أصبح قادرًا على الإنجاب؟ فسألها: «كيف علمت أنك حامل؟».

- تأخرت الدورة الشهرية فأصابني القلق، أتيت باختبار حمل من إحدى الصيدليات فإذا به يعطيني نتيجة إيجابية.

- لا بُدَّ أن تزوري طبيبة نساء لتتأكدي.

- أليس ما قمت به يؤكد الحمل؟

- لا، ليس كافيًا.

- صدقت، غدًا أزورها، لم تسألني عما أريد؟

- وماذا تريدين؟

- أن نتخلص منه إن كان موجودًا بالفعل.

- لستِ حاملًا على ما أظن.

- على أيِّ أساسٍ بنيت ظنك هذا؟

- إنه مجرد ظن، دعينا نتأكد غدًا.

بات ليلته وهو يظن أنها ليست بحامل، أو ربما حُلَّت مشكلته وأصبح بإمكانه الإنجاب، ذهبا إلى طبيبة النساء وتأكدا من وجود الحمل، لم يعرف ما هو شعوره في تلك اللحظة، أعادها للبيت سريعًا، ولما حاولت فتح موضوع التخلص من الحمل طالبها بتأجيل الحديث عنه الآن لأنه عليه الذهاب لأمرٍ ضروريٍّ.

تركها وذهب إلى طبيبه لإجراء تحاليل جديدة تُبيِّن وضعه، هل أصبح قادرًا على الإنجاب؟ مرَّ يوم كان فيه في انتظار نتيجة التحليل تجنب فيه الحديث معها، عاود الذهاب إلى طبيبه ليؤكد له أن إنجابه أمرٌ مستحيل، تركه وذهب إلى غيره ليحصل على النتيجة نفسها، ذهب إلى ثالثٍ فلم يأْتِه بجديد.

أدرك ما هو فيه من خذلان، دارت به الدنيا ثم ألقت به في أرضها السابعة، قادته قدماه إلى حيث لا يدري، أفلت من حادثة بأعجوبة في أثناء سيره هائمًا على وجهه، جلس على الرصيف محاولًا فهم محله من الإعراب في جملة زوجته، باحثًا عن الفاعل لهذا الحمل، هذا الحمل مبنيٌّ للمجهول، ولا بُدَّ أن يعرف فاعله، وعندما يحين الوقت ليصبح هو الفاعل فماذا عساه أن يفعل بهم ثلاثتهم -هي والفاعل وما في أحشائها-عندما يتبين له الحق؟

نهض من مقامه قاصدًا أحد الفنادق، حجز به غرفة ليومين، اتصل بها ليخبرها أنه سيقضي يومين خارج القاهرة لظروف في العمل، حاولت أن تتبين الأمر فلم يبُح لها بأيِّ تفاصيل، قرر مراقبتها، أوقفت تاكسي، أوقف آخر وتتبعها حتى وصلت إلى «فيلا الدويري»، لمع الاسم في ذاكرته، إنه نفسه من كانت على علاقة به عندما فسخت خطبتهما معه ثم عادت له مبدية الندم في حق حبهما، وما هي إلا دقائق حتى خرجا معًا بسيارته المرسيدس، أوقف تاكسي آخر وتتبعهما حتى مطعم شهير حيث يطعم كلٌّ منهما الآخر بيده ثم عاودا أدراجهما إلى الفيلا آخر الليل.

اتصل بها فإذا بها تتحدث إليه بكلِّ أريحية ممزوجة بالعصبية المصطنعة أن كيف يسافر فجأة هكذا دون أن يعلمها مسبقًا بذلك، وأنها قررت المبيت في بيت أهلها، فهي تخاف المبيت في الشقة وحدها، ظل منتظرا خروجها فما خرجت إلا التاسعة صباحًا.

أحسَّ في هذه اللحظة بباب قلبه الذي طالما أغلق عليها ينفتح لتخرج منه غير مرغوب في عودتها، استقرَّ قلبه بعدما أجهدته سرعة دقاته لأيام فما عاد يدق لها وكأنه ما عرفها يومًا، لم تعطه نفسه حرية اتخاذ قرار تحديد مشاعره تجاهها الآن، كما أنه لم يجد نفسه بحاجة إلى اتخاذ أيِّ تصرف متهور، حسمت نفسه الأمر دون تفكير.

حاول الحصول على عقار للإجهاض بعدما تأكد من إجازة بعض علماء الدين إجهاض الحمل قبل بلوغ أربعين يومًا حتى وجده بعد معاناة، استمرَّ مبيته بالفندق ليومين، ولم يهتم بمراقبتها ثانيةً، فقد شعر أنها لم تعد تخصه في شيء، عاد لها متظاهرًا باشتياقه لها دون أن يمسها: «لقد انتقل حبي لك لمرحلة جديدة لم يبلغها من قبل».

قالت بثقة من يملك زمام قلبه: «لم أرَ معك دليلًا على أقوالك».

قالت كلماتها وهي تنظر إلى يديه الفارغتين من هدية، أخرج لها العقار من جيبه كمفاجأة فتهللت فرحًا، سألها وهو يخترق عينيها بنظرة قاسية لم تعهدها منه قبلًا-وكأنه يحذرها من شهادة الزور- أوصلتها إلى أعماق قلبها حيث يقبع ضميرها الذي أطالت محبسه: «هلَّا أخبرتني إلى أيِّ درجة وصل حبك لي؟ أهو في صعودٍ أم هبوط؟».

صمتت للحظات طويلة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم قالت بصدقٍ جليٍّ: «عندما أختلي بنفسي أراني بغابة أحلامي حيث تتخطفين أفكاري المتوحشة فأَهُمُّ بالفرار منها إليك حيث أماني، كثرت جروح نفسي وتتابع سقوط جسدي حتى استسلمت لها».

- إذًا صارت المسافة بيننا أميالًا وأميالًا، فأنا أصعد وأنتِ تهبطين.

غاصت بكلماته فانحدرت دمعاتها، قضي الأمر بعد مرور أسبوع، أسقط الحمل سرًّا كما وقع سرًّا، لم يُطق التحدث إليها بما علم، انتظر ميعادها الأسبوعي لزيارة أهلها، أوصلها ولم يدخل معها كعادته متعلِّلًا بانشغاله، وما هي إلا ساعة حتى وصلتها ورقة طلاقها غيابيًّا على يد محضر كان قد أجرى إجراءاتها خلال هذا الأسبوع الذي أجهضت فيه حملها.

اتصلت به فلم يرد، لكنه أرسل إليها وإلى أبيها صورًا وفيديوهات لها مع عشيقها كان قد التقطها لهما وهما يتضاحكان ويطعم كلٌّ منهما الآخر، ثم وهي ترافقه دخولًا وخروجًا من وإلى الفيلا معلقًا: «سترتك فلتستري على نفسك، أما إن أردت غير ذلك فلا تلومي إلا نفسك».

قضي الأمر واستوى على خيبته وقال بُعدًا للقوم الظالمين، لم يسمع منها أو من أهلها كلمة واحدة لما يجاوز الأسبوع حتى أتاه أبوها منكسرًا شاكرًا له تستره على ابنته فلم يُجِبه بكلمة حتى انصرف.

لم يعد يطيق رائحة شقته، فكلما ولجها اشتم رائحة نتنة لا يطيق معها البقاء بعدما كانت روضته العبقة، أغلق الشقة عارضًا إيَّاها للبيع، عاد لبيت أمه، تفاجأت به حاملًا حقائبه، سألته: «ما الأمر وأين زوجك؟»، فأجابها بأنه طلقها وطلب منها ألا تسأله عن أيِّ تفاصيل، قالت: «كيف حدث ذلك؟ سأتصل بها لأصلح ما بينكما»، فإذا به ينهار باكيًا كما لم يبكِ من قبل وسط ذهول أمه حاكيًا لها ما جرى بكلِّ تفاصيله إلا أنه لم يخبرها بقصة الحمل أو أنه لا ينجب، أشفق عليها من أكثر من صدمة، لم تصدق أمه ما قال، أراها الصور والفيديوهات حتى جلست وقد نزل عليها سهمُ الله فلا تنطق ولا تتحرك حتى أفاقت لتجد نفسها وحيدة.

جرت إلى غرفته لتجده يصلي والدموع تنهمر من عينيه، فلما انتهى طلبت منه المبيت معها في غرفتها فاستجاب لها دون مقاومة، أخذت تتلو عليه آيات مما تحفظ من القرآن حتى غاب وعيه بعد أن ظلَّ يقظًا لا يقرب النوم منذ أسبوع إلا إذا استرقه النوم دون وعي منه للحظات ليفيق منه على خيبته، نام وظلت هي بجانبه حتى مغرب اليوم التالي، فلما أفاق وجدها نائمة ودموعها قد بللت وسادتها.

طلب من أحد المطاعم توصيل غداء فاخر له ولأمه، فلما أفاقت أعدَّ المائدة ودعاها مبتسمًا فابتسمت له، أكل بشراهة كما لم يأكل من قبل حتى امتلأت بطنة عن آخرها، ثم سرح لدقائق فيما مضى فإذا به يجري إلى الحمام يتقيأ ما أكله وأمه تراقب ولا تعلق، أدار التلفاز على فيلم كوميدي واندمج معه ليضحك بملء فِيهِ على ما يستحق وما لا يستحق،

وكلما التفت إلى أمه بادلته الضحكات حتى إذا ما التفت عنها انهمرت الدموع من عينيها فتمسحها سريعًا لئلا يراها، وقبل أن ينتهي الفيلم غطَّ في نوم عميق، غطته أمه وتلت عليه ما تلته سابقًا.

«وكم تنزوي أرواحنا في زوايا الخذلان».

أستار الابتسامات

هزمته امرأة فقرر الانسحاب إلى الأبد من هذه الحرب وكلِّ الحروب، لقَّنه عدوه الذي كان كلَّ جيشهِ وعتاده درسًا قاسيًا جعله يعيش وحيدًا في قلعة حصونها الاستغناء وعمادها الخذلان والخيبة، لكن النفس الإنسانية لا تتحمل الحزنَ كلَّ الوقت، تبحث عن مَخْرج غير ذلك الذي أوصدته، وكان هذا المخرج هو الأصدقاء والأهل والعمل والإحسان إلى المحتاجين والجمع بين القلوب العطشى بكل ما يستطيع، لم تحوله الهزيمة إلى منتقم قانط لأنه كان مدركًا أنه اختار الهزيمة حتى لا يخرج من المعركة ظالمًا، فقد كان ذلك أثقل عليه من أن يخرج منها مظلومًا، كان يعلم أنه لو ترك العنان لنفسه بطريق الانتقام فلن يكفيه قتلها وقتل شريكها معها فيخسر آخرته التي هي أغلى عنده من الدنيا وما فيها.

ظن الجميع أنه ما يلبث أن يمرَّ بعض الوقت حتى يعاود الكرَّ بعد الفر، لعلهم لم يدركوا كيف لجندي سلبت منه كلُّ أسلحته وطعن طعنات قاتلة ألَّا يهرب، نعم لقد هرب وظل هاربًا إلى يومنا هذا منذ عشر سنوات، كانت أمه أول الظانين به هذا الظن الحسن، سعت جهدها لتزوجه لترى سعادته وأحفادها، فمرت هذه العشر سنوات على ظنها فطحنته وأحالته إلى كحل أسود تكحل به عينيها فتذرف الدموع الحارقة التي تطفئ شموع الأمل، وتخنق أحفادًا ودَّت لو تراهم، لقد وُئدت قبل أن تولد.

يظهر أمام الناس بضحكات يعلو صخبها ضوضاء الحياة كمهرج يؤدي فقرته على خشبة المسرح، حتى إذا ما اختلى بنفسه تجرَّع مرَّ كأسه وانطوى في فراشه خانقًا كلَّ براعم الأمل التي تنبت داخله، كتلك التي تنبت في شجرة قطعها الحَطَّاب ونسيها، فتنبت فيها البراعم التي تتغذى على الشجرة الأم، وهي لا تدري أن أمها التي ترضعها من صدرها قد ماتت، وفي كلِّ مرةٍ تموت فيها البراعم يغطي رمادها كلَّ أملٍ وليد، ويضيف سنوات جديدة من الوحدة والجدب والفناء.

كان صاحبَ دار نشر كبيرة استطاعت خلال سنوات قليلة أن تكون في مصاف كبرى دور النشر المصرية والعربية، شجرة عميقة الجذور رواها العطاء والعطف على المحتاجين واحتواء كلِّ مجتهد دؤوب، فروعها بيوت مفتوحة وصدقات جارية تزيدها صلابةً وضربًا في الأرض.

مات أبوه وهو في العشرين من عمره، كان يعمل مدققًا لغويًّا في إحدى دور النشر العريقة، كان يجالس المسؤولين بها على مدار ساعات العمل يتبادلون أطراف الحديث، حاز ثقة الجميع لأمانته وإتقانه لعمله وإيثاره لمصلحة العمل على مصلحته، فكم قضى من الليالي في الدار لإتمام أعمال كان بإمكانه تأجيلها لغده حتى تلتزم الدار بمواعيدها، وتنشر كلَّ ما هو جديد لجذب القارئ، كان مهتمًا باللغة العربية وقواعدها وبقراءة كلِّ ما ينشر من كتب، ثم ينتقي منها الأفضل ليقدمه هدية لابنه الوحيد.

مات قرير العين شاكرًا ربه لأنه أنبت منه نبتة صالحة، كان رغم تواضع جيبه معطاءً كغني كريم، سار أحمد على دربه، فإنه أصبح غنيًّا بعدما أنشأ دارًا للنشر أساسها الخبرة التي اكتسبها من أبيه، أصبحت داره ذات مكانة بين دور النشر كقلعة الملك وسط بيوت الرعية، علَّم نفسه بنفسه لغات عدة، أقام بها صالونات أدبية دعا إليها الأدباء

والمثقفين، تردد عليها كبار الكتاب حتى ذاع صيتها، أقام مسابقات أدبية شارك بها المبتدئون والمحترفون، نشرت بها أعمال أدبية ذات قيمة لكُتَّاب ذوي قامات عالية في عالم الأدب.

مرت الأيام والشهور، كان قد باع الشقة واستثمر ثمنها في الدار، أصبح يقضي جلَّ وقته في العمل والفسح والأندية الرياضية ليعود للبيت منهكًا ليأخذه النوم ليوم جديد ودوامة جديدة، مرَّ العامُ تلو الآخر حتى يومنا هذا، عشر سنوات وأكثر تنامت فيها داره حتى صارت من أشهر دور النشر، وتنامت ثروته حتى أصبح من الأغنياء.

تنامى كلُّ شيءٍ، وكانت آلامه وآلام أمه أكثر ما تنامى، ظلت أمه طوال هذه السنوات تحثه كلما سنحت الفرصة لذلك على الزواج لترى أبناءه قبل موتها، لا تتوقف عن البحث عن عروس له تليق بقلبه الكبير فلا تجد منه إلا الإحجام، ولكنها لم تيأس ولم يتوقف دعاؤها له قطُّ، كثيرًا ما تستيقظ من نومها على رؤيا تبشرها بزواجه فترويها له فيتلقاها ضاحكًا، ثم يختلي بنفسه متفقدًا إيَّاها ليجدها شجرةً لا فروع لها تقف في مهب الريح تنتظر السقوط بين يدي حطَّابٍ يضرم بها النهار فتغدو رمادًا.

وبينما هو يتجرَّع كأسَ ذكرياته المر، دقت الساعة تمام الواحدة صباحًا، مسح دموع عينيه التي تختبئ طوال اليوم عن أعين الناس خلف أستار الابتسامات والمرح، وما إن تجده وحيدًا حتى تخرج من محبسها.

«نداء إلى كلِّ المسافرين في طريق الذكريات، اربطوا الأحزمة، فطريقنا ممتلئ بالمنعطفات والمطبات».

غرباء

ولما مرَّ أسبوع كان قد أنهى الرواية ذات النهاية المفتوحة كجرحه، نظر إليها نظرة ناقدة، جمع بعض الملاحظات عليها ثم عرضها على لجنة التقييم بالدار، دارت الرواية بالدورة الطبيعية للدار في اختيار الأعمال، لم يقع عليها الاختيار لعدم اتباع الشعر بها للقواعد العامة للبحور الشعرية، وفيما عدا ذلك فهي تستحق النشر، أشار أحمد بأنه يمكن التواصل معها بهذا الخصوص فربما أمكنها تسوية الأمر.

اتصلت بها الدار فقالت أنها تتبعت الإحساس فقط في كتابة الشعر، ولم تكن على دراية بقصة البحور الشعرية؛ فهي لم تتخصص في اللغة العربية، طلبت منهم إعطاءها مهلة لتعيد صياغته وتمت الموافقة، وفي خلال شهر كانت قد قامت بما يلزم، قامت الدار بجمع تقرير عن منى كعادتها مع كتابها الجدد، أسرتها، شهاداتها، تواصلها مع جمهور لها على وسائل التواصل الاجتماعي، قدم التقرير إلى أحمد الذي بدوره اطلع عليه باهتمام؛ ليجدها تسير معه في طريق المعاناة، وإن اختلفت الخُطَى والمسلك، طلقها زوجها ثم أعادها له وتزوج عليها ثم أخذ أبناءهما وسافر، لديها ورشة لحياكة وبيع الملابس، لديها صفحة أدبية على الفيس بوك أنشأتها منذ عام، ثم هي الآن تعرض أولى رواياتها على دور النشر، تعيش مع أمها وإخوتها الذكور في بيت العائلة، أشفق عليها وعلم أنه اليد التي لا بُدَّ أن تمتد لها.

تمت الموافقة النهائية، التي كانت قطرة ندى تبرد شيئًا من نار قلبها المحترق، تم تحديد ميعاد زيارتها للدار للتعاقد، حضر أحمد الاتفاق كمالك ورئيس مجلس إدارة الدار، كانت مميزات العقد فوق ما كانت تحلم به، وقعت العقد وشكرت أحمد على ما أسبغه عليها من عطف ورعاية، أجابها مشجعًا بأنه قرأ الرواية بنفسه، وأنها لمست مشاعره بما فيها من معاناة، تنهدت وقالت: «حاولت ألا تحمل كل هذا الكم من المعاناة، ولكن خيال الكاتب لا يخلو من واقعه، إن أبطال الروايات ما هم إلا نحن بأسماء مستعارة».

– وما الخيال إلا حقائق، امرأة وضعت مساحيق على وجهها لتتخفى من أعين الناس، والقارئ الفطن هو من يمسح عنها مساحيقها ليراها على حقيقتها.

– نحن نضع المساحيق ليس في رواياتنا فقط، بل في واقعنا كذلك، وحين يأتي الليل ونختلي بأنفسنا، ونمسح عنَّا ما وضعناه ندرك كم نحن غرباء في هذا العالم، غرباء لا يعرفنا ولا يفهمنا أحد، غرباء منكسرون وما من صديق حميم ولا جابر رحيم، غرباء حتى عن أنفسنا.

– قلت ما أردت قوله وخانتني الكلمات.

– حتى الكلمات تخوننا، ولكني ألتمس لها العذر، إنَّ الشعورَ كلما ازداد عمقًا عجزت الكلمات عن وصفه.

– عرفت من خلال تقرير الدار عنك أنك مررت بظروف قاسية.

اغرورقت عيناها بالدموع، لم تحرك شفتيها لئلا تخونها دموعها، فقال حانيًا: «فلتعلمي أنك لست وحدك بعالم الأحزان، فلتحمدي الله، ولتنظري لمن سبقوك إليه، لمن طال مقامهم به حتى استيأسوا».

أحست منى أنه يتحدث عن نفسه فقالت: «كن على يقين أن كلَّ مَن دخل عالم الأحزان سيخرج يومًا ما، ولن يكون ذلك اليوم قبل أن يتحول إلى سفينة تقهر الأمواج العاتية، تصل إلى برِّ الأمان محملة بكلِّ ما لذَّ وطاب من خيرات

نفسها من قوة وثقة وتحدٍ وإيمان».

– أتظنين أننا نصل يومًا إلى برِّ الأمان؟

– إن جدفنا بأيدينا ولم نتكئ على أحد سوى أنفسنا، الصراع صراعك أنت، وما مَن هم حولك إلا متفرجون.

طفا أحمد فجأة بعد غوصه معها في مياه الفكر التي يحب الغوص بها دائمًا، ولكنه خاف أن تسحبه موجة الحديث معها إلى القاع، إلى الاعتراف والبوح وهو ما زال حديث العهد بها، فقال محاولًا تغيير مجرى الحديث: «هل من رواية جديدة على الطريق؟».

– أنوي كتابة أخرى تحمل شيئًا من البهجة، ربما قريبًا.

قالت كلماتها الأخيرة وهي تنظر إلى المستقبل بعين تنتظر عودة أبنائها لها، أحسَّ أنه كم من أسرار خلف هذه الكلمات والنظرات من عينين تحاولان الخروج من محراب أحزانها، فتمنَّى لو أتى عليه يوم يعيش به هذا الشعور، لفت انتباهه حشمتها الممزوجة بأناقة كانت أولى سماتها البساطة، كساها عمق وزهد نظراتها وعدم اكتراثها بقدر كبير بالجانب المادي في العقد بشيء من الجاذبية، إضافة إلى جاذبية هيئتها، توترها الناتج عن قلة خبرتها الذي كسا وجهها بحمرة الورد، عودها المشدود الذي نحت حيث يجب أن يكون منحوتًا، وبسطت عليه النعم حيث ينبغي لها أن تبسط، حذاؤها الرفيع ذو الكعب العالي الذي تستقر به قدماها دون معاناة، واندماجهما معًا وكأنهما يحتضن كلٌّ منهما الآخر، أظافرها السَّارحة في أصابعها لتنساب خارجها بخفة، أنفها القصير العريض الذي يباعد بين عينيها وحاجبيها ليمنح وجهها استدارة طفولية، فم واسع وصل بجمالها إلى درجة أدنى من الكمال، ليمنع ما يصيب النفس من جزع إن أكْثرت من أكل الحلوى، فكان الوجه كله لوحةً جميلةً، حيته لتنصرف فحياها بأحسن منها وانصرفت عائدة إلى رفيقاتها في الورشة تبشرهن بما جرى.

خلال فترة انتظارها لقرار الدار قررت منى التغيب عن محاضراته لئلا ينتبه إلى أنها إحدى تلميذاته مما قد يؤثر على حيادية قراره، اشترت رواياته الثلاث وقرأتهم، لفت انتباهها التناقض بين الروايتين الأولى والثانية والرواية الثالثة من حيث المشاعر، كانت الأولى والثانية تعجان بالبهجة والسعادة وتحملان نهايات سعيدة، وإذ بالثالثة تنزف دمًا، كانت على يقين أن وراء هذه الثالثة مأساة قد عاشها.

«المحنة بيت الحكمة».

ذلك الصّنف من الحلوى

ظلَّت عيناها عالقتين بين أفكاره، غير أن انشغاله صرف عنه كيدهما، مرَّ اليوم، عاد لأمه ثَمِلَ وحدته في فراشه، تذكَّر وجه وكلمات منى التي نسجتهما أحزانها ليكونا آخر ما رأى قبل أن يأخذه النوم.

وعندما ينام أحدنا فإنَّ نفسه تخرج من عالم الوعي الذي يكبتها بالقيود والحسابات والتظاهر والادعاء، لتدخل إلى عالم اللاوعي حيث تقبع أنفسنا العارية التي تخلع عنها كلَّ القيودِ مغلقة خلفها الأبواب المفتوحة فما يراها من أحد إلا صاحبها فيصبح كلُّ الممنوع مباحًا.

أخذه النوم إلى غرفة تجلس بها منى على فراش حريري، ترتدي ما ترتديه الفتاة بليلة عرسها، لتبدو غاية في الإثارة والحياء، يقبل عليها بلهفة فتى يافع فُتح له باب الحلال، يحتويها على عجلٍ فتحتويه في خجل، وما تلبث أن تمتزج معه في كأس الرغبة، ليتذوق كلٌّ منهما عُسيلة الآخر.

يفيق مع أذان الفجر منتشيًا ثم مندهشًا ثم بائسًا ثم متحديًا، نعم، لقد عادت له نفسه الأولى، استيقظ من استرخائه، أخذ حمَّامًا باردًا، ومشهد ما كان ماثلًا أمام عينيه ما له عنه مصرفًا، عاد لفراشه منتظرًا من نفسه صرامتها وبأسها الشديدين مع ذلك الصنف من الحلوى الذي زهده منذ أعوام، وقد كانت على عهده بها، إلا أن عينيها ظلتا نورًا يجذب قلبه كفراشة تنجذب إلى شمعة مضيئة بغرفة مظلمة، غير أنه كان يعلم أن نارها لا سبيل إلى النجاة منها إن اقترب أكثر مما ينبغي.

أخذ يحدث نفسه: «ألم تأخذي عليَّ العهد بألَّا أقترب منهن ثانيةً! استجمعي قواك دائما لنحارب ذلك العدو المدعو حواء، وحدها أمي من يعنيني منه، أنا لا أصلح لشيء بعد الذي كان، ماذا تنتظرين مني وأنا بقلبٍ مذبوح ونسلٍ ممنوع؟».

فتجيبه نفسه: «ما زال بداخلي تعلق وأمل، إنه لظلم لك أن تعيش وحيدًا بلا رفيقة درب لأنَّ إحداهن خانتنا، عليك أن تبحث عن أخرى قبل أن تمر السنين، عليك أن تفتح قلبك فربما تدخله من تستحقه، ألا ترى أمك ووفاءها لأبيك حتى بعد مماته! لماذا نفيت الوفاء عن نساء العالمين؟ خانت هي فتحرمنا! أعدلٌ هذا!».

فإذا به يكتم أنفاسها لئلا تتكلم ثانية بما لا يرضيه، إلا أنها خرجت عن سيطرته كما تفعل دائمًا في لحظات اليقين، دفعته إلى أن مدَّ يده إلى هاتفه ليبحث عن صفحتها وحسابها الشخصي على الفيس بوك، سجل إعجابه وجعلها من الصفحات التي يشاهدها أولًا.

وجد على بروفايل حسابها صورة لأربعة أطفال تبيَّن له أنهم أبناؤها من تعليقات الأصدقاء الذين يدعون الله لها بأن يعيدهم إلى حضنها قريبًا، وألَّا يحرم أحدًا من نعمة الأبناء، أصابته غُصَّةٌ تشبه تلك التي أصابته عندما علم أنه عقيم، سحب الشاشة ليرى شيئًا من منشوراتها ليجد بعض الإعلانات عن بعض الملابس التي تشبه ملابسها، ثم منشورًا يعلن كونها مطلقة، بدأ يدركُ أن ذلك الحزن الذي رآه في عينيها تتخفَّى وراءه آلام تجعل ابتساماتها تظهر على استحياء في مواقف المجاملات.

عاد لنسخة الرواية التي أعطته إيَّاها، أخذ رقم هاتفها وسجَّله على هاتفه باسم منى، وما إن انتهى من كتابة اسمها حتى رنَّ صداه في أذنه، لقد تذكر رؤيا أمه الأخيرة عن تلك المرأة التي تُدعى منى، أدهشه ذلك التشابه الذي جمع بين وصف أمه لها وما رآه بعينيه عندما التقاها، أحدث ذلك رعشةً بجسده تبعتها دقات متلاحقة من قلبه.

صادف ذلك الاندفاع غير المحسوب من نفسه حضورها، فرحت بإعجابه بالصفحة واعتبرت ذلك شيئًا من كرمه وعطفه، أخذها فضولها إلى حسابه الشخصي الذي انضم به إلى الصفحة فلم تجد ما يعينها على رسم صورة لشخصه، بحثت على اليوتيوب باسمه لتجد بعضَ اللقاءات التلفزيونية، وحضورًا له في بعض فعاليات الدار لكنها لم تجد أيَّ معلومةٍ شخصية عنه.

عادت لحسابه الشخصي لتجد حضورًا نسائيًّا طاغيًا على منشوراته، كانت إحدى صديقاته تعلق على كلِّ منشوراته، فما تدع منها شيئًا إلا ونثرت دعواتها له براحة البال، فيجيب على تعليقها دائمًا بقلبٍ كبيرٍ، دخلت على حسابها لتجده عامرًا بصوره لتعرف من تعليقات صديقاتها أنها أمه، تعليقات حارة تدعو له بالزوجة والذرية الصالحَيْن.

توقعت أنه ربما تزوَّج وطلَّق، إنه يقترب من الأربعين، فقالت لنفسها: «لعله أصاب فيما فعل، ماذا أخذ مَن تزوجوا من الزواج إلا ما أخذت أنا أو يزيد!».

فتجيبها نفسها: «أنت تُمنين نفسك بهذه الكلمات، وإلا فمن أين أتى بنو آدم بكلمة الحب إن لم تكن موجودة! هناك عشَّاق متراحمون سعداء، غير أنكِ لستِ منهم».

«آه من الفراغ رغم الانشغال، وآهٍ من الصمت رغم كثرة الطارقين».

الجبّار

أمتع أوقاته تلك التي يقضيها مع أمه، إن وجدها تَمَلُّ البيت أخذها إلى النادي ليتناولا طعام الإفطار هناك، ثم تتريض بالتمشي مع بعض معارفها أو معه، يذهب بعد ذلك إلى عمله بالجامعة ثم إلى الدار، خرج لها من غرفته ذلك اليوم مبتهجًا كعريس يوم صباحيته، قبَّل يدها كعادته وقال لها: «استعدي لنذهب إلى النادي، فأنت لم تخرجي من البيت منذ أسبوع».

– ما لي أراك اليوم تبدو علامات البِشْرِ على وجهك، بشَّرَك الله بكلِّ الخيرِ يا بُني.

– ولمَ لا وقد رزقني الله بأمٍ مثلك، وهل بالدنيا خير أفضل من أمٍّ حنون منشغلة بك عن نفسها بيقظتها ومنامها.

– نعم بها، زوجة وأبناء.

– ألا تملين أمي من هذه السيرة، هيا بنا حتى لا أتأخر على عملي.

تناولا إفطارهما هناك وقاما للتمشي، التفتت إليه أكثر من فتاة في أثناء سيرهما التفاتة إعجاب لم ينتبه إليها، لفتت أمه انتباهه قائلة: «ألا ترى أولئك الفتيات الجميلات اللائي يتمنَّاهُن كلَّ الرجالِ كيف هُنَّ معجبات بك! ليتك تختار إحداهن، إن الأيام تجري يا بني، أتصدق أنه مرَّ عشر سنوات وأنت في وحدتك هذه! أتصدق أن عمرك اليوم يقترب من الأربعين! ورغم ذلك فما زال زمام الأمر في يديك، ما زلت مرغوبًا وتتمناك أفضل النساء، أَرِحْ قلبي وتخيَّر منهنَّ واحدة، إن كانت إحداهن سيئة فلا تنعتهن جميعًا بالسوء.

أجابها وقد لمسته كلماتها: «العيب ليس بهنَّ أمي، العيب بي أنا، أنا لا أصلُح لأيٍّ منهن، هناك خراب بداخلي أحاول مع كلِّ شروقِ شمسٍ أن أزيله لأبني أحلامًا جديدة فلا يسعفني قلبي، وحتى ترتاحي، أمي، دعي الأمر لله، إن كان مقدرًا لي إحداهن فسيكون ذلك رغمًا عني، وإن لم يكن قد قدرها لي فلن يكون ولو سعيت إليها كلَّ السعي، ادعي الله لي أمي أن يطيبَ خاطري الذي كُسِر ولا حيلة لي في ترميمه».

كانت هذه من المرَّات القليلة التي فتح فيها قلبه لأمه، وكشف لها شيئًا من جروحه، فقد اعتاد معها على التظاهر بأنه على خير حال، وما من شيء ينقصه، كان دائمَ الضحك والنشاط، يجيد إظهار عكس ما يُخفي، اعتصرت كلماته قلبها حتى اهترأ، فإذا بها تبتهل إلى الله بصوت يكاد يسمعه المارة والدموع تنهمر من عينيها: «اللهم اغسله من أحزانه واجبر كسره، واجبر كسري فيه عاجلًا غير آجل يا جابر المنكسرين»، احتواها بذراعه مهدئًا من أشجانها مؤمِّنًا على دعائها.

«يا ويلي من ضحكات تخرج من فمي، وأنا أتلقى التعازي في موت أحلامي».

النَّفس الأمَّارة بالحبّ

يومٌ جديدٌ حافل بالعمل يبدؤه بالمحاضرات في الجامعة ثم الدار وما بها من أشغال شاقة كعهد هذه الأيام من كلِّ عامٍ، حيث يتم التجهيز لإقامة فعاليات أدبية تجرى فيها بعض الحوارات النقدية حول الأعمال الجديدة، التي هي من إصدارات الدار بحضور مؤلفيها، ثم التجهيز لمعرض القاهرة للكتاب وغيره من المعارض العربية والدولية.

ولما دخل المدرج وبدأ التفاعل مع الحضور لفت انتباهه وجْهَ منى، سَكَت للحظات ثم نظر إليها متسائلًا دون كلمات: «أهذه أنت من قابلت بالدار؟» ردَّت منى على نظرته بابتسامة خفيفة تؤكد بها ظنونه، ليعود سريعًا لتفاعله مع الحضور.

ولَّما أنهى محاضرته عاد لمكتبه، فكَّر في الاتصال بها، تردَّد قليلًا ثم غلبته تلقائيته فتناول الهاتف وبحث عن اسمها وضغط بحماس على اتصال، رنَّ هاتفها برقم مميز لا يحمل اسمًا، لم ترد، وما هي إلا لحظات حتى رنَّ مرة أخرى، ردت منى، وبعد تبادل التحيات شكت منى في أنه صوته فقالت متسائلة: «الأستاذ أحمد؟».

– نعم أستاذة منى.

ثم أضاف ضاحكًا: «أهذه أنت مَن رأيت بالقاعة؟».

– نعم.

– منذ متى وأنتِ معنا بالدفعة؟

– منذ بداية العام.

– ولماذا لم تحدثيني عن روايتك منذ البداية بدلًا من هذه اللفة الطويلة.

– أردت ذلك، ولكن تعلم أن الدُّور الكبيرة أمثال داركم يصعب على أمثالي الوصول إليها، فآثرت أن أصعد السلم من أولى درجاته، ولكن أبى الله إلا أن نلتقي، فكان ما قدره الله أوقع أثرًا.

– نعم صدقت، العجيب أنني لم أنتبه لوجودك طوال هذه الفترة.

– لا عجب في ذلك، فلم أكن أحضر منذ أن أخذت مني الرواية، كنت في انتظار ردكم.

– كم أنت راقية منى، ولكن ماذا لو لم تقبل الرواية؟!

– كنت سأقتنع بكلام الأستاذ جاسر وأعود لداره.

ضحك ضحكة صافية وقال: «الحمد لله أننا أنقذناها».

سكتا لثوانٍ معدودة فبادر قائلًا: «استعدي إذًا لما هو قادم، وسنلتقي كثيرًا من الآن فصاعدًا».

– إن شاء الله، أشكر اهتمامك ورعايتك لي.

– لا ترددي في الاتصال بي إن احتجت إلى أيِّ شيء، لا تكوني حسَّاسة أكثر مما ينبغي.

أنهى أعماله بالجامعة ثم الدار، وعاد لأمه في آخر الليل ليجدها نائمة أمام التلفاز، ساندها حتى استقرت في سريرها وذهب إلى سريره منهكًا، كان يعشق حالة الإنهاك هذه ويتعمد الوصول إليها، فهي لا تعطي مجالًا للفكر بأن يتسرَّبَ

إلى عقله وقلبه، ويصبح النوم هو السلطان الذي تسري أوامره على الجميع.

استلقى على سريره، وما هي إلا دقائق حتى غطَّ في سُبَاتٍ عميق ليتكرر معه الحلم نفسه ليفيق عند النهاية نفسها بالتوقيت نفسه، فيَهُمُّ واقفًا ليأخذ حمَّامه وهو شارد الذهن فيما رأى وما فيه من متعة، عاد لسريره ثم تناول هاتفه، ليجد منشورَ الأمس لصفحتها وقد كتبت به:

هل هناك سِنٌّ للسَّلامِ

أم سنبقى هكذا محاربين؟!

هل هناك ما اسمه الأمان

أم على خيوط الوهم سائرون؟!

فتح التعليقات ليجد استحسانَ الجمهور وتأمينه على كلماتها وردودها الوقورة، وإذ به يضيف تعليقًا على منشورها: «لم أعد أبالي، وسأبقى على حالي، حال الحامدين»، فإذا به يجد ردًّا منها على تعليقه: «دام الحمد ودامت النعم».

دخل على رسائل الصفحة تاركًا لها رسالة: «لم أصل إلى السلام، بل خسرت الحرب، أعيش الأمان بانسحابي، فأنا لا أجيد السير على خيوط الوهم، طرحكِ أحيا آلامي».

ردت عليه في حزن: «أما عني فقد كُتبت عليَّ الحرب، وما أظن أن هنالك سلامًا أو استسلامًا أو حتى انسحابًا، وإن غاب السلام غاب الأمان، وإن توهمنا وجوده في بعض مراحل حياتنا، فما نلبث أن نغرقَ في محيط الخوف تتبَّعنا قروش الخطر، فلا هي تلتهمنا ولا هي تبتعد عنا لنظل هكذا عالقين في دنيا الذعر، حضورك يحمل تواضعًا يجدد امتناني».

عاد لنفسه ليجدها تستشعر راحة غريبة وانجذابًا لمنى، اعتاد على بدء يومه وإنهائه مع منشوراتها، أحسَّ برغبة في رؤيتها لم يصرح بها حتى لنفسه حتى لا تزجره، فإذا به يجدها تجهز لما يريد قائلة له: «ستراها كلَّ أسبوع في الجامعة، ستكون في فعاليات الدار وستراها»، وزادته نفسه من الشعر بيتًا بأن اقترحت عليه أن يعرضَ كلمات روايتها الشعرية على أحد أصدقائه المطربين، فقد كان متأكدًا من أنها ستنال نصيبًا من الشهرة لما بها من شجن، أعجبته الفكرة وشرع في تنفيذها وحدث ما توقعه، فقد نالت إعجاب ذلك المطرب وطلب التواصل معها، وفي الصباح التالي تواصل أحمد معها ليزفَّ إليها ذلك الخبر الذي ربما يكون مفرحًا لها: «مبروك».

– على ماذا؟

– كنت قد أبديت لكِ إعجابي بكلماتك الشعرية من قبل، وقد التقيت بالمطرب نائل الهواري المعروف وعرضتها عليه فنالت استحسانه، قال إن كلماتك بها موسيقى وملآنة بالشجن، وما مرت إلا أيام قلائل حتى وجدته يتصل بي يطلب مقابلتك ليشتريها منك.

– أصدقًا ما تقوله! أكاد لا أصدق ذلك!

منعها اختناقها بالبكاء من مواصلة الحديث، رقَّ قلبه لها وقال: «لا تبكِ منى حتى لو كانت دموعَ فرح».

– لا أدري كيف لي بشكرك، كلُّ ظهور لك بحياتي شمعة تضيء ظلامي، أمل يبدد يأسي، فرح يطرد أحزاني، قل لي كيف أشكرك.

– اشكريني بتحديد ميعاد تقابلينه به.

– وهل لا بُدَّ من مقابلته؟ إنَّ سفري ليس بالأمر الهيِّن.

حاول إقناعها بالحضور، ربما كان يرغب في رؤيتها وهو لا يدري، أو ربما يدري، فقال بحزم: «ماذا تقولين منى! إنَّ حضورك لا بُدَّ منه، هذه المناسبات هي الدرجات الأولى في سلم النجاح فلا تترددي في إعطائها قدرًا من اهتمامك».

– وهو كذلك، لو تعطينني فرصة ثم أخبرك بالميعاد المناسب.

– طبعًا، خذي وقتك، ولكن لا تطيلي المدة حتى لا تضيع الفرصة.

رفضت أمها وإخوتها الأمر قائلين: «لا يجوز لك الاختلاط بهؤلاء الرجال وأنت امرأة مطلقة تتبعها أعين الناس أينما ذهبت، ثم ما لنا نحن وما للمطربين؟!».

كانت تثور عليهم في كلِّ مرة، ولكن كطائر مذبوح ما يلبث أن يخمد مواجهًا الموت، موت الروح والعزيمة والتحدي في محاربة مجتمع يتربص بها الدوائر.

اتصلت به تخبره أنها لا يمكنها الذهاب لظروف خاصة، أجابها بأنه لا بأس، وأنه سيجد حلًّا لهذا الأمر، كان الضيق باديًا في كلماتها فلم يرد أن يزيدها منه، أدرك أنه لا بُدَّ هناك أسباب قهرية تمنعها من الحضور.

أحست منى كم هي غريبة وحيدة محاربة بهذا العالم، حتى إن أقرب الأقربين منها بعيدون، بل هم عدو لها، ألم يكفهم ظلم الطريق وقسوته فراحوا يشاركونه فعلته! أدركت أخيرًا أنها لا يجوز لها الاستسلام لظلمهم فكتبت:

يا سَالِكًا دَرْبًا وَعِرًا كَفْكِفْ دُمُوعًا تَنْهَمِرْ
عَطْفَ الوَرَى لا تَنْتَظِرْ بَلْ نَارُهُمْ بِكَ تَسْتَعِرْ
رَبُّ الوَرَى بِكَ عَالِمٌ مِنْ بَعْدِهِ لا تَنْتَظِرْ
خَلْقٌ ولَوْ هَادَيْتَهُمْ بِالنِّنِ كَانُوا كَالحَجَرْ
بَلْ نَظْلِمُ الحَجَرَ الَّذِي حِينًا يَلِينُ وَيَنْكَسِرْ
خُذْ حِكْمَةً مِن خَابِرٍ لَنْ تَنْجو مِن رَمْيِ البَشَرْ.

اتصل بها بعد يومين يطلب منها عنوان ورشتها، وسألها هل تمانع في أن يذهبوا هم إليها، رحبت بالأمر، لم يدرِ أحمد ما الذي أصابه عندما رآها، شيء ما يشده إليها، ما لها جميلة هكذا بعينيها الحزينتين، أحسَّ بأنها تعنيه في شيء لا يدري ما هو.

تبادلا معها أطراف الحديث، واتُّفِق على الأغنية بمقابل مادي كبير بالنسبة إلى منى، وجد أحمد ذلك المطرب ينظر إليها وهي تركز بعينيها معه عندما أسمعته بعض كلماتها فشعر هو بضيقٍ غريب، فإذا به يدق بيده لا إراديًّا على مكتبها، وكأنه يضع حدًّا لذلك التواصل بينهما، عادت عيناها إليه فطاب خاطره، رحلا في غير رغبة منه في تَرْكِها.

«إن رأوك قويًّا فأنت كذلك، ولا يريبنك بعض ضعفك».

أبو الأباطيل

ازدانت أروقة الدار لعرسها، إنه احتفالها السنوي واستعدادها لمعرض القاهرة الدولي للكتاب بندواته وعبقه، كان أحمد ذا طابع جادٍّ فيما يخص الدار، يتابع كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ بنفسه لتظهر الدار في أبهى حُلَّة، وكان كلما ذكر اسم منى كصاحبة رواية خَفَقَ قلبه، فما يعود لفراشه حتى تتجلى له مبتسمة، فيحيد بوجهه عنها جهة اليمين ليجدها أمامه، فيتركها تتنقل أينما شاءت، فلم يعد يمكنه منعها، ثم يتوجه إلى قلبه لائمًا: «لماذا تعلقت بها دون إذني؟!» ثم يسقط نائمًا قبل أن يتلقَّى إجابة منه.

أتى اليوم الموعود، اشترت منى ثيابًا أنيقة خصوصًا لهذا الحفل، تهيأت بشغف كما كانت تفعل عندما كان قلبها خاليًا يبحث عمَّن يملؤه قبل أن تبلغ العشرين عامًا، أدركت أنه وإن مرَّ الزمان وفات، فستظل أنثى حتى الممات.

إن الادعاء بأن المرأة قادرة على التحدي قول باطل، وأنها تستغني عن الشريك أبي الأباطيل، وأنها سعيدة من دونه كذبة كذبتها هي ثم صدقتها ثم ما لبثت أن أنكرتها، لقد خلق الله آدم وحواء، فإن أفلت أحدهما يد الآخر شقيا.

حضر كُتَّاب الدار والنقاد ومشاهير الكتاب والمنظمون، حضر أحمد بالطبع ومعه أمه التي اعتادت أن تحضر هذه المناسبة السنوية، جلسات نقاشية عن كلِّ رواية بحضور مؤلفها والنقاد الذين عُرِض عليهم قراءتها للحكم عليها، ولَمَّا حان دور رواية منى كانت هي بالقاعة ترتب وتنسق مع المسؤولين بالدار، حضر النقاد والكتاب ثم حضر أخيرًا أحمد وأمه، حاول ألَّا يبدو مهتمًا أكثر مما ينبغي، وكلما اندمجت منى في أيِّ عمل اقتنصها فرصة ليخطف نظرة إليها.

بدا الارتباك على منى في ذلك الموقف الجديد عليها، الذي يحضره عدد ليس بالقليل من مشاهير الكُتَّاب، انتبه أحمد إلى اندهاش أمه ووجدها تقترب من أذنه موشوشة: «مَن هذه البنت؟ أنا أعرفها، لقد رأيتها قبل ذلك».

دقَّ قلب أحمد لما سمع، غير أنه رد قائلًا: «كيف ذلك أمي! هذه أولى رواياتها مع دارنا».

لم تُجِبْه وأعادت النظر لها، قدم أحد المسؤولين منى، فلمَّا سمعت أمه باسمها اتسعت عيناها والتفتت فجأة إلى أحمد قائلة: «تذكرتها يا أحمد، أتذكر تلك الرؤيا التي رويتها لك عن المرأة التي...».

قاطعها قائلًا: «أمي! لقد رَويتِ لي آلاف الرؤى لآلاف الفتيات».

– منى يا أحمد منى، ألا تتذكرها؟!

– كفى أمي، ليس هذا هو الوقت المناسب للحديث عن الرؤى، دعينا نتابع النقاش.

تماسك أحمد لئلا يضحك عندما رأى أمه لا تطيق الجلوس رغبةً في الذهاب إلى منى للتحدث معها، لا يعرف لماذا شعر بالسعادة عندما تعرفت عليها أمه، ربما أحسَّ أنَّ منى قد وقعت في شباكها، ومن يقع في شباك أمه لا يفلت أبدًا، أَضِفْ إلى ذلك أنه أصبح لديه يقين بأنَّ الله يدبر لهما أمرًا، فكيف تراها أمه في المنام وهي لم تَرَها من قبل؟! وكيف تعلق قلبه بها بالتحديد رغم كثرة الراغبات به؟! كيف لم يضعف معهن وضعف معها حتى أصبح على وشك أن يخلف وعده مع نفسه بأنه لن يقرب ذلك الصنف من الحلوى ثانيةً!

بدأ النُّقَّاد في طرح الأسئلة على منى، كانت تجيب بطلاقة وانفعال يشوبهما شيء من التوتر وكأنها تحكي قصتها هي، تعاطف معها الجميع وأولهم أحمد، انتهت الجلسة بنجاح مع توقع من النقاد بأن تنالَ الرواية حظًّا وافرًا من

الشهرة، وأن تحتل مكانة متقدمة بين روايات العام.

بدأ الجمهور في الانصراف، وبينما هو منشغل بضيوفه وجد أمه تحادث منى، همَّ بالخروج من القاعة فإذا بأمه تناديه، ذهب إليها متسائلًا: «تُرى ماذا عساها قالت لها!».

قال وهو في طريقه إليهما: «مُبارك كاتبتنا، لقد نِلتِ من المدح ما يثبت فؤادك، ويدفعك لتخرجي لنا بروايتك الثانية».

أجابته منى مبتسمة: «الفضل كله لك أستاذ أحمد، لك الشكر بعد شكر الله».

قالت أمه في عجلة: «اذهب أنت لتكمل فعالياتك، واتركني مع منى قليلًا، ولَّا تنتهي عُدْ لنا».

– أيكون ذلك قليلًا حين أُنهي الفعاليات وأعود أمي!».

لم تجبه والتفتت إلى منى وكأنها تريدها في أمر جلل، ابتسم أحمد وذهب كما أمرته أمه، قال محدثًا نفسه في أثناء خروجه: «ما كان ينبغي أن أتركها معها! ستبوح لها أمي بكلِّ شيءٍ، بل قد تحكي لها قصة حياتي كلها».

أجابته نفسه: «وما المشكلة!».

أجابها: «أتعجبك القصة لتجعليها متاحة لكلِّ عابر!».

أجابته: «منى ليست بعابر».

سألها في رجاء أن يجد عندها إجابة ترسيه على برِّ: «ومَن تكون منى؟».

أجابته نفسه بيقين: «أشعر فقط بأنها قريبة منك، بل بداخلك، ربما بقلبك، وستأتي لك أمك بكلِّ صغيرة وكبيرة عنها، أحسنت صنعًا أن جمعت بينهما».

نادت أمه السَّاعي، طلبت قهوة سادة لنفسها، وسألت منى عما ترغب في تناوله، أجابتها منى: «عصير، أي عصير».

– هل تحبين المانجو؟

– إنه مشروبي المفضل.

– وكذلك أحمد.

قالت أمه ذلك وكأنها أثبتت وجود رابط بينهما ثم سألتها: «هل تسمحين لي بالتعرف عليك، كل ما أعرفه عنك هو اسمك».

نظرت منى إليها لتجد وجهًا ملؤه الطيبة والنقاء، فقالت بصدق مُزِج بكثير من الحزن: «منى، ثلاثة وثلاثون عامًا، أم لأربعة أطفال، مطلقة، أسعى إلى استرداد أبنائي بعدما سافر بهم أبوهم، أنتظر حتى ينجح مشروعي لأجني منه ما يكفي إلى حياة كريمة لي ولهم، هذا ما لا تعرفينه عني».

رقَّ قلبها لها شفقة عليها وقالت: «ألم تترك الدنيا أحدًا إلا وأتت عليه، كم تمنيت أن يهنأ أحمد بحياته وأرى أبناءه، غير أن الدنيا أتت عليه كما أتت عليك».

أصاب منى الفضول، غير أنها حاولت ألَّا تُظْهِرَ ذلك، أكملت أمه حديثها لتشبعَ فضولها الذي لمسته في عينيها: «أحبَّ فتاة كانت طالبة عنده بالجامعة، لم أعارض رغم انقباض قلبي منها، فقد تعلق قلبه بها، ونحن جميعًا نعرف

ماذا يصيب الرجل عندما يتعلق قلبه بامرأة، مرَّ على زواجهما خمس سنوات حاول فيها إسعادها كما لم يفعل رجل من قبل، كان يحبها حبًّا جمًّا، غير أنها أحبَّت المال أكثر منه.

كانت تريد منه أن يتحول بين يوم وليلة إلى ثريٍّ، لكم اشترى لها من هدايا ثمينة إلا أنها ما شبعت يومًا، وذات ليلة وجدته أمامي يحمل حقائبه ويقول إنه طلقها ليخبرني بعد ذلك أنها خانته مع غيره وقد رأى ذلك بعينيه، ومن يومها اعتزل النساء، عشر سنوات أحاول إقصاءه عن فكرته دون جدوى وكأنني أنحت بالصخر، تنبري أظافري وعمري وعمره ولا ينبري شيء من إصراره، عشر سنوات وأنا أنتظر اليوم الذي يهنأ به مع زوجة تحبه وأحمل أنا فيه ابنًا له، عشر سنوات بُنيتي وأنا أرى حزنه الذي يحاول إخفاءه عني دائمًا وهو يظن أنه ينجح بذلك، وضع كلَّ همه في عمله، الجامعة والدار، فتح الله له أبوابًا ما عليها من بواب، وما أزاح ذلك صخرة أحزانه قدر أنملة».

اغرورقت عيناها بالدموع، اقتربت منها منى وهي في غاية التأثر بما سمعت، ضمتها إليها وهي تحاول أن تطيب خاطرها: «سبحان الله! مَن يسمع قصته لا يصدق أنه هو مَن يُعطي المحتاج ويساند الضعيف، لقد جعل منِّي شيئًا ذا قيمة وأنا في قمة ضياعي، نشر روايتي وغيره مما لم أكن أتوقعه من أيِّ أحِد، اطمئِني، لن يخزيه الله أبدًا، سيقر الله عينيك برؤية أبنائه قريبًا، أدعو الله أن يرزقه بمَن تستحقه».

سألتها أمه سؤالًا مباغتًا: «أتعرفين لماذا أردت التحدث إليك؟».

– ربما لتباركي لي على روايتي.

– لقد رأيتك بالمنام قبل أن أراك.

– ماذا!

– نعم، رأيتك أنت وأحمد، لا تضحكي كما فعل أحمد عندما أخبرته.

– لا، لن أضحك، ولكن يبدو الأمر غريبًا.

– ولكنه حدث، وسأروي لك ما رأيت، فربما يكون لديك تفسيرٌ له.

حكت لها ما رأت، أحسَّت منى بأن الرؤيا مفسرة بالنسبة إليها فتحدث نفسها في محاولة لتفسير تلك الرؤيا: «سأمضي في طريقي وحيدة، ولكن ألم نلتقِ عند العين؟ لا أفهم! هل ستجمع بيننا الأيام يومًا؟».

– فيمَ شردتِ منى؟

وقبل أن تجيبها عاد أحمد ليجد الحزن يرتسم على وجهيهما، همَّت منى بالانصراف مودعة أمه قائلةً: «تشرفت بمقابلتك، ولكم أودُّ أن أقضي معك وقتًا أطول، ولكنني مضطرة إلى الانصراف، فأمامي سفر لما يزيد على ساعتين وقد تأخر الوقت».

ثم توجهت بكلامها لأحمد قائلة: «محظوظ أنت أستاذ أحمد بأمك التي هي كالملاك».

فأجابها في شيءٍ من السكينة والانكسار: «هي كما قلت وأكثر، هي كل الجميل بحياتي وما لي سواها».

أجابت أمه وتعلقها بمنى بادٍ عليها: «أحببتك منذ أن وقعت عيناي عليك، ولكم أودُّ أن يطول حديثنا، وعندي إحساس بأن الأيام ستجمعنا».

اختنقت منى بالبكاء، ودَّ أحمد لو أمكنه أن يقول لها ما قالته أمه، تنهَّد تنهيدة عاجز، وبعد أن انصرفت منى قال لأمه: «ماذا دار بينكما لأعود فأجدكما على هذه الحالة؟ إياك أن تكوني قد رويت لها ذلك الحلم الذي رويته لي عنها».

– تذكر الرؤيا إذا! قالت إنك ساعدتها لتصل لما وصلت إليه، منذ متى وأنت تعرفها؟ أتهتم لشأنها؟

– أمي! لا تنسجي قصصًا من خيالك، مجرد مساعدة لشخص محتاج، ليس هناك من شيء بيننا.

– وماذا عن رؤياي؟

– أتحاسبينني على رؤيا رأيتها أنت!

– أتحلف أنك لا تهتم لشأنها؟

– هيا أمي هيا، دعينا نعد للمنزل، يبدو أن الإجهاد لعب لعبته معك.

أدركت أمه بقلبها أن هناك أمرًا ما بينهما، ازداد قلقها، لماذا تركته في الرؤيا، أيُكسر قلب ابني مرة أخرى؟

وبينما هما بالسيارة أصدرت أمه صوتًا بجانب فمها مستصعبة ما مرت به منى مشفقة عليها، سألها أحمد مستفسرًا بهزَّة من رأسه فقالت: «منى...».

فقاطعها وكأنه ليس مهتمًّا لشأنها رغم انتظاره لما ستحكيه أمه عما دار بينهما قائلًا: «مرة أخرى منى!».

– كم تعاني!

التفت إليها بقلق بالغ وقال: «من ماذا؟».

– ألم أقل إنك مهتمٌ بأمرها.

– ربما كان بيدي شيء أساعدها به ليس أكثر، قولي أمي ممَّ تعاني منى؟

حكت له ما روته لها منى، قرَّر أحمد أن يكون لها سندًا حتى تبلغ ما تريد، نامت الأم وصعد هو إلى غرفته، كتب لها على رسائل الصفحة: «منذ أن رحلت وسيرتك لم تفارق لسان أمي، كان الله في عونك على بُعْدِ أبنائك عنك، سيعودون قريبًا إن شاء الله، هل تسمحين بالشراكة بيننا في ورشتك لتكبر سريعًا ليعودوا لك أسرع مما تنتظرين؟ وافقي أرجوكِ».

رأت رسالته وهي تتفقد الصفحة بينما هي في طريقها إلى البيت، شكرته على عرضه السخي، ولكنها رفضته معللة ذلك بأنه يكفي ما ساعدها به، وأنه قد ثقل دَيْنُه عليها وكم تستحي منه.

وبعد صمت دام للحظات وتردد دام للحظات أطول كتب لها: «حكت لكِ أمي عني ما لا علم لأحد به إلا أنا وهي».

– أعتذر، ولكني لم أقدر على منعها.

– فعلت ذلك لأنها اطمأنت لكِ، أمي تفهم الناس من نظرة واحدة، لقد أحبتك، ولهذا حكت لكِ.

– وأنا أحببتها وأشفقت عليها، أتمنى أن ييسر الله لك أمرك لتحقق أمنياتها، أنت لا تدري كم هي مُلحِّة مشاعر الأمومة، كثيرة عليها هذه العشر سنوات وهي تنتظر زواجك وأبناءك.

– ربما يكون بيدي تحقيق نصف أمنياتها، أما النصف الآخر فليس بيدي، ربما يمكنني الزواج، ولكني لا أنجب، أجمع الأطباء على أنني عقيم.

هال منى ما رأت، لم يكن بوسع الكلمات أن تمدها بما يترجم حزنها، حاولت أن تكتب شيئًا فكتبت بعد عناء: «يا الله! معاناتها لا تُحتمل، ومعاناتك أضعافها».

– أما عني فراضٍ صبور رغم أنني ما رأيت طفلا إلَّا وتعلَّق به قلبي وتمناه ابنًا لي، ولكنني لم أقوَ على إخبارها، وها هي تنتظر أبنائي.

– يا الله! كلُّ هذه السنوات وهي تردد على مسامعك كلامًا عن أبنائك، كم تعاني أنت!

– ليس كمعاناتك، أنا حرمت من شيء لم يوجد، بينما حرمت أنت من أبنائك بعدما كانوا بين يديك.

– يبدو أن الدنيا لا ترحم أحدًا، ولا بيت فيها للسعادة.

فتح الفيس بوك ليجد منشورًا نشرته منذ دقائق يقول:

حملتُ هَمِّي وسِرْت أتفكر

لِمَ بالهمومِ أحملُ أكثر!

حتى انحنيتُ بهذا المنظر

أمَا من يومٍ أعيش السعادة!

ويصبح فَرَحِي ورقصي عادة!

فكم من سعيدٍ منذ الولادة

إلا جنابي ربيبُ التعاسة

رفعت رأسي لِأَنْظُرَ حولي

هل من أحدٍ يعاني مثلي!

وجدتُ كلَّ النَّاسِ تعاني

تحملُ حزنًا بكلِّ المعاني

دمعًا غزيرًا بلونٍ قاني

وليلًا بلونِ هباب الأواني

فأدركتُ أنِّي أيسرهم حملًا

واحمرَّ وجهي منهم خجلًا

وسألتُ الله سماحًا وعفوًا

يا مَن تحمل هَمًّا ثقيلًا

اشكر ربك شكرًا كثيرًا

فكم من غيرك سقط قتيلًا

ستدرك يومًا أنَّك واهمٌ

فمهما كان يومك غائم

سيأتي يوم لطيف النسائم

فإن لم تحظ بأيِّ غنائم

فجناتُ عدنٍ نعيمٌ دائم.

أبكته كلماتها، أحسَّ بقلبه يدفعه نحوها دفعًا، لم يعد يقوى على الثبات، الثبات على صخرة وحدته، أيسقط! بل لقد سقط، إنه يغرق، يغرق بحبها، راح قلبه يأمره: «هيا قل لها إنك تميل إليها، بل قل لها إنك تحبها وليكن ما يكن، بل تحتاجها، قل لها إنك بحاجة إليها» أراد أن ينفذ أوامر قلبه، فما كان منه إلا أن كتب لها معلقًا: «أنعم برفيقٍ إن كُسر خاطري جبره».

«اللهم كما أجريت أنهار الحب بداخلنا، فارزقنا بمن نرويهم بها، فليس هناك أقسى من أن نبني على مشاعرنا سدودًا».

رحى تدور

يوم جديد في الجامعة يبدؤه أحمد بحماس وإقبال، وكذلك منى، ترتدي ثيابًا أنيقة، ترتسم على وجهها علامات البشر والسكينة، يدخل أحمد القاعة مترقبًا، يتفقد الحضور فيجدها، يوزع نظراته على الجميع في أثناء شرحه إلا هي وكأنها كنزه الذي لا يريد أن يلفت أنظار العابرين إليه، تطرح بعض الطالبات أسئلة تحاول فيها إطالة الوقت ما أمكنهن ذلك، تسأله إحدى الجميلات المثقفات فينقبض قلب منى، يجيبها بطلاقة وعدم اكتراث لجمالها فينبسط، تنتهي المحاضرة ويخرج من القاعة.

يشعر بالرغبة في التحدث إليها فلا يجد سببًا مقنعًا لذلك سوى ذلك السبب الذي يسكن فؤاده، يمرُّ أسبوعٌ آخر ليأتي ميعاد المحاضرة القادمة، يتفقد الحضور فلا يجدها، يخيب أمله في رؤيتها وعليه أن يصبر لأسبوع جديد، هذا إن حضرت، عاد في فراشه لها من خلال صفحتها، يجد كلماتها التي دائمًا ما تمس شيئًا به لا يدري ما هو، ربما قلبه، بل هو.

شغلتها الورشة عن الجامعة، ولكنها لم تستطع أن تشغلها عن التفكير به، لم تستطع حجب صورته من أمام عينيها وربما قلبها، لا، لم تشغلها الورشة بالقدر الذي يمنعها من الجامعة ومن رؤيته، إن ما منعها حقًّا هو محاولتها للبعد عنه ولا تُلام في ذلك.

إنها تحارب على جبهاتٍ شتَّى، أمٌ وإخوة يحسبون خطواتها، جيران يتربصون بها يتغامزون ويتلامزون، لكم ودت لو ناولتها الأرض حجرًا تفقأ به أعينهم، أبناء تتحسس في كلماتهم اضطرابًا وهمًّا، تحصيلهم الدراسي من سيِّئ إلى أسوأ، لا تلوم في ذلك على أحد، إنما هو غياب الأم، حديثها مع أبيهم عن نزولهم لقضاء الإجازة الصيفية معها ورفضه، لا تدري إن كان يعاندها أم لظروفٍ حقيقيةٍ.

لقد بدأت عجلة عملها تدور، ولكن ليس بما يكفي لأخذهم، عليها أن تنتظر إلى عام آخر من القهر لها والاضطراب لأبنائها، ثم عمل تتحمل مسؤوليته وحدها، ثم قلب قد اكتفى من جنس الرجال، قلب ذاق الانكسار ولا يريد المزيد.

إنَّ كل ما تريده من الدنيا هو أن تعيش مع أبنائها في سلام مادي وعاطفي، لا مجال إلى مغامرات جديدة، فلما أحست بأنها قد أصاب قلبها شيء من الميل إليه، اتخذت قرارها في لحظتها، اقطعي عرقًا وسيحي دمًا، لن تفتح الباب لآمالٍ صرعى، مرَّ عليها الشهر في انقطاعها عنه رحى تدور على آمالها الطفولية التي تغزلها المراهقات عن الفارس الذي يتحدى كلَّ شيءٍ ليأخذ حبيبته على حصانه الأبيض فطحنتها.

رأته في مناماتها حزينًا فتراضيه بكلمة حلوة مرة وقُبلة في أخرى، ثم تفيق لتعود لدوامتها التي تُذْهِبُ مفعولَ الحبِّ الذي يشبه الخمر الذي يُذْهِبُ العقول، ولما طال عليها الوجد أخذت بينها وبين نفسها تلوم على الدنيا إن كتبت على قلبها الحرمان من رفيق درب يحنو حين تقسو الأيام، سند حين تدور بها الدوائر، ملجأ من مجتمع لا يرحم الأنثى إن لم تكن في عصمة رجل، مجتمع لا يمت للدين بصلة، مجتمع صنع من المطلقة بقعةً سوداء في ردائه الأبيض، ما كلُّ هذه القيود فقط لأنني مطلقة!

أما تكفيني وحدتي وموت الأنثى الحالمة مني، نعم لم تسعفها عندما جرحت لأنها مكبلة لا حِراك لها.

أما عن أحمد فقد مر عليه الشهر دهرًا، وإذا به يقرر مواجهة نفسه، فراح يؤنب نفسه على ما تفعله: «أتراك جننت! بعد عشر سنوات من الزهد تعود طفلًا يسيل لعابه على قطعة حلوى!»، كان يعود للبيت متأخرًا حتى لا ترى أمه وجهه الحزين، دخل في فراشه وهو يأخذ الوعد على نفسه بأن يعود لحالته الأولى، لن يفكر بها ثانية، لن يتصل بها أو يراها، سيقطع علاقته بها كأنه لم يقابلها قطُّ فأجابته نفسه: «لمَ تقسو عليَّ وعلى منى هكذا؟ كيف تلومها وأنت تعرف جيدًا ما تمر به! لا بُدَّ أنها زهدت صنفك كما هو الحال معك، تعاني كما تعاني أنت، تريد قربك ولكن الموجة عاتية وهي قليلة الحيلة».

لم يجبها، غمس رأسه في وسادته محاولًا كتم فَمِ نَفَسِهِ حتى لا ترقق قلبه عليها، أما يدري أن قلبه قد ذاب شوقًا إليها! وبعد عناء طويل نام، وكلما مرت ساعة استيقظ فزعًا لا يدري لماذا، استيقظ في ميعاده المعتاد يصاحبه الضيق والصداع، ارتدى ملابسه، حيَّا أمه وانصرف سريعًا مدعيًا انشغاله، قضى يومه حزينًا مغمورًا بالعمل لا يتوقف حتى أرهقه حزنه.

حثته نفسه على الاتصال بها فإذا به يمسح كلَّ ما يمت لها بصلة من هاتفه من صفحة ورقم الهاتف، أحسَّ بأن روحه قد سحبت منه، فإذا به يعود ويسجلهم مرة أخرى ولكنه لم يتصل بها، قرر الذهاب إلى الصيد، اتصل بالصحبة التي ترافقه، أتته موافقتهم، ترك العمل وذهب لا يأبه بشيء، عاد لبيته منهكًا، وجد أمه في انتظاره، تعامل معها بعصبية على غير عادته، ندم على ما فعل بعدما تركها، استمر على حالته هذه لشهر كامل حتى ظن نفسه قد نسيها.

«ألم تكفنا قسوة الأيام فصرنا يقسو كلٌّ منَّا على نصفه الثاني! أتُصَدِّقِين أننا نفترق الآن بعد الذي كان! تعالي نُعانِدُ الأيام، ونُعاوِدُ الالْتئام».

حية تسعى

حدث ما كان متوقعًا وأكثر، بيعت الكثير من النسخ من روايتها حتى نفدت الطبعة الأولى، شرعت الدار في نسخ الطبعة الثانية فالثالثة، ظهرت كلماتها على التلفاز لذلك المطرب المشهور، حصدت عددًا فوق المتوقع بكثير من المشاهدات، وكذلك الورشة، فقد زادت مبيعاتها بشكلٍ غير متوقع، بدأت منى موسم الحصاد ثم الدخول في مواسم جديدة، رواية جديدة، كلمات جديدة للمطرب نفسه.

تواصلت مع أبنائها ليخبروها بالشجار الدائم بين أبيهم وزوجته، رأت أنه قد حان الوقت لاسترداد أبنائها، تواصلت مع طليقها، أَبْدَى ترحيبه وموافقته، بارك لها على نجاح روايتها فشكرته، سمعت منه نغمة جديدة بها شيء من التقدير والحنين، ولكنها لم تلق لها بالًا، دخلت روايتها ضمن قائمة الروايات الأكثر مبيعًا للدار لهذا العام.

طلبت منها الدار الحضور لإقامة حفل توقيع لروايتها، كانت توقع على بعض النسخ لجمهورها من القراء، انقطع التواصل بينها وبين أحمد من خلال الصفحة حتى إنهما ظنَّا أن كلًّا منهما قد خرج من قلب الآخر، وأنه يمكنهما استكمال رحلة الزهد والوحدة.

أتى يوم مناقشة المشروعات الكتابية بين أحمد والطلبة، جاء دور منى، دخلت لتجده ذابلًا يهرب بعينيه منها، لم يناقشها في مشروعها واكتفى بقوله: «أنتِ كاتبة مميزة وقد نجحت بامتياز» شكرته في حزن وانصرفت، أنهى عمله بفراغ صبر وعاد ليله ليواجه نفسه التي تلومه في كلمات نشرها على حسابه:

يا مَن تَدْفِنُ هواكَ بقلبك

يَمُرُّ الحبيبُ المَهِيب بِقُرْبِك

تَذُوبُ حَنِينًا وشَوْقًا لحبك

وتبقى جَمادًا فلا تتحرك.

أثارت كلماته شجون منى، بكت بكاءً حارًّا وهي تتخفى عن الأعين، ثم كتبت كلمات ردًّا على كلماته ولكنها لم تنشرها:

أما تعلم أنه يهواك

ولا يرضى بحبيبٍ سواك

وشوقٌ كواه كشوقٍ كواك.

تمر الأيام، وكلما مرت زاد الشوق والحنين، حان موعد كتابة العقد للرواية الثانية، حاول أحمد جاهدًا منع نفسه من الحضور فما استطاع إلى ذلك سبيلًا، حضر ليجدها أكثر منه ذبولًا، لم يستطع رفع عينيه عنها، أغرقها بنظراته الحادة الحزينة التي تريدُ كسرَ كلَّ الحدودِ وأنفاسه تتسارع في محاولة منها إلى مجاراة دقات قلبه التي أحسَّ أن

صخبها يزعج الحضور، حاولت الهرب من نظراته وانصرفت مباشرة بعد توقيع العقد، لحق بها، استوقفها، قال لها لائمًا: «كيف تبتعدين عني بهذه السهولة؟ ألم يمسُّك شيءٌ مما غرقت أنا به!».

أجابته وهي تقتحم عينيه بسهام صدق انطلقت من عينيها: «عن أيِّ سهولةٍ تتحدث، أنا أنتزع قلبي منك انتزاعًا بعد كلِّ لقاء بيننا».

– لكنني لا أقوى على انتزاع قلبي منك، أحبك حبًّا حاولت جاهدًا قتله فقتلني، قتل صمودي الذي صنعته على هزيمتي وعجزي.

– يبدو أننا لسنا من أولئك الذين كتبت لهم الدنيا الهناء، كتبت علينا الشقاء الذي أفقدنا براءتنا وثقتنا بها، وضعت في طريقنا شريكًا لا يشبهنا لتظهر التناقضات التي تضعنا في دائرة الشك في أنفسنا، وضعتنا فوق ناره حتى اهترأنا، لقد أصبح قلبي خرقة بالية، قلَّما تجد الدنيا تجمع بين أحدهم وشبيهه لتسكن الروح إلى الروح.

– لعلها أشفقت علينا من قسوتها، وأرادت أن تستعيدَ ثقتنا بها فأسكنت روحي إلى روحك، لا لم نهترئ، إن ناره أنضجتنا، نحن كما الجروح، نبكي دمًا ثم نطيب لنصبح أقوى، لقد جمَّلتنا جروحنا، نحتت روحنا وصقلتها، أشعر بروحي مطمئنة إلى روحك بعد طول اضطراب، تلامست أرواحنا، فكيف لا تتلامس الأجساد! أتمنى أن يأتي اليوم الذي يحتويك فيه ذراعاي فتنامي على صدري بعد طول أرق، وكم طال تيهي واضطرابي وأرى عنواني وسكني بين ذراعيك، كم أنت جميلة الآن منى بعد رتوش العناء التي رسمتها الحياة على وجهك!

– تراني جميلة وأنت مَن جمَّلتني، فما ظنك بنظرتي إليك وأنت مَن جمَّلني، أراك قمرًا ينير ليلي المظلم.

– أنتِ شمسي، نوري منك، أشرقي بحياتي لتكون لي قيمة فأنا حجر معتم.

– تعلم جيدًا أن الشمس والقمر لا يجتمعان، وهذا حالنا، لكلٍّ منا شأنٌ يغنيه.

– لا تتركي القمر فأنت سبب نوره.

– للشمس أبناء كثر عليها أن تدفئهم.

– إن تجعل لي قدرًا ولو قليلًا من دفئها فأنا راضٍ سعيد يغمرني الأمان.

– لا تظنني أقل منك رغبة في الأمان، ولكن سيختل الوجود إن اجتمعنا.

– فليفنَ الوجود وأنا معك.

قالت منى ودموعها تسابق كلماتها في محاولة أخيرة إلى الهروب: «سأخرجكَ من قلبي دموعًا؛ فلست لي».

– ولكني لا أستطيع ولو بكيتك بدلًا من الدموع دمًا.

اقتربت منه وهي تسعى إلى مواساته بكلمات بائسة: «لا تفتح الأبواب لآمالٍ صرعى».

– سأريكِ إنها حيةٌ تسعى، تعالي نعاند الأيام، كفانا قهرًا وانهزامًا.

«الكَوْنُ في عَيْنَيَّ أنت، كلمات الحب لا تكفي مهما حَكَيْت».

خُفَّا حُنين

رحَّبت به أمها وإخوتها عندما جاءهم خاطبًا، إنَّ طلاقَ المرأة وعودتها للعيش مع أهلها مرة أخرى يُعدُّ من أقسى الابتلاءات عليهم وعليها، هي لهم مسؤولية وعبء، باب مفتوح للقِيل والقال من الأهل والجيران والجميع خاصة بالقرى، حتى داخل البيت تتناسل الخلافات بين المطلقة وإخوتها وزوجاتهم، ثم خوف الأم على ابنتها وما سيصيبها من بعدها إن بقيت بلا زواج.

هذا إن كانت بلا أبناء، أما إن كان أبناؤها معها فحدِّث ولا حَرَج، انكسار لأبنائها بين أبناء إخوتها، فهم ضيوف دائمون وليسوا أصحاب البيت، ناهيك بأن كان أبوهم لا يُنفق عليهم، لك أن تتخيل نظرةَ زوجة الأخ لكلِّ لقمة تدخل فيهم وكأنها حقُّ أبنائها المغتصب، لك أن تتخيلها وهي ترى تأففهم وانتظارهم ليوم تنزاح عنهم فيه هذه الغمة.

أمَّا عنها، فما أدراك ما تعانيه، نظرة من القريب والغريب تقول إنها قصَّرت في شيءٍ ما مع مَن كان زوجها، ينقصها شيءٌ من الصلاح وحسن التبعل، عليها شيء من اللوم قلَّ أو كَثُر مهما كانوا على يقين من أن طليقها هو سبب خراب العلاقة، ثم شعور دائم بالحرج والذل مع كلِّ لقمة أو قرش ينفقونه عليها إن لم يكن لها دخل أو إرث تنفق منه.

وتلك ذات الأبناء فعليها أن تأتي على نفسها وعليهم حتى لا يملوا منهم، عليها أن ترضى بأقلِّ القليل من تفضل أمها وإخوتها عليها وعليهم، وإن نَشَبَ خلاف بين ابنها وابن أخيها فلا ينطفئ إلا بانسحابها وإن كان ابنها مظلومًا، إنها تتحسس كفاف العيش، كفاف المشاعر، كفاف الأمان حتى وإن كان ينفق عليهم أبوهم، ثم مجتمع لا يرحم بنظراته وهمساته.

باختصار، أن تكوني مطلقة فشجرة غير مثمرة يُؤخَذ من أغصانها بلا استحياء، وأن تعولي وأنت مطلقة، فراعٍ بلا عصى تحوم حول قطيعه الذئاب ولا يستطيع لهم هشًّا، من أين أتت هذه الثقافة لا ندري، يدَّعون أنهم مجتمع إسلامي وهم بذلك لا يمتون إلى الإسلام بصلة.

كُتِب عليك أيتها المطلقة الويل ثم الويلات، فلتعودي لذلك الذي لفظته لتحتمي بظله الذي ما هو إلا لظى، أو فلتتركي أبناءك لتتزوجي بغيره متزوجًا كان أو مطلقًا ويعول لتربي أبناءه هو بينما يكتوي أبناؤك بنار زوجة أبيهم.

تم تحديد ميعاد الزواج على أن يكون بعد ستة أشهر حتى ليكون بعد عودة الأبناء وتعرفه عليهم، قال أحمد بأنه سيعدُّ بيتًا لهما وللأبناء، إنه لا ينجب ولَكَمْ يودُّ لو تقبلوه أبًا لهم.

علم علي بالخبر الذي أصابه كالسهم، جنَّ جنونه، انتفض لينزاح التراب عن حبه لمنى، ازداد نفوره من زوجته الثانية، لا أدري إن كان ما يشعر به علي نحو منى حبًّا حقيقيًّا أم حبَّ تملك، إنَّ الرجل الشرقي يظل على اعتقاد بأن زوجته ملك له حتى بعد طلاقها منه، أو ربما ملك لأبنائها فلا يحق لها الزواج، وإلا نقص ذلك من أمومتها شيئًا بل وأشياء، وقد كان الأمر كذلك مع علي، وزِدْ عليه أنه أدرك في قرارة نفسه أنها حبه الأول والأخير.

إنَّ بعض الرجال لا يقتنع بأنَّ زوجته هي أنسب شريك له حتى يجرب غيرها، وخاصة إذا قضيا معًا قسطًا وافرًا من عمريهما، إن للعشرةِ لسحرًا، وإن أنكره أحد الطرفين لبُرهة من الزمن، فما يلبث إلَّا أن يعودَ أدراجه إلى أرض الحنين.

عانى علي العيش مع زوجة ثانية بأحلام وطموحات أحسَّها تتناسب مع مرحلة عمرية قد اجتازها هو ومنى منذ سنوات، نضجا معًا وإذا به مع أخرى تريد العودة به للوراء، إن ما كان يتمنى أن يجده مع منى ولم يجده وجده مع زوجته الثانية ولكنه لم يتوقع أن يتأفف منه، بل يزدريه، لقد تيقَّن بقلبه الآن أن منى هي جوهرته الثمينة التي باعها بثمنٍ بخس، زيجة ظنها جنته فإذا بها أرضٌ بوار، وما أقسى التيقن بعد فوات الأوان، وها هو يتحول الآن إلى نار تلظى بقلبه عندما علم بارتباطها بغيره.

اتصل بمنى ليخبرها بأنه يودُّ لو تعود المياه لمجاريها، وكم هو مهم أن يلم شمل الأسرة ليعيش الأبناء آمنين، أجابته منى في استنكار بالغ: «الآن تقول ذلك! لطالما طلبت منك أن تبقي على بيتنا وكنت لا تبالي بسقوطه مدعيًا أن الطلاق أمرٌ أبسط مما أتخيل، وأنه ما من أذى يصيب الأبناء، وأنه يمكنك ويمكنني أن نتزوج بأخرى وآخر».

– ليس هذا فقط ما ردَّني إليك، لم أكن أعلم أنني أُكِنُّ لكِ كلَّ هذا الحب.

– أهذا علي الذي قضى معي عمرًا طويلًا لم ينطق به يومًا بهذه الكلمة رغم علمه بتعطشي إلى سماعها! أكان لزامًا أن تهدمَ البيت وتتزوج بأخرى حتى تدركَ ذلك، وإن كان ما تقوله صحيحًا فأنا لا أكُن لكَ أيَّ مشاعر تشجعني على العودة لك.

– فلتفكري بالأمر، لا داعي للردِّ الآن، الأمر يستحق منى، ولتتذكري تلك المشاعر الحلوة التي عشناها معًا طوال اثني عشر عامًا.

– أأدركت الآن أنه كانت هناك أشياء حلوة بعد أن أنكرتها، بل لقد سوَّلت لك نفسك أن تراها مرة.

– كفاك لومًا منى، لقد عدت لك معترفًا بخطئي.

– دعني أفرغ ما شحنتني به من عذابات، لكم زرعت الشك في نفسي وآن الأوان أن أقتلعه من جذوره، لم أكن مُخطئة، لم أكن مذنبة، لم أكن أقل ممن فضلتهن عليَّ من النساء، لم أكفر النعمة والعشير، لم أكن معيبة، بل كانت حماقاتك، حماقاتك التي دفعنا أنا وأبنائي ثمنها، وآن الأوان أن تدفعه أنت.

– نعم منى، اقتلعيه من جذوره ولنبذر معًا بذور الحب واليقين.

– كيف لمن زرع الشك أن يزرع اليقين! إن اختصار عذابات عمري معك في كلمات لائمة لا يمحها، واعتراف منك بأخطائك لا يمررها، لقد سطَّرت بيدك خطًّا قد فصل بيني وبينك لا يمحه لومي عليك أو اعتراف منك، دَعْكَ مني علي فقد فات الأوان، أنا مخطوبة الآن وسأتزوج بعد عودة أبنائي، أليس من حقي أن أجرِّبَ حظي كما فعلت أنت!

– لن تكوني لغيري، ثم إنك لن تجدي من يُكن لكِ حبًّا كحبي.

– أنتَ لم تحبني يومًا علي، مَن يحمل مثقال ذرة من حب لا يؤذي مثقال ذرة مما آذيتني به، فلتبحث عن مسمى آخر لشعورك غير الحب، لن أعود لك، قُضي الأمر، علي.

– وأنا لن أسمح بأن يعيش أبنائي مع زوج أمهم، إن تزوجته فلن أردَّ لكِ الأبناء، ولتذهبي إلى المحاكم إن شئت.

– أتريدني أن أعود لك وأنا لا أريد؟

– إن كنت تفكرين بزوجتي فقد طلقتها منذ أيام.

– لماذا؟

– لأنني أحبك أنت، وأنا على يقين أنك تحبينني، كل ما هنالك أنه بقي بداخلك شيئًا تجاهي لأني تزوجت عليكِ، وحين يعود ماؤنا إلى مجراه سيذوب ذلك الشيء، سأعوضك عن كلِّ إحساس مر أذقتك إيَّاه، أنت تحبينني أنا، وإن تزوجتِ من غيري فلن تجدي عنده ضالتك كما حدث معي، لن تجدي ضالتك إلا عندي، أنا ضالتك وأنتِ ضالتي.

– أنا لا أبحث عنك، بل أبحث عن طريقة لأدفن بها كلَّ ما كان بيني وبينك، وضالتك لم تعدْ على قيد الحياة، ماتت منى التي تعرفها وولدت منى جديدة أغلى ثمنًا من كلِّ ما بمقدورك أن تدفعه.

جنَّ جنونُ علي وقال مستنكرًا: «لا تقولي ذلك مرة أخرى، أنت تحبينني كما قلت لكِ، وهناك ما هو أسمى من ذلك كله، أبناؤنا، سأعطيك مهلة لتعيدي التفكير فيما قلت، أما إن اخترت التضحية بأبنائك فلا تلومي إلا نفسك، صدقيني منى، أنا جربت فلا داعي لأن تعيدي التجربة».

قطعت منى الاتصال وهي ترى الأمان الذي حطَّ رحاله حديثًا على روحها يلملم أشياءه ويستعد إلى الرحيل، أرادت أن تسوقَ عليه من يستبقيه فلم تجد إلا أحمد، هو مَن هداه إلى روحها ووحده له كل الدلال عليه.

«حين يأفل ذلك النجم الذي أتحسس به طريقي».

أسرة سعيدة

اتصلت منى بأحمد وقد اضطربت كلماتها، روت له ما جرى مؤكدة أنها لن تتركه أبدًا، أخذت تعترض بلهجة باكية: «كيف أخذه تفكيره إلى هذا المقام، كيف يعتبرني ملكًا له يرميني وقتما يشاء ويعود وقتما يشاء!».

لم ينطق أحمد وكأنما رُبط لسانه، أحس أنه الحلقة الأضعف، كفة الميزان الخفيفة وأبناؤها بالكفة الأخرى، أحس بهوان ووهن يأكل عظامه، بيدٍ تلقي به في غياهب اليأس، فلما أحست منى بغياب كلماته قالت: «مالك لا تتكلم أحمد؟».

أجابها وهو يحاول الثبات: «أشعر أنني ريشة لا وزن لي، تُلقي بي الريح حيث شاءت».

أجابته ودموعها تنهمر كنهرٍ جارٍ: «لا أحمد، أنت ثابت بقلبي، الوتد الذي أعلق به كلَّ سعادتي التي حرمت منها معه، أنت شِقِّي الذي لا بُدَّ من أن ألتئم به، بل أنت قمري الذي أضاء عتمتي كما قلت لك من قبل، إنني أتوق شوقًا إلى العيش معك ليطيِّبَ كلٌّ منَّا جُرح الآخر، أتخيل حياة المتحابين فأجدها تليق بنا، أنت شريك يفكر فيما يسعدني ويفعله، وأحملُ طباعك نفسها، لن يجرحَ أحدنا مشاعر الآخر يومًا، وإن حدث فلن يكون بقصد وسيتبعه اعتذار، أما هو فقد جرحني، بل كسرني، كسر بي تلك الفتاة الحمقاء الطائشة التي تتعشم في حبيبها بأن يحتوي ضعفها وخيباتها ورعونتها واعتزازها بنفسها، تركت بيت أهلي وذهبت إليه محملة بالبراءة وسلامة النية، لم يحتوِني بضلعه الأعوج ينثني حول قلبي النَّدِي، ولم أَفِق إلا على كسر قلبي عندما اجتهد في النزول به إلى طريق عقله المستقيم، فلنتزوج هذا الشهر وليريني ما بيده القيام به».

أراد أحمد أن يتشبث بلحظة حبها هذه ليستقر قلبه الذي يطير في دنيا الهوان، ولكن شعورًا ما تملكه ليهوي به إلى أسفل السافلين، فقال مستسلمًا: «سيكون ما تريدين، كلُّ ما يهمني هو سعادتك، خذي القرار الذي ترينه صائبًا ولا تحملي همي».

قالت في سرعة وحزم: «سنتزوج قبل مرور هذا الشهر».

أجابها متصنعًا تصديق ما قالت والدموع تنهمر من عينيه: «نعم سنتزوج، سأحيا بعد مماتي، ستبتسم لي الدنيا بعد طول عبوس، سيكون لي أربعة أبناء دفعة واحدة، سنكون أسرة سعيدة، سأذهب إلى عملي وأعود محملًا بكلِّ ما لذَّ وطاب من طلباتكم، ستنام الصغيرة على كتفي، سينادونني بابا، نعم، سأكون بابا قريبًا، سأقرأ معهم الكتب كما كان يفعل معي أبي، سيتفوقون فترسل لي مدرستهم دعوة لحضور حفل تكريمهم، سأبني لكلِّ واحد منهم بيتًا خاصًّا حتى البنات، حتى إذا ضاق بها بيت زوجها عاشت به معزَّزة مُكرَّمة، سأذهب مع ابني إلى خطبة الفتاة التي تعلق بها قلبه، وسأضع رجلًا على الأخرى عندما يأتيني أحدهم إلى خطبة ابنتي، سيتزوجون جميعًا وينجبون لنا أحفادًا نقضي معهم أمتع الأوقات بعد أن نشيبَ، سيتبول حفيدي على سروالي فأضحك وتضحكين، سأموت قبلك حتى لا أعيش يومًا لست معي فيه».

أكمل كلماته بينما منى تُنصت له وهي مشدوهة عاجزة عن مقاطعته فقال: «كنت قد بدأت في تحضير العديد من المفاجآت لك منذ أن اتفقنا على الزواج، أشعر برغبة في إخبارك عنها الآن، لقد اشتريت فيلا كبيرة لنا ولأبنائنا، وحجزت

لأبنائنا في أحد أرقى مدارس القاهرة، راعيت أن تكون قريبة من الفيلا حتى يذهبوا إليها ويعودوا منها دون عناء أو تعب، اشتريت سيارة كبيرة حتى إذا خرجنا معًا كأسرة وسعتنا، اشتريت لك عقدًا من الألماس كنت قد أوصيت الصائغ بصياغته خصوصًا لك يحمل اسمينا، ولن تنتهيَ مفاجآتي لكِ يا حبيبة الفؤاد، لن أفعل ما يجعلك تشكين يومًا بحبي لكِ.

ولكن قولي لي: أليس الشهر بكثير! لن أقوى على الانتظار لشهر يا مناي ومنيتي، لماذا لا نتزوج غدًا! لا لا لن يكون غدًا، فما زلت لم أشترِ الأثاث، فلِنُنْهِ الاتصال الآن لأذهب إلى شرائه».

أنهى الاتصال وتركها مذهولة لما سمعت وقد هربت الدموع الحبيسة تأخذ معها روحها الحلوة التي جلبها وجوده، وما هي إلا دقيقة حتى رن هاتفها، إنهم أبناؤها، ردت بلهفة ليأتيها صوت فريد مهللًا ليسألها: «أصدقًا ما قاله بابا؟».

– وماذا قال؟

– يقول إننا سنعيش معًا مرة أخرى، ستعودين لنا لنعيش معك ومعه بعد أن رحلت طنط.

جفت دموعها فجأة، تخيلت لو أنها تزوجت أحمد ولم ترجع إلى علي، ماذا سيكون عليه حال أبنائها إن لم يسمح لها بضمهم إليها؟ سيعيشون بلا أم، سيتزوج علي بأخرى ليعيشوا مأساة جديدة مع زوجة أب جديدة، ستتحول شخصياتهم من بساطتها إلى عقد يصعب فكها، تُرى سأكون سعيدة وأنا مع أحمد في جنة ليس بها أبنائي؟ ما أنا إلا أبنائي، إن ما أبقاني على قيد الحياة هو انتظاري لعودتهم، أتراني أتحمل العيش من دونهم، كيف ستكون نظرتهم لي إن تخليت عنهم؟

ولكن يا منى إن لقلبك عليك حقًّا، أم إنه ليس له من نصيب؟! ثم عن علي، كيف ستعودين له بعد الذي كان؟! بعد أن صفع الأنثى بك صفعة أردتها قتيلة، وبينما هي على حالها هذه إذا بصورة لعلي والأبناء وأخرى لأحمد تمثلان أمام ناظريها، وإذ بصورة أحمد تصغر وتصغر حتى تلاشت لا تدري كيف كان ذلك، أَغَلبتْ عاطفة الأمومة كعادتها! أخرجت على قوانين العقل والقلب والأنا! وإذ بفريد ينادي عليها: «أمي أين رحت؟ لم تجيبِيني، أصدقًا ما قاله أبي؟».

أفاقت منى لترد عليه لا إراديًّا وكأن نفسا غيرها تجيبه: «نعم حبيبي صدقٌ ما قاله، سنعيش معًا مرة أخرى، لن نفترق ثانيةً».

«حتى أقرب الأقربين منك بعيدون».

شتّان بين الغفوتين

أنهى أحمد اتصاله بمنى وقاد سيارته متجهًا إلى إحدى شركات الأثاث، كان على يقين أن ما بينه وبين منى قد ذاب كثلج سطعت عليه شمس الحقيقة، إلا أن قلبه كان كالسكران الذي يعيش في عالم آخر، اختار ما يحتاجه من أثاث لتلك الأسرة السعيدة التي حكى عنها، ثم توجه عائدًا لأمه.

وحين رأى وجه أمه ولهفتها عليه تخيل منى مع أبنائها فأحسَّ بغصة جعلته يفيق من سكرته وأخذ يحدث نفسه: «لن تتزوجني منى، لن يكون لي أسرة يومًا، ليس لي إلا أمي ولن يكون لأمي غيري»، وجدته أمه مقبلًا عليها كطفل كان قد غفا ورأى شيئًا مفزعًا في منامه فجرى ليختبئ في حضنها، أفسحت له مكانًا على فراشها ليستوي بجانبها، سألته عن منى: «كيف حال منى يا أحمد؟ اتصلت بها فلم تجبني».

أجابها وهو في عالم آخر: «سيعود لها أبناؤها قريبًا، ستكتب روايات كثيرة، وربما تمتلك دارَ نشر كبيرة يومًا ما، أتوق شوقًا لأن أشرب وأسقيها من تلك البئر التي حلمت بها أمي، ولكني الآن متعطش إليك أنتِ، ضميني أمي إلى صدرك فأنا أشعر ببرد يشق عظمي، هناك شيء بصدري يؤلمني، ربما يكون قلبي، نعم أمي إنه قلبي».

احتوته أمه بذراعها الأيسر وأخذت تدلك صدره بيدها اليمنى وهي تتلو عليه ما تحفظه من آيات، وتدعو له بأن يريح الله باله ويسعد قلبه، غفا وغفت، ولكن شتان بين الغفوتين، إن غفوته كانت تلك الغفوة التي لا إفاقة بعدها، لقد خرجت الروح إلى بارئها، لعلها تجد عنده ما حرمت منه في دنياها القاسية.

أفاقت أمه على أذان الفجر لتجده نائمًا في سلام، وجهه كالبدر ليلة تمامه، تحسست كفه بكفها لتجدها باردة كالثلج، أخذت تدلكها فما زال بردها، سحبت الغطاء من فوقها لتحكمه عليه، ولما اقترب وجهها من وجهه طبعت على خده قبلة خفيفة لئلا يستيقظ، فلم تجد له نفسًا يدخل أو يخرج.

تسارعت ضربات قلبها، تذكرت موقفًا مشابهًا كانت قد عاشته مع أبيه، ولكنها أنكرت على نفسها تذكر ذلك وسحبه على حالة ابنها، حدثتها نفسها بأنه ربما يكون في إغماءة، أمسكت بذراعه لتتحسس نبضه؛ فما وجدت له أثرًا، ألقت برأسها على صدره فلم تسمع إلا دقات قلبها، أتت بعطرها لتضع منه شيئًا على أنفه فما حرك منه شيئًا، فتحت جفنه فلم يعد كما كان، هرولت إلى هاتفها، لتتصل بالطبيب الذي كان يسكن قريبًا منهم وهي لا تسيطر على أعصابها، فتسقط مع كلِّ خطوة، عادت له تنادته بصوت خفيض فلم يجبها، فقالت له: «أجبني أحمد، قم لتجهز ما تبقى من أمور لتتزوج من منى لأفرح بك وبأبنائك» هزَّته بعنف عله يفيق، ولَّما لم يستجب ابتسمت وقالت له: «أتذْكُر ذلك العقد الذي كان هدية أبيك لي في زواجنا، وكذلك الخاتم الذي هو آخر ما أهديته لي؟ سيكونان لمنى؛ هدية لها في حفل زفافكما».

لم تجد منه ردًّا، ولكنها لم تسكت: «غريب أمرك أحمد! كنت تستيقظ كلَّ يومٍ على أذان الفجر دون أن يوقظك أحد، أخدَّرك حناني حتى صرت نائمًا كالمي...!».

كتمت ثغرها بكفها فلم تكمل الكلمة التي أحست أن ذكرها سيؤكدها، رنَّ جرس الباب، هرولت لتفتح للطبيب ثم توقفت مترددة، فإن فحص الطبيب له سيؤكد مخاوفها، ثم ما لبثت أن هرولت هربًا من مخاوفها.

تفقده الطبيب ليجد روحه قد ودعته، فما أمكنه رفع عينيه في عينَيَّ أمه، بحثت عن قريب تشكو له بثها وحزنها فما وجدت إلا منى.

«كم من الأرواحِ ماتت وكان الموتُ لها طوق النجاة».

الأمومة

أنهت منى الاتصال مع ابنها وتسمَّرت على فراشها محاولة تفهم ما يجري، أحست بألم وكأن قلبها خرقة يعتصرها الحزن واليأس، مرَّت ساعة بعد أخرى وهي تستسلم إلى الحقيقة المُرَّة بعد أن جففَّ اليأس قلبها، استجمعت كلَّ ما تبقَّى لها من قُوى وأمسكت بالهاتف، لتتصل بأحمد لتجد هاتفه مغلقًا، أعادت الكرَّة بعد ساعة لتجده على حاله.

أذَّن الفجر فصلَّت وتوجهت إلى ربها بالدعاء؛ بأن يربط على قلبها وقلب أحمد وأن يعينها على تبليغه بذلك القرار الذي لا حول ولا قوة لها به، بل هي جينات الأمومة التي خلقها الله بها، وبينما هي تدعو ربها إذ بهاتفها يرن، ظنته أحمد، قامت إليه متثاقلة تجرُّ أثقالًا من اليأس والحزن لتجد اسم أمه.

تساءلت منى ماذا عساها أن تقول لها، تلك الأم التي صبرت لسنوات وسنوات؛ انتظارًا ليوم يتزوج فيه ابنها الوحيد وينجب لها حفيدًا، فتحت الخط فجاءها صوتها وهي تقول: «تعالي منى لتوقظي أحمد فهو لا يستجيب لي، ولكني متأكدة أنه لو رآك لاستيقظ واقفًا».

أخذ الطبيب الهاتف منها برفق وأبلغ منى: «البقاء لله، فلتصبري ولتحتسبي».

ردَّت منى في ذهول: «أصبر وأحتسب على ماذا؟! البقاء لله في مَن؟!».

– الأستاذ أحمد توفاه الله.

قالت منى في نحيب: «أَلهذه الدرجة أحببتني أحمد؟ ما إن تحسست حضور علي ورعونة أمومتي حتى فضَّلت الموت على العيش بعيدًا عني، سيظلم الليل في غيابك يا قمري، أصابك الخسوف بعد أن وقف علي بيني وبينك».

صمتت قليلًا وهي تحاول استيعاب الخبر، وإذا بها تقول كأنما تكشف عن حقيقة غابت طويلًا: «قتله علي، بل قتلني وقتله وقتل أمه، نعم قتلنا جميعًا».

سمعت أمها الخبر وهي لا تكاد تصدق، سافروا جميعًا لتلقي منى عليه نظرتها الأخيرة في صمت قاتل، ثم نطقت قائلة: «إلى اللقاء في الجنة أحمد، لقد استكثرت علينا الدنيا فرحتنا، بل إن فرحتنا كانت أكبر من أن تسعها الدنيا، إلى اللقاء يا مَن بحثت عنه طوال عمري، وما إن وجدته حتى فقدته».

ثم توجهت إلى أمه التي جلست بلا حراك على فراشها بجانبه، ترفض أن يغسَّل قبل أن تراه منى وقالت لها: «هذا تأويل رؤياك من قبل قد جعلها ربي حقًّا، التقينا بطريقنا الصعب وافترقنا، أما عن عين الماء فلن تكون إلا بالجنة، مات ظمآنَ وسأظل ظمأى حتى ألقاه ليروي كلٌّ منَّا ظمأ الآخر هناك».

حُمل أحمد إلى مثواه الأخير، رقدت أمه بلا حراك أو كلام، ظلت منى معها، ولما همت بالرحيل نطقت أخيرًا لتقول لها: «أتتركيني وترحلين كما رحل أحمد، إن بعضًا منه معك، إن قلبه معك، منى، لقد كانت آخر كلماته عنك، بكت منى فسقطت أولى دموع أمه منذ وفاته ولم تتوقف».

«كنتَ لقلبي سندًا، فأبى موْتُكَ عليه إلا أن يميل».

جدار الصمت

ولما علم علي بموت أحمد تهلَّل وجهه وأخذ يزرع غرفته ذهابًا وإيابًا احتفالًا بالخبر، وما إن مرت ساعة حتى أصابه الهم، أدرك أن موتَ أحمد سيخلده بقلبها، ولن يكون له مكان به حتى لو عادا للعيش معًا، ثم زاره شعور جديد بالذنب، أحسَّ أن منى ستحمله جريرة ما جرى، مرت عليه الأيام بعد ذلك لتضيف له جرعات من الاكتئاب، لام نفسه على الأحداث برمتها، مرَّ شريط الذكريات أمام عينيه ليتذكر كلَّ ما جرى بينهما.

الكثير من الذكريات الجميلة، كيف لم تكن جميلة في عينيه من قبل، وكم من مشكلات ومعوقات مرَّا بها معًا، وتخطياها في سلام وقد كانت كفيلة بتوطيد علاقتهما، تذكر تلك المواقف التي كان يلوح فيها بهدم البيت، وكيف أنها كانت تحاول إرضاءه فلا يرضى، تذكر تلك الستة أشهر التي عاشاها في خصام، ليقوم بينهما جدار من الصمت، وكيف أنه لم يحاول مرة واحدة هدمه، وكان على يقين من أنه لو حاول لهُدم.

تذكر كيف تزوج بكلِّ بساطة، بل الأدهى والأمر أنه أعادها لعصمته قبل زواجه فقط ليتزوج عليها، ثم يتذكر رضاها بالعودة له بعد زواجه وكيف أنه لم يعبأ بها! بل تعمَّد عدم الإنفاق على أبنائه حتى يضيق عليها الخناق أكثر وأكثر، ولم يخطر بباله أنه دفعها وأهلها دفعًا إلى التنازل عنهم، ليتحمل هو وعروسه الجديد ما لم يكن في الحسبان، أخذ يحدِّث نفسه متسائلًا: «بعد كلِّ هذا يا علي تدرك أنك تحبها! أتحبها حقًّا! كيف وقد طاوعك قلبك على أن تلحقَ بها كلَّ ذلك الأذى! ولما وجدت مَن يسانِدُها في لحظات ضعفها وأحبته استكثرت عليها ذلك، اعتبرتها شيئًا من ممتلكاتك، لا يحق لأحد الاستيلاء عليه، كيف تقول لك إنها تحبه وتصر على طلبك بالعودة لك؟ بل وتضغط عليها بقصة الأبناء؟ قل لي الآن ماذا ستفعل؟».

وبعد تفكر طويل، ألهمه عقله المدبر فكرة نالت استحسانه، رغم ما بها من حرمان له، قرر التنازل لها عن الأبناء، وألا يفاتحها في أمر الزواج الآن حتى تهدأ العاصفة التي تموج في قلبها، سيتكفل النسيان بكلِّ شيء، سيذيب نفورها منه، عاد الأبناء لها وكانت قد اشترت شقة بالتقسيط قريبة من ورشتها والجامعة، حاول التواصل معها جاعلًا أبناءهما حجة، فما كانت تجيبه أبدًا.

مرت الشهور وقد أوشكت الإجازة الصيفية على الانتهاء، كان عليها أن تختار مدرسة لهم لعامهم الجديد، كانت دائمة الزيارة لأم أحمد لتجدها تزداد ذبولًا يومًا بعد يوم، طلبت من منى أن تأتي لتعيش معها والأبناء أو ليعيشوا بالفيلا التي اشتراها وأثثها لهم أحمد، فتبكي منى رافضةً دخولها من دونه.

وبينما هي في ورشتها أحد الأيام، تلقت اتصالًا من أمه بأنها تودُّ رؤيتها، أحست منى بطعم الموت في كلماتها، تركت كلَّ ما كان بيدها وذهبت مسرعة إليها، لتجدها طريحة الفراش بوجه بهي، تحتضنها منى فتهمس لها بآخر كلماتها: «متى أرى أحمد؟»، استدعت لها الطبيب إلا أن روحها أبت الانتظار، بكتها منى وبكت معها أحمد.

وبعد أسبوع من رحيلها جاءها محامي عائلة أحمد ليطلعها على وصية أمه، لتجدها قد كتبت لها كلَّ تركتها معلقة أن ذلك يسعدها ويسعد أحمد، ولتكمل هي الطريق من بعده.

أصبحت منى الآن ذات ثروة كبيرة، غدت دار النشر والفيلا والسيارة وبيت أمه ومجوهراتها وغيرها من الأموال ملكًا لها، لم تتحمل منى الخبر وأخذت تحدث نفسها: «لم يأتني منك إلا الخير يا أحمد يا حبيبي، طبت حيًّا وميتًا أنت وأمك».

أطلعها المحامي على كلِّ الأوراق التي تضمنت فواتير بمصروفات المدرسة التي حجز بها أماكن لأبنائها، تسلمت إدارة كلِّ شيء، أدخلت أبناءها هذه المدرسة وانتقلت إلى العيش بالفيلا، وأصبحت من أصحاب الأملاك، تحولت ورشتها إلى مصنع، استمرت الدار وزادت رفعةً وعلوًا، أنشأت مشروعًا خيريًّا صدقة على روح أحمد وأمه، تمده بالمال على الدوام ليكبر وتضرب جذوره في الأرض وفروعه بأيدي الفقراء.

تفوق الأبناء في مدرستهم، أتتها دعوة إلى حضور حفل تكريمهم، فتذكرت كلمات أحمد وودت لو كان معها، استقر علي بمصر، مر عامان وهو يحاول استمالة قلبها كلما سنحت فرصة لذلك، ولما آلت إليها ممتلكات أحمد واستقرت في فيلته ضعف أمله في استرجاعها.

قرر مواجهتها لتكون محاولته الأخيرة للعودة لها، ذهب إلى المصنع لتفاجأ به أمامها، واجهته بعينين تخترقان عينيه، فلا خجلَ ولا ضعفَ ولا ودَّ كما كان أيام أن كانت في عصمته، ولكن ذلك لم يزحزحه عن هدفه قدر أنملة، بادرها قائلًا: «أما آن الأوان ليجتمع شملنا؟ اغفري لي أخطائي بحقك، آن الأوان لنرمي كلَّ شيءٍ خلف ظهرينا وننظر إلى الأمام».

– أنا أنظر إلى الأمام بالفعل، إنه أنت من ينظر إلى الخلف، ثم إن الأمر ليس كما تراه، كانت أخطاؤك وحماقاتي، رأيتك سندي ككلِّ الفتيات الحمقاوات، أو من هن على الفطرة، لو أردنا الدقة، ولو سندتني لاستقامت الأمور، ولكنك لم تفعل، ما كان بيننا ماضٍ دسته بقدميك وانتهينا، الحب وصَوْن العِشْرة هما الرصيد الذي يُؤَمِّن مستقبل المشاعر ولكنك لم تصنها، ثم إني أعيش مع أحمد طوال الوقت، كلُّ شيء يذكرني به، أعلم أن وجودك بيننا أفضل لأبنائنا، ولكن لا شيء بيدي، أنا لا أستطيع العيش معك وقلبي مع غيرك، ولم ولن يزيحه منه حتى موته، لا تظن أن ما تشعر به نحوي حبًّا، أنت لم تحبني ولن تفعل، إن حبي لأحمد يجعلني أراك رجلًا لا أعرفه مرَّ بجانبي في أحد الشوارع المزدحمة بآلاف المارة، صدقني، لقد نسيت كلَّ شيءٍ كان بيننا حلوًا ومرًّا، غسلني أحمد من أحزاني، احتواني كما لم تفعل أنت يومًا، ولما أحس بأنني قد أعود لك من أجل أبنائي انسحب في هدوء، لم يبتعد فقط، بل فارق الحياة كلها، فلتنسَ أمر عودتنا، أترضى أن أعودَ لك وأنا أنتظر يومًا أجتمع به مع أحمد في الجنة؟ أترضى أن نعيش معًا في فراش واحد ويكون ثالثنا أحمد؟ أنا لم أعد منى التي عرفتها وأحببتها إن كنت أحببتني يومًا، أنا الآن منى القائمة على أصولها بعون الله، ربما لو كنت في حاجة إلى المال وكان بيدك نفقتي لعدت لك، وأحمد بقلبي لا ينافسه فيه أحد، فلتحمد الله على أمانتي معك، ارحل علي، ولتكن شريكًا لي فيما لا حِيلة لي في فك شراكتنا به، ستجمعنا الأيام في مناسبات عدة تخص أبناءنا، وما دون ذلك فعليك نسيانه.

مضى علي من أمامها غضبان أسفًا، لا يصدق أن هذه هي منى التي عرفها، إنها لم تعد تحبه حقًّا، هي لا تكذب، سأل نفسه: «وهل أحبها حقًّا؟»، لم يجد لسؤاله جوابًا شافيًا، وحيثما ذهب طارده طيفها فيقول لها محدثًا نفسه: «ألم يكن بيد الدنيا أن تُلَقِّنني الدرس إلا بفقدك لأكفِّرَ عن فَعْلَتي؟!».

«وحيثما ذهبتُ طاردني طيفكِ! ألم يكن بيد الدنيا أن تُلَقِّنني الدرس إلا بفقدك لأكفر عن فَعْلَتي!».

كان معهم

مرت شهور ليصلهم خبر زواج علي، ثم عام ليصلهم خبر طلاقه، ثم يمر عامان ليتخرج فريد ويصرح لأمه بحبه لزميلة له، تذهب إلى خطبتها متذكرة كلمات أحمد وتتمنى لو كان معهم، كلما خرجوا بالسيارة تخيلته معهم، تزوج علي للمرة الرابعة ثم وصلهم خبر طلاقه بعد شهور، يتخرج ماجد ثم ضحى، يتقدم أحدهم خاطبًا لضحى، تقابله منى وهي تضع رجلًا على الأخرى كما قال أحمد وتتمنى لو كان معهم، تزوج ماجد، أنجب فريد حفيدها الأول، تمنت لو يتبول يومًا على سروالها لتضحك ويضحك أحمد، تخرجت ريم، أنجبت ضحى حفيدها الثاني، أنجب ماجد حفيدها الثالث، تزوجت ريم، أنجب فريد حفيدها الرابع، أنجبت ريم حفيدها الخامس، امتلأت حديقة الفيلا بالأحفاد من الذكور والإناث، وجدوا جثة علي بشقته بعد أيام من موته وقد تحللت، بكته منى وبكت معه سنوات قضتها معه وكتبت:

والآنَ تَدْنُو المَنِيَّة ماذا تُراكَ جَنَيْت؟
هل مِن صديقٍ حميم كم بالوفاءِ أَبَيْت؟
هل مِن حبيبةِ عُمْرٍ كم عَنْهُم اسْتَغنَيت؟
هل من دخولِ الجَنَّة عن بَابِها وَلَّيْت
من جَنَّتي قد خَرَجْت وللعذابِ أتَيْت
فَذُقْ صَنيعَ يَدَيْك وعَانِ ما عَانَيْت.

توالت رواياتها وأغنياتها التي أصبحت ملهمة للأجيال التي تلت جيلها، بلغت الخامسة والسبعين، وفي إحدى الليالي المقمرة نامت منى لتستيقظ مع أذان الفجر، لتروي لأبنائها وأحفادها رؤيا كانت قد رأت فيها أحمد يقف في حديقة غنَّاءٍ مبتسمًا، كان يبدو أصغر سنًّا مما عرفته، كما بدت هي بريعان شبابها، وإذ به يدعوها لأن تتبعه فتبعته.

أحست أن أجلها قد اقترب، مرت أيام وهي تنتظر لقاءها بأحمد، مر شريط معاناتها أمام عينيها لتجده يشبه في بعض حلقاته تلك الأحداث التي مر بها وطنها، نعم، إننا صور مصغرة من أوطاننا، مخاض طويل، طلقات ولادة لم تسفر بعد عن وليد.

ومن يومها لم يتركها أبناؤها لتبيت وحدها، ترافقها دائمًا حفيدتها منى التي أسماها فريد باسمها، التي كانت أكثر أحفادها حبًّا لها وقربًا منها، تحكي لها منى دومًا عن ذكرياتها مع أحمد، وكيف كان يتمنى أن يراها ويحملها وتتبول على سرواله.

وفي إحدى الليالي قالت منى الحفيدة لمنى الجدة: «كيف لي أن أتحاشى أحزانًا كأحزانك جدتي؟ إن ما يتملك عقلي وقلبي الآن هو أن أعيش قصة حب، أرى سعادتي هناك».

تنهدت الجدة تنهيدة طويلة، ذهبت بعيدًا بخيالها عند شبابها ثم عادت لترد عليها: «سأروي قصتي لك ولكلِّ فتاةٍ عشرينية، أتذكرني وأنا في مثل سنك، غارقة في عالم من البراءة، الرومانسية، التيه والإمعان في عالم الخيال ونسيان مَن

أنا، غاية أحلامي أن أعيشَ قصةَ حبٍّ من النظرة الأولى تنتهي بالزواج والإنجاب، ولم أعِ أنني خلقت لما هو أكبر من ذلك».

وتمر السنون وأتساءل، أين كانت خطتي لحياتي! لماذا تجاهلت ما وهبنيه ربي ولم أرْعَه حق رعايته، حتى أرسم بيدي ما خلقني الله لرسمه في لوحة الحياة! لكلٍّ منَّا بصمة عليه أن يضعها لتثبت حضوره قبل أن يحين موعد الانصراف.

أدعوك الآن أن تسلكي غير هذا الطريق إن أردت، فكري جيدًا أين تريدين أن تجدي نفسك في المستقبل البعيد، ثم خطوات عملية تعبر بك إليك عند هذا المستقبل، حتى تتمكني وقتها من الاستناد على نفسك ونفسك فقط، فلا تحولك الأيام إلى ظلٍّ لأحد، ذات إرادة وعزيمة تزلزل خيبات النساء، دليل يُستضاء به، فإذا غدرت بك الأيام أو انحنى الحب ظللت قائمة على أصولك فلا تهوي بك الريح في مكانٍ سحيق.

خرجت روحها إلى بارئها تاركة مجاديف سفينتها إلى سواعد أبنائها، قامت ابنتها ضحى بتنظيم مسابقة أدبية تحمل اسمها ليشارك بها كلُّ ذي موهبة بالكتابة، حضرت رفيقات دربها وشريكاتها بالمصنع كمكرمات لكونهن داعمات لها، تغيَّرت حيواتهن كثيرًا بعد أن أصبحن ذوات إرادة وكيان، تركت عزة زوجها، وانتقلت إلى العيش بأبنائها بعيدًا عن قريتها، تزوجت كلٌّ من هنادي ورواء، استردت حليمة ابنها، أصبحت شيماء سيدة أعمال ناجحة، ولم يتوقف ماء علاقتها بزوجها عن الجريان، تذكرن جميعًا أن منى كانت الشرارة التي أشعلت فتيلهن ليضئن عالمهن الذي طال ظلامه.

«يا من كَلَّتْ أقدامكم من المسير، لا تتوقفوا، حتمًا ستصلون، فإن تخلى عنكم البشر، فستغشاكم رحمة الله ولو بظلِّ الشجر».

انتهت.